بين ظلمات المجهول

ذكريات مبعوث سوداني في الولايات المتحدة الأمريكية

ديسمبر ١٩٧٤ ـــ ديسمبر ١٩٧٨

الدكتور
التجاني الشيخ شبور



١٤٠١ - ١٩٨١

بين ظلمات المجهول

ذكريات مبعوث سوداني في الولايات المتحدة الأمريكية
ديسمبر ١٩٧٤ ـــ ديسمبر ١٩٧٨

الدكتور
التجاني الشيخ شبـــور



الطبعة الاولى
١٤٠١هـ = ١٩٨١م

المحتويات

إهـــداء

للأجيال السودانية القادمة والمتمسكة بقيمها وتقاليدها وتراثها الأصيل. . .

للبراعم الصغيرة النامية والمتطلعة في حياتها للاستقرار والسعادة في كل شبر من أرض بلادنا الطيبة. . . أهدي هذه الكلمات.

المؤلف

مقدّمة

ليست هذه المذكرات دراسة اجتماعية للمجتمع الأمريكي بقدر ما هي تجربة شخصية من واقع حياتي ربما لا يتعدى إطارها شخصي والمدينة التي عشت بها، وربما الجامعة التي درست فيها. وعلى ذلك فقد أخطىء وقد أصيب خاصة في تلك الفقرات التي أخذ فيها تحليلي الشخصي سبيله إلى تفسير بعض الأمور والمعاملات التي مررت بها. وربما يسألني سائل ما الغرض منها، وهي لا ترقى لأي درجة من التعميم في المجتمع الأمريكي؛ وهذا صحيح. فأنا أولاً لا أملك صلاحيات تقويم المجتمع الأمريكي لأنني ببساطة لست أحد أفراده. كما أنني لست من المعجبين وحتى أحتذي بنماذج الدراسات التي يقوم بها دارسو العلوم الاجتماعية الغربيون خاصة تلك التي تعالج مجتمعات غير مجتمعاتهم، يصورون قطاعاتها في إطار منظار (الحضارة التكنولوجية والصناعية) ويصبغون عليها صفتي التقدم والتخلف. ولو أتيح لي إجراء دراسة اجتماعية عن المجتمع الأمريكي لما خلعت منظار قيمي الاجتماعية أنا الآخر وأصبغت عليه صفة التقدم أو التخلف، من وجهة نظري الاجتماعية المستقاة من تقاليدي وتراثي وأخلاقي الاجتماعية. ولو تأمل الانسان في التكوين العنصري للمجتمع الأمريكي لوجد أنه يتكون من مهاجرين من مختلف أقطار الأرض، ولعمري لهي من أقسى المسائل حتى على الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا إجراء دراسة في أي قطاع من المجتمع الأمريكي لتعميمها. وكثيرون ممن عاشوا في أمريكا يدركون ما أعني، لكنني وفي هذه الذكريات آثرت أن أخط معلماً ولو صغيراً يمكن أن تهتدي به الأجيال السودانية القادمة في

بحثها عن الاطار الاجتماعي الذي يكفل حفظها من القلاقل والآلام الاجتماعية والتي تهدد راحة المجتمعات الغربية اليوم بصفة عامة. ولعلني، وبعد تجربة معيشتي في أمريكا، أدركت حقاً بأن تقاليدنا السودانية والمرتبطة ارتباطاً جذرياً في معظمها بديننا الاسلامي الحنيف، لهي من أغلى ممتلكاتنا وعلينا أن نعض عليها بالنواجز. فالمجتمعات الغربية وخاصة المجتمع الأمريكي-برغم التكنولوجيا والآلات والمعدات المتوفرة لها، تعاني معاناة مرة من النواحي الاجتماعية مما أضفى عليها تعاسة من الصعوبة إخفاؤها على مستوى المجتمع والأسر والأفراد على السواء. ولا أظن أن هناك من يستطيع اقناعي بأن التكنولوجيا يمكن أن تكون بديلاً للهدوء والصفاء الاجتماعيين. أي بمعنى أن تنحصر جهود الانسان في التقدم التكنولوجي وحده تاركة البحث عن الاطار الاجتماعي الأمثل لحفظه من القلاقل والآلام. ولعمري لو اتجه الفكر الغربي بالقليل من الجهد الجاد نحو البحث عن إطار يكفل لمجتمعاته الاستقرار والعيش الهادئين، لما استغرق طويلاً ليصل إلى أهمية تطبيق المبادىء الدينية -وأقلها في تقديري ما تبقى من مبادىء وتعاليم ديانته المسيحية- كأسس تحدد علاقاته الاجتماعية. لكن التكنولوجيا وحُمى التقدم الصناعي صرفتا نظر الغربيين عن خطورة الجانب الاجتماعي وهو جانب ليس من الصعب التنبؤ بدوره في المستقبل القريب في انهيار حضارة اليوم، التي حملت الانسان وآلاته إلى القمر والمريخ.

وقبل أن أبدأ في سرد هذه الذكريات أود أن أوجه تحية خاصة مقرونة بالاحترام الكامل والتقدير لشعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بجامعة ويسكونسن-ماديسون بالولايات المتحدة الأمريكية، لأساتذتها وموظفيها وعمالها للمعاملة الكريمة التي وجدتها إبان فترة السنوات الأربع التي قضيتها بهذه الشعبة كطالب للدراسات العليا في مجال التعليم الزراعي. وأخص بالشكر أستاذي الانسان والمشرف على دراستي البروفسير جون فرانسيس ثومبسون لدعمه ومعاملته الكريمة لي كأحد طلبته خلال برنامجي الدراسي، وللعالم البروفسير ميرل استرونج المحاضر بشعبة إدارة التعليم بالجامعة ومدير مركز الأبحاث الفنية والمهنية بجامعة ويسكونسن-ماديسون

لمساندته المقدرة لي خلال هذه الفترة، وخاصة في الفترة التي أعقبت انقطاع بعثتي الرسمية من قبل وزارة الزراعة بالسودان. ولا يفوتني أن أشيد بالبروفسير جورج كارتر والبروفسير جيمس دنكان والبروفسير باتريك بويل من شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة للتوصيات الكريمة التي بعثوا بها لكلية الدراسات العليا بجامعة ويسكونسن-ماديسون، لمواصلة دراستي لدرجة الدكتوراه في التعليم الزراعي. وللبروفسير بيرتون كرايتلو والبروفسير روبرت بويد من شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بجامعة ويسكونسن-ماديسون والبروفسير بكري مكي حمد من كلية الهندسة بجامعة الخرطوم والمحاضر الزائر بكلية الهندسة بجامعة ويسكونسن-ماديسون أوجه شكري وتقديري للتوصيات الرقيقة التي بعثوا بها لكلية الدراسات العليا بجامعة ويسكونسن-ماديسون لمساندتي عند تقديمي لطلب منحة دراسية لمواصلة دراستي. وللصديقين الدكتور التجاني أبو جديري، والدكتور عابدين محمد علي أوجه خالص شكري وتقديري لمعاونتهما الكريمة لي والتي شملت كِلا الجانبين الأكاديمي والاجتماعي خلال برنامجي الدراسي بأمريكا. ولكل زملائي وأصدقائي السودانيين المبعوثين المتزوجين بجامعة ويسكونسن-ماديسون الذين غمروني وبقية المبعوثين غير المتزوجين بالكرم السوداني الأصيل وبالدعوات المتواصلة ليل نهار أهدي خالص تحيتي وشكري. كما أود أن أتقدم بخالص شكري وتقديري لأخي وصديقي العزيز الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر المحاضر بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم، ولأخي وصديقي العزيز الأستاذ مختار الطاهر حسين المحاضر بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية على اطِّلاعهما -رغم مشاغلهما العديدة- على هذه الذكريات وتزويدي بآرائهما وملاحظاتهما القيمة. وللدكتور جعفر ميرغني أحمد المحاضر بوحدة التعريب والترجمة بكلية الآداب بجامعة الخرطوم أتقدم بشكري وتقديري على إطِّلاعه أيضاً عليها قبل الطبع وعلى ملاحظاته القيمة المفيدة. وإن كان هناك شكر أكثر من خاص لأهديته لخطيبتي اعتدال، فهي دون رياء وراء كل كلمة كتبت في هذه المذكرات. فقد كانت خطاباتها المشجعة وكلماتها الرقيقة ودعمها

المعنوي المتواصل هي واحات سفري عبر دروب الغربة القاحلة ومتاهاتها المظلمة، ألتقط فيها أنفاسي بين الفينة والأخرى وأنا أصارع الحياة لانتزاع آمال لي من بين فكي المجهول.

شيء واحد أرجو أن أنبّه له القاريء الكريم، وهو أن كلمة أمريكا الواردة في هذه المذكرات تشير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولا ترمز من قريب أو بعيد لكندا، أو المكسيك، أو أي من الدول الأخرى الواقعة في قارة أمريكا الشمالية. كما أرجو أن أشير بأنني قد ركزت هنا بصفة خاصة على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الأمريكي من خلال معايشة واقعية لا تمسها مؤثرات سياسية أو حزبية أو انتماءات قومية إلا في حدود ما يتطلبه قليل من الاسهاب، علمًا بأن العمل الأكاديمي والمهني في سلم حياتي كان هو المحور الطاغي على أي انتماءات سياسية.

في نفس الوقت تركت الجوانب الأخرى سياسية كانت أو سيكولوجية أو تاريخية للمهتمين بها. وإن وجد القارىء الكريم خللاً في ترابط الأفكار في الجزء الأول من المذكرات مقارنة بالجزء اللاحق منها، فهو لأنني آثرت أن أسطرها كما عايشتها في لحظاتها دون اعتبار لتبلور أفكاري ومفاهيمي وسرعة الأحداث وتزاحمها في هذه الفترة من حياتي. وعلى كل، فإن هذه المذكرات لا تحمل صفة أنموذج اجتماعي مقترح يهتدي به، إنما هي مجرد تسجيل لخواطر وأحداث قد تهم الدارسين والمنظرين في مجال العلوم الاجتماعية يوماً ما.

والله ولي التوفيق.

الخرطوم في ١٩٧٩/١/١

د. التجاني الشيخ شبور

بداية السفرة

كانت الساعة تشير إلى الرابعة من صباح ذلك اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر عام ١٩٧٨ حينما أطليت من نافذة طائرة الخطوط الجوية البريطانية الضخمة خلال صعودها في أجواء مدينة شيكاغو بولاية إيلينوى الأمريكية، متجهة شرقاً عبر الأطلنطي نحو لندن. فلقد كانت تلك الرحلة هي إحدى الرحلات الروتينية لطائرات الخطوط الجوية البريطانية من مطار «أوهير» بشيكاغو في سفرية عادية لها عبر ذلك المحيط إلى مطار «هيثرو» بلندن. لكنها لم تكن رحلة عادية بالنسبة لي في ذلك الحين وأنا استقلها عائداً للسودان. فقد كانت تلك الرحلة خاتمة لصراع أكاديمي واقتصادي واجتماعي ونفسي عشته في أمريكا ودام لفترة أربع سنوات متتالية، بدأ في ديسمبر عام ١٩٧٤ حينما بعثتني حكومة السودان للتحضير لدرجة الماجستير في التعليم الزراعي بإحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. وبينما كان بصري يجول متنقلاً بين عمارات شيكاغو العالية وهي تختفي عن ناظري تدريجياً كان فكري ينؤ بالكثير من ذكريات وجودي بأمريكا ومن أسئلة - ظل ذهني يرددها باستمرار خلال الأشهر الأخيرة من وجودي بها - عن وطني السودان وما قد طرأت عليه من تغييرات في شتى مجالاته بعد غيبة هذه السنين. كيف بدأ كل ذلك؟!!.. إنها قصة ليست طويلة، لكنها مليئة بالأحداث، بدأت في السودان.

ففي يوم الجمعة الموافق العشرين من ديسمبر عام ١٩٧٤ وحوالي الساعة الواحدة ظهراً، اتجهت إلى جامع البرير قرب منزلنا بحي البوستة بمدينة أم درمان لأؤدي فريضة الجمعة، وسألت الله سبحانه وتعالي أن

يوفقني فيما أنا مقدم عليه إذ أن ذلك اليوم هو موعد سفري إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتحضير لدرجة الماجستير في التعليم الزراعي بجامعة ويسكونسن - ماديسون. عدت بعد الصلاة إلى منزل أسرتي وشرعت في إعداد حقائبي للسفر وجاء بعض الأهل لوداعي. كان موعد قيام الطائرة الساعة العاشرة مساء ولذلك اتجهت حوالي الساعة الثامنة مساءً إلى مطار الخرطوم يصحبني أفراد أسرتي، والدي ووالدتي وأشقائي وشقيقاتي. وعند استفساري للمسؤولين بالمطار علمت بأن موعد قيام طائرة الخطوط الجوية السودانية إلى لندن قد تأخر من الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشرة منتصف الليل. لذلك لم أر مبرراً لإبقاء أفراد أسرتي بالمطار وودعتهم وطلبت منهم العودة إلى المنزل. ولن أنسى منظر والدتي الباكية وهي تحتضنني للوداع مرددة - وككل الامهات - عبارات من القلب تسأل فيها الله سبحانة وتعالى أن يحفظني ويوفقني وأن يعيدني سالماً كما ودعتني.

في مطار الخرطوم كنت على موعد لمقابلة زوجة أحد الزملاء المبعوثين السودانيين الذين يدرسون في ماديسون بأمريكا لأصحبها معي هي وأطفالها الثلاثة إلى أبيهم. وقد أخذت منها جميع أوراق السفر الخاصة بها وأطفالها وضممتهم إلى أوراقي وأجريت كل التأشيرات اللازمة قبل وصول الطائرة السودانية إلى مطار الخرطوم من نيروبي للسفر إلى لندن. وفي تمام الساعة الثانية عشرة من مساء ذلك اليوم استقلينا الطائرة متجهين إلى لندن. وفي لحظة صعود الطائرة في أجواء الخرطوم ألقيت بنظرة الوداع الأخيرة إلى بلادي عبر نافذة الطائرة ويا له من منظر جميل من تحتي؛ الخرطوم بأضوائها اللامعة تختفي عن ناظري رويداً رويداً، وعدت بفكري مرة أخرى إلى داخل الطائرة وبدأت أفكر ماذا سأفعل عند وصولي إلى لندن والخطوات التي سأتخذها هناك. في الحقيقة لم يطرق النوم أجفاني فقد كانت تدور بذهني شتى الأفكار ولعل أهمها في تلك اللحظة العناية الكاملة بزوجة الزميل التي ترافقني وأطفالها الثلاثة حتى يصلوا سالمين إلى أبيهم.

هبطت الطائرة في مطار روما بإيطاليا حوالي الساعة الثانية صباحاً.

وتمشياً مع قوانين مطار روما منع الركاب من النزول ما عدا النازلين أساساً في روما وأمروا بالبقاء في أماكنهم داخل الطائرة كإجراء تحفظي نسبة لبعض أحداث الانفجارات التي حدثت في بعض مطارات العالم مؤخراً وكان آخرها إنفجار دامي حدث بأثينا باليونان. آثرت التمشي قليلاً في ممر الطائرة وعند وصولي بابها وقد كان مفتوحاً شعرت بموجة شديدة من البرد لم آلفها من قبل، فقد كانت درجة الحرارة درجتين فوق الصفر كما أعلن قائد الطائرة. وعدت إلى مقعدي مرة أخرى وأنا أفكر في كيف سيكون البرد في شمال أمريكا حيث أتجه الآن، ولم يدر بخلدي آنذاك بأنني أتجه إلى بلاد تصل درجة حرارتها في الشتاء أحياناً إلى خمسين درجة فهرنهايت أو أكثر تحت الصفر. واصلت الطائرة رحلتها متجهة إلى فرانكفورت بالمانيا حيث وصلناها حوالي الساعة الخامسة صباحاً. اعجبت حقاً بمطار فرانكفورت لجماله حيث شاهدته من نافذة الطائرة فقط، فقد منعنا أيضاً من النزول من الطائرة كإجراء تحفظي إتخذته السلطات الالمانية. في مطاري روما وفرانكفورت نزل بعض الركاب وصعد آخرون كلهم تقريباً غربيون ببشرتهم البيضاء، وكانت الطائرة ممتلئة تماماً عندما تحركنا من مطار فرانكفورت متجهين إلى لندن. كان يجلس في المقعدين المجاورين لي شاب اوروبي وفتاة أوروبية كانا يتحدثان بهمس ولعل ذلك كان نوعاً من الأدب، ولا يفوتني أن أذكر بأن إحتكاكي بالغربيين خاصة الأمريكيين أوضح لي أنهم يتحدثون ويتصرفون بتهذيب شديد وبإحترام للآخرين، وقد عزيت ذلك لنسبة التعليم المرتفعة بينهم آنذاك. في مطار فرانكفورت ونسبة لكثرة الطائرات الهابطة والصاعدة كان على طائرتنا أن تنتظر دورها في الصعود بعد أربع طائرات أخرى. ولما أتى دورنا تحركت طائرتنا بصوتها المدوي صاعدة في إتجاه الشمال الغربي نحو لندن.

لم أنم حتى الصباح في الطائرة بل كنت دائماً احاول أن أرى من نافذة الطائرة رغم الظلام. وقد استرعى انتباهي منظر الأضواء المشرقة للمدن الاوروبية وهي تنعكس في السماء من خلال زجاج النافذة وتذكرت

ما درسته في علم الفيزياء في الثانوي حيث يظهر السراب في السماء إنعكاساً للأشياء الموجودة في الأرض نسبة للبرودة عكس ما يحدث في المناطق الحارة مثل السودان حيث تنعكس صور المباني والأشجار والأشياء الأخرى كسراب في الأرض. واصلت الطائرة رحلتها وقبل حوالي نصف ساعة من موعد وصولنا لندن أعلن قائد الطائرة بأننا نقترب من لندن. ألقيت بنظري عبر النافذة ويا له من منظر جميل للسحب من تحتي وهي بيضاء وكثيفة. الوقت كان صباحاً والمنظر كان جميلاً للغاية. لم أشأ التحدث مع الشاب الاوروبي الذي كان يجلس بجواري رغم أنه أجرى بعض المحاولات لذلك وآثرت الصمت والتفكير بيني وبين نفسي. كان هو يقرأ في مقال في أحد المجلات يبدو أنه عن الجوع والجفاف الذي إجتاح غرب افريقيا في تلك السنة إذ أن الصور الموجودة في المقال كانت توضح هياكل عظمية حية لبشر يعانون من الجوع وصورهم تلك توضح أنهم من افريقيا. في الحقيقة آلمتني الصور حقاً وبدأت افكر في حال الكثير من البلاد الافريقية وهي تعاني من التخلف والجوع والألم، وكنت في السودان اسأل نفسي لماذا؟ وبلادنا غنية بالثروات. كنت دائماً اعزي فقرنا ومرضنا وبلاءنا للاستعمار. فما خلفته دول الإستعمار الغربي وخاصة (دولة الانجليز المستعمرة) وما غرسته من سموم في هذا العالم بأنحائه المتفرقة لهو مصدر وبال الأجيال. ولإنعدام أي رغبة حقيقية لي في قضاء أي وقت - لا تحكمه ضرورة سفري - بلندن فقد آثرت السفر رأساً إلى أمريكا، فهناك ود مقطوع بيني وبين إنجلترا والانجليز. هم دائماً في نظري يمثلون صورة المستعمر الكريه المرتبط باللصوصية العالمية ونهب ثروات دول العالم الثالث. بعض زملائي الذين درسوا في إنجلترا كانوا يتحدثون معي في السودان عن برود الانجليز، وعدم سهولة تكوين صداقات مع أفرادهم. ولعل ذلك من طبيعة نفسياتهم كمستعمرين ومن نظرتهم المتعالية للشعوب فقد كانوا أسيادها لزمان طويل. فإمبراطوريتهم كانت هي «الامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس» وكانت في الوقت ذاته بؤرة

بلاء العالم والتي غرست سمومها في أنحائه المتفرقة. وعن بريطانيا فقد ورد في عدة صحف تعليق مفاده «أن لبريطانيا سجلاً أسود في تاريخ الشعوب. ففي قارة آسيا عانت شعوباً كثيرة الكبت والحرمان وفقدان الذات نظراً للإستعمار البريطاني منها على سبيل المثال اليمن الجنوبي والملايو وهونج كونج وجنوب المحيط استراليا ونيوزيلندا وجزر فيجى وجلبرت وبابوا ونورفولك. ومن الدول التي كانت تتبع الكومنولث في قارة أمريكا أجزاء كبيرة من كندا وهندوراس وما يسمى بغينيا البريطانية، بالاضافة إلى جزر جامايكا وترينيداد وبيرمودا وفولكلاند ونيوفا وندلاند وغيرها. وفي أوروبا مالطا ومنطقة جبل طارق. وفي افريقيا بالاضافة لجنوبها المحتل حتى الآن هناك كينيا وغمبيا وروديسيا ونياسلند وسيراليون واوغندا وتنجانيقا وأجزاء من الصومال وبتشوانالاند وزنجبار ومعظم الجزر المحاذية للقارة السمراء». ولقد صدقت تلك الصحف في ذلك. فحتى يومنا هذا لا تزال سموم الاستعمار البريطاني تسري في أنحاء العالم المتفرقة. ونظرة سريعة لخريطة مشاكل العالم توضح أن الغالب الأعم من هذه المشاكل كانت أو لا زالت في بلاد إبتلاها الله بالاستعمار الانجليزي: مشكلة جنوب السودان - مشكلة بيافرا بنيجريا - مشكلة الأكراد في العراق - مشكلة روديسيا - مشكلة جنوب افريقيا - مشكلة فلسطين - مشكلة باكستان والهند - مشكلة قبرص - مشكلة آيرلندا - مشكلة جزائر بيرمودا - مشكلة إريتريا (وقد سبقوا الايطاليين في إستعمارها)، وما خفي أعظم. لم تطأ أقدام الانجليز بلداً على وجه هذه الأرض إلا وغرزوا فيه خنجراً قبل أن يغادروه.

أعلن قائد الطائرة بأننا نهبط في مطار لندن وعلينا أن نشد الأحزمة على بطوننا ونكف عن التدخين. ولم أجد صعوبة في شد الحزام على بطني وألقيت بنظرة عبر النافذة، وكان الجو ملبداً بغيوم كثيفة. ولم تمض دقائق حتى بدت لنا لندن على البعد وبدأت الغيوم تقل وبدأت اتأمل في هذه المدينة من نافذة الطائرة. المباني جميلة ومخططة بنظام وميادينها خضراء ويبدو

من على الطائرة أنها نظيفة جداً. هبطنا في مطار «هيثرو» بلندن وكنت آخر مَنْ غادر الطائرة مع زوجة زميلي وأطفالها الثلاثة. في مطار لندن لم أجد صعوبة كبيرة في شق طريقي عبر مكتب الجوازات الأول إذ أن هناك لافتات واضحة تبين إلى أين تذهب وأي طريق تسلك. وعند مروري بمكتب الجوازات الثاني طلب مني موظف الجوازات بأن (آخذ زوجتي وأطفالي) كما قال - وهو يقصد زوجة الزميل وأطفالها إذ أنني حتى تلك اللحظة لم أسعد بنعمة الزواج - وأشار لي بالتوجه إلى لافتة كبيرة توضح نمرة السفرية التي أتيت بها والباب الذي سأسلكه لاجد حقائبي. في هذه اللحظة إقترب مني شخص يبدو أنه سوداني وحياني وعرّفني بنفسه على أنه مندوب الخطوط الجوية السودانية وذكر لي بأنه مشغول حالياً وسيعود لمساعدتي وليعرفني ماذا أفعل. لم أشأ الانتظار لأنني كنت في صراع مع الزمن لأستقل طائرة الخطوط الجوية البريطانية (BOAC) إلى أمريكا وكان موعد قيام الطائرة العاشرة صباحاً. اتجهت إلى اللافتة الكبيرة التي توضح السفريات التي جاءت لانجلترا وعرفت أن حقائبنا ستكون في الردهة الأرضية التي يقود إليها الباب رقم خمسة. أخذت زوجة زميلي وأطفالها إلى الباب رقم خمسة وهبطنا السلم حيث وجدت سيراً كبيراً يدور حول نفسه متحركاً وهو يحمل حقائب ركاب طائرة الخطوط الجوية السودانية التي أتينا بها. تعرفت على حقائبي وحقائب زوجة زميلي وأنزلتها بجانبي وبدأت أفكر ماذا أفعل؟ ليس هناك شخص يحمل حقائبك في مطار لندن كما يحدث في السودان. كل شخص عليه أن يخدم نفسه بنفسه. لكن كيف أحمل كل هذه الحقائب لوحدي؟ ألقيت نظرة سريعة عبر صالة الحقائب فرأيت الناس يأخذون حاملات حديدية صغيرة بعجلات يجرونها بأيديهم وهي تحمل حقائبهم ليذهبوا بها خارج المطار، ووجدت صفاً من الناس يقفون في إنتظار دورهم لاستلام الحاملات الصغيرة ولم أتردد في أن أذهب وأقف في الصف لاستلام واحدة. شحنت الحقائب في الحاملة الصغيرة واتجهت نحو الخارج وأنا لا أدري إلى أين. وفي القاعة الخارجية ألتقيت بموظف آخر من

الخطوط الجوية السودانية والغريب أنه غير سوداني ويشبه لحد كبير الأمريكيين السود(*) ولا يتحدث العربية. وابتسم لي ذلك الشخص وعرّفني بنفسه على أساس أنه موظف من الخطوط الجوية السودانية وطلب مني الانتظار قليلاً لأنه مشغول وسيعود لمساعدتي. لم أهتم به كثيراً وواصلت سيري في وسط الازدحام في القاعة الخارجية ولمحت على البعد أحد زملاء الدراسة ويبدو أنه كان في طريق عودته من أمريكا إلى السودان. إتجهت إليه وحييته وسألته أن يدلني على الطريق الذي يؤدي إلى مكاتب شركة الخطوط الجوية البريطانية. أخطرني بأنه مشغول للغاية فزوجته وطفلته في مكان وحقائبه في مكان ولم أشأ مضايقته فودعته وبدأت أسأل في الطريق. ولحسن الحظ إلتقيت بموظف الخطوط الجوية السودانية الأول وساعدني مشكوراً للوصول إلى مكاتب شركة الخطوط الجوية البريطانية حيث اجريت اللازم واتجهت نحو الطائرة المستعدة للاقلاع لمدينة نيويورك.

كان مطار لندن مزدحماً للغاية وقد عرفت أن السبب هو موعد إجازة الكريسماس لكن يبدو أن العمل فيه متقن ومنظم للغاية. تأخرت الطائرة التي ركبنا فيها حوالي الساعة نسبة لبعض إجراءات الأمن التي اتخذت في المطار بعد الانفجارات التي حدثت فيه بواسطة جيش التحرير السري الايرلندي. وأذكر أنهم فتشوني وزوجة زميلي وأطفالها والركاب الآخرين تفتيشاً دقيقاً قبل أن يسمحوا لنا بالصعود للطائرة. كانت الطائرة جد ضخمة. الصف الواحد في الطائرة بالعرض كان يسع ثمانية مقاعد - أربعة في الوسط واثنان على الجنبات وبينهما الممرات. ولحسن الحظ حجزت لنا موظفة الخطوط الجوية البريطانية أربعة مقاعد في الوسط. كنت أود مشاهدة نيويورك وتمثال الحرية المشهور من الجو لكن لم أتمكن من ذلك. الخدمات في الطائرة كانت جيدة، وأقلعت الطائرة متجهة نحو نيويورك حوالي الساعة الحادية عشرة ظهراً. معظم الركاب كانوا من

(*) سأستخدم خلال هذه المذكرات كلمة الأمريكيين السود (Black Americans) للإشارة للزنوج الأمريكيين والذين لا يستسيغون مطلقاً كلمة زنوج (Negros) في أمريكا.

الغربيين ذوي البشرة البيضاء وقليلون يبدو أنهم من الامريكيين السود. إستغرقت رحلتنا حوالي سبع ساعات قضينا معظمها في مطالعة الصحف ومشاهدة اللقطات السينمائية والاستماع للقطع الموسيقية الغربية. وصلنا مطار جون كيندي بنيويورك حوالي الرابعة مساءً ووجدنا الساعة هناك حوالي الثانية ظهراً لأن اتجاهنا كان نحو الغرب. في مطار كيندي بنيويورك مررت بإحدى موظفات الجمارك ويبدو من حديثها أنها متعجرفة حقاً. بدأت تلك الموظفة في إجراءات تفتيش جوازات السفر والأوراق الأخرى التي أحملها وسألتني عن عنواني في أمريكا. فأخطرتها بأن عنواني بواسطة سفارة جمهورية السودان الديمقراطية بواشنطون، فسألتني: «هل أنت ديبلوماسي؟» أجبتها بالنفي وأخبرتها بأنني متجه إلى ماديسون للدراسة بجامعة ويسكونسن. وبصوت غاضب أعلنت بأنها لن تقبل مني هذا العنوان ويجب أن اعطيها عنواني الذي سأذهب إليه بماديسون. أخبرتها بأنني لا أملك عنواناً حالياً بماديسون وأنا ذاهب هناك لمعرفته. وبحركة أبسط ما يقال عنها أنها وقحة ألقت بالجوازات وبقية الأوراق نحوي وطلبت من موظفة اخرى أن تساعدني في ملء الفورمات بالعنوان الصحيح وليس لديها وقت للنقاش معي. في هذه اللحظة تذكرت عنوان مكتب القبول بجامعة ويسكونسن - ماديسون وملأت الفورمات بهذا العنوان وخضت في حديث صغير مع الموظفة الأخرى: «لماذا تعقدون الأمور للناس بمثل هذا الشكل؟» فردت: «هذه هي أمريكا!» قالتها بفخر واعتزاز شديدين ولم أشأ أن أعلق أكثر من ذلك. التأخير الشديد الذي سببته لي موظفة الجوازات بنيويورك كان يمكن أن يؤدي إلى تأخيري عن موعد اقلاع الطائرة المحلية إلى بلدة ماديسون لولا عناية الله سبحانه وتعالى. فقد كان على أن آخذ زوجة الزميل وأطفالها إلى مطار محلي آخر يسمى مطار لاقوارديا يبعد مسافة عشرة كيلومتر من مطار جون كيندى لنستقل السفرية المحلية إلى بلدة ماديسون بولاية ويسكونسن في أقصى النصف الشمالي للولايات المتحدة الأمريكية. في مطار جون كيندي حولت نقودي وقد

كانت شيكات سفرية بالاسترليني إلى دولارات أمريكية واستقليت وزوجة الزميل وأطفالها سيارة أجرة متجهين إلى مطار لاقوارديا، وقد كانت الساعة حوالي الرابعة والربع ظهراً بعد أن فاتنا البص المخصص لنقل الركاب من مطار جون كيندي إلى مطار لاقوارديا. حتى ذلك الوقت لم تكن عندي أي فكرة عن موعد قيام الطائرة المحلية (نورث سنترال North Central) المتجهة إلى ماديسون. بدأت السيارة سيرها نحو مطار لاقوارديا وقد كنت مندهشاً حقاً للسرعة الجنونية التي كانت تسير بها السيارات. فقد كان السائق يسير بسرعة خيالية كما أن السيارات من حولنا كانت تسير بسرعة لا تصدق. منظر مباني نيويورك العالية وجمال شوارعها الخارجية ونظافتها وتخطيطها أدهشني حقاً. سألني السائق وقد كان شاباً أبيض: «هل هذه أول مرة تزورون فيها أمريكا؟ وما هو بلدكم؟» أجبته بأننا من السودان في أفريقيا وهي المرة الاولى التي نزور فيها أمريكا. وسألته بدوري: «هل سمعت بالسودان من قبل؟» أجابني بالنفي وأخبرني بأنه سمع عن أفريقيا لكنه لا يعرف السودان. سألته: «هل تهتمون بما يجري في أفريقيا وفي المناطق الأخرى خارج أمريكا كما نهتم نحن في أفريقيا بما يجري في أمريكا؟» أجابني بأنهم يعتبرون بأن أمريكا هي أكثر دولة متقدمة في العالم ولذلك يهتمون بما يجري في أمريكا فقط ولا يهتمون بما يجري في البلدان الأخرى. من خلال حديثه تحسست الفخر والإعتزاز الشديدين بأمريكا وطنه وهو شعور لمسته في كل محادثاتي مع الأمريكيين فيما بعد المثقفين منهم وغير المثقفين مثل ذلك السائق. فهم فخورون بوطنهم للغاية ويتحدثون دائماً من منطلق أن دولتهم هي أقوى وأعظم دولة في العالم، ويتغنون بذلك في أجهزة إعلامهم المختلفة. وفي مطار لاقوارديا بدأت أبحث عن مكاتب شركة (النورث سنترال) واستغرقت زمناً طويلاً أبحث عنها. وخلال بحثي ومعي زوجة الزميل وأطفالها تقدم مني شاب أنيق يبدو من شكله أنه مولد نصفه آسيوي والنصف الثاني أمريكي وسألني: «هل تبحثون عن مكاتب شركة (النورث سنترال)؟» فأجبته بالايجاب. فقال لي إتبعني بسرعة لأن قيام الطائرة إلى

ماديسون بقي له ثلاثة دقائق وهو الخامسة مساءً. وفي تقديري أن الله سبحانه وتعالى بعث لي بهذا الشخص ليساعدني خاصة وقد بلغ مني الارهاق أشده وأنا لم أنم منذ أن غادرت الخرطوم. ولا أدري حتى الآن كيف عرف هذا الشخص أنني كنت أبحث عن مكاتب شركة (النورث سنترال) خاصة وقد كانت مكاتب هذه الشركة بعيدة من المكان الذي لقيني فيه. وعند وصولي موقع الطائرة كانت أبواب الطائرة قد أغلقت وبدأ السلم الاتوماتيكي يتحرك بعيداً عنها إستعداداً للاقلاع. وهنا اعيد لنا السلم الاتوماتيكي مرة أخرى وفتحت لنا أبواب الطائرة للدخول فيها وتحركت الطائرة مقلعة في إتجاه الشمال الغربي نحو ماديسون. كانت بجانبي فتاة أمريكية سوداء سألتني من أين أنا وما هي وجهتي؟ فأخبرتها بأنني من السودان ووجهتي ماديسون للدراسة. وسألتها من أين هي؟ فقالت لي أنها من مدينة بوسطن في ولاية ماساشوسيتس وهي في طريقها إلى مدينة ميلواكى الواقعة جنوب شرقي ماديسون وعلى بعد أميال قليلة منها. سألتها هل توجد في أمريكا تفرقة عنصرية وهل صحيح أن السود في أمريكا مضطهدون عنصرياً كما نسمع عن ذلك في بلادنا؟ خاصة وأنني لاحظت في مطار لاقوارديا بالذات أن بعض البيض كانوا ينظرون نحوي نظرة عدم إرتياح ولا يوجد تفسير لذلك غير لوني. ذكرت لي أن التفرقة العنصرية في أمريكا موجودة في بعض المناطق وهناك مَنْ يمارسونها كما أن هناك مَنْ لا يمارسونها من البيض. وأضافت أن مدينة بوسطن من المناطق التي توجد بها التفرقة العنصرية وهي قد تلقت خلال تعليمها في المدارس في بوسطن دراسات توضح أن العنصر الأبيض متفوق على العنصر الأسود. وكان استاذهم كما قالت يقول لهم أن السود عامة متخلفون عقلياً عن البيض ولا يمكن أن يكونوا في مستوى عقول البيض بالطبيعة. وخلال وجودي في أمريكا سمعت وقرأت الكثير عن العنصريات التي تمارس في بوسطن ومآسيها تجاه الأمريكيين السود. وصلت الطائرة ميلواكى وغادر معظم ركابها وبقي القليلون من بينهم أنا وزوجة زميلي وأطفالها.

وودعتني الفتاة الأمريكية السوداء في ميلواكى والتي حاولت أن أعرف من أي بلد أفريقي جاء أجدادها فلم تعرف جواباً لذلك فهي لا تعرف سوى أنها أمريكية؛ فالسود في أمريكا لا يعرفون أصلهم ولا تاريخهم ولا مصدرهم سوى أنهم كانوا عبيداً للسادة البيض لفترة ثلاثمائة سنة أخذوا بعدها حريتهم والتي نالوها منذ حوالي القرن. والأمريكيون السود هم الفئة الوحيدة في الولايات المتحدة التي لا تعرف أصلها ومناطق جدودها عكس جميع العناصر الأمريكية الأخرى والتي تعرف إلى أي قطر في العالم تنتمي. بقيت الطائرة في ميلواكى فترة بسيطة قبل أن تغادر المطار متجهة إلى ماديسون. كان مطار ميلواكى مليئاً بالجليد الذي يكسو أرضه من كل الجوانب وقد كانت تلك أول مرة في حياتي أشاهد فيها الجليد. ولعل مشاهدتي للجليد بعثت فيّ الشعور ببعدي عن بلادي حقاً. وصلت الطائرة مطار ماديسون وكان هو الآخر مكسواً بالجليد والتفت إلى المقعد الخلفي حيث تجلس زوجة الزميل وأطفالها فوجدتهم مستغرقين في نوم عميق. فقد بلغ بهم الارهاق منتهاه، فهي ثاني ليلة لنا من السفر المتواصل. أيقظتهم للهبوط من الطائرة وحملت أحد الأطفال وهي بنت صغيرة وكانت نائمة في كتفي وبدأت أنزل من سلم الطائرة. وعند وصولي إلى أرض المطار بدأت السير متجهاً نحو مكاتب المطار وحانت مني التفاتة لأرى زوجة الزميل والطفلين. ودون أن أشعر إنزلقت رجلي في الجليد ووقعت ونهضت مع صراخ الطفلة الصغيرة. وبدأت ألعن الجليد واليوم الذي بدأ يسقط فيه وحمدت الله كثيراً على أن الطفلة نهضت سليمة. دخلت مكاتب المطار واتجهت إلى الصالة الرئيسية عبر الممر المخصص لذلك. وكانت فرحتي عظيمة عندما شاهدت على البعد مجموعة من السودانيين في إنتظارنا تعرفت على بعضهم من البعد. وقد إستقبلونا بالأحضان وبالحنان السوداني المعهود، وكانت فرحة زميلي عظيمة بوصول زوجته وأطفاله وتلك كانت آخر مرحلة في مهمة إيصال الزوجة وأطفالها. ولعلها كانت تجربة ثرة تلك التي صحبت فيها هؤلاء الأطفال ووالدتهم عبر هذه المسافات الشاسعة.

أسفل المدينة

بعد الاستقبال الرائع في مطار ماديسون أخذنا الأخوة المبعوثون السودانيون إلى أطراف المدينة بعرباتهم ووصلت منزل أحد أصدقائي الأعزاء منذ أيام الدراسة بجامعة الخرطوم وقضيت في منزله حوالي ثلاثة أيام بحثت خلالها عن سكن لي في داخل المدينة أو (داون تاون Down Town) كما يسمونها، والترجمة الحرفية لها هي أسفل المدينة. فأكثر الطلبة المتزوجين الذين يحضرون لدراسات عليا في جامعة ويسكونسن-ماديسون يسكنون في منطقة بعيدة لحد ما عن مباني الجامعة وتسمى (مرتفعات الصقر Eagle Heights). وقد تحصلت على غرفة في مبنى يتكون من ثمانية طوابق يسمى (مبنى الساكسوني Saxony Building)، وسكنت في الطابق السادس في الغرفة رقم (٦١٢-أ) في شقة تتكون من ثلاث غرف وحمام مشترك ومطبخ مشترك. كان يشاركني السكن في الشقة إثنان من الزملاء الهنود الآسيويين، غادر أحدهما المدينة بعد أسبوعين من سكني وسكن مكانه أحد الزملاء من نيجيريا. وقعت عقد السكن في هذه الغرفة حتى شهر أغسطس من عام ١٩٧٥، أي لفترة ثمانية أشهر بمبلغ ثمانين دولاراً للشهر أي ما يعادل بالعملة السودانية حوالي ثمانية وعشرين جنيهاً سودانياً. وكنت بالاضافة لذلك، أشارك الزميلين الآخرين في دفع قيمة الكهرباء وفاتورة التلفون. حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف كيف أطبخ، وهي عملية هامة للغاية لكل عازب في أمريكا. فالأكل في المطاعم غالٍ للحد الكبير والساندوتش الصغير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع قد يصل ثمنه إلى تسعين (سنتاً) أي ما يعادل بالتقريب ثلاثين قرشاً سودانياً. كنت في أيامي الأولى، أتناول وجباتي

الرئيسية مع اثنين من أصدقائي السودانيين العازبين أيضاً في شقتهما في الطابق الثامن من نفس المبنى، وكنت أحاول أن أتعلم الطبخ خلال وجودي معهما. وفي الأسبوع الثاني من يناير عام ١٩٧٥ بدأ التسجيل في جامعة ويسكونسن-ماديسون لفترة الربيع الدراسية للعام ١٩٧٥/٧٤. وقد صحبني أحد الإخوة هو الدكتور التجاني أبو جديري وأجرى لي كل ما يلزم من خطوات التسجيل وقبلها كان قد صحبني إلى رئيس شعبة التعليم المهني والمتواصل بكلية علوم الزراعة والحياة بالجامعة حيث حياني وأخطرني بأن البروفسير المسؤول عني (Advisor) هو الدكتور هارولد ماتيسون. وقد صحبني الأخ التجاني لمقابلة الدكتور ماتيسون في مكتبه. وأذكر أنني حينما أتيت لمكتبه خرج ليحييني خارج مكتبه وعرفني بنفسه. ونسبة للصعوبة الشديدة في التحدث مع الأمريكيين في البداية فقد ساعدني الأخ التجاني كثيراً خلال هذه المقابلة. ولا يفوتني أن أذكر بأنني دهشت حقاً حينما رأيت مكتب الدكتور ماتيسون وهو مكتب بسيط للغاية، ويمكن مقارنته بمكتب أي فني معمل في جامعة الخرطوم، إذ أن الغرفة لا تعدو أن تكون مترين في ثلاثة أمتار، معظم حيطانها مليئة برفوف مرصوص عليها كتب. وفي الحقيقة قارنت بين مكاتب كبار الأساتذة في جامعة الخرطوم وأساتذة جامعة ويسكونسن-ماديسون ولم أجد وجهاً للمقارنة نسبة للبساطة الشديدة في مكاتب أساتذة جامعة ويسكونسن-ماديسون. تحدث معي الدكتور ماتيسون عن خلفيتي الأكاديمية والعلوم التي درستها في جامعة الخرطوم وماذا سأفعل حينما أنتهي من دراسة الماجستير هنا. وقد أجبته على كل أسئلته وشرحت له الغرض من وجودي في جامعة ويسكونسن. وبعد انتهائي من الحديث ذكر لي بأنني أتحدث الانجليزية بطلاقة وهو مطمئن لذلك، وطلب من الأخ التجاني أبو جديري أن يساعدني في اختيار الكورسات للفترة الدراسية الأولى لي في أمريكا. وقد صحبني الدكتور ماتيسون عبر القاعة إلى مكتب إثنين من طلابه يحضران للدكتوراه في مجال التعليم الزراعي وطلب منهما أن يشاركا الأخ التجاني أبو جديري في

اختيار الكورسات التي تناسبني. وفعلاً تم اختياري لأربعة كورسات بمجموعة من الدرجات تعادل أعلى نسبة يمكن أن يأخذها طالب الدراسات العليا.

بعد أن جهزت نفسي استعداداً لبداية الدراسة اتصلت بمكتب الطلاب الأجانب بالجامعة حيث رحب بي الشخص المسؤول بالمكتب وزودني بمعلومات كافية عن الحياة في أمريكا وأعطاني مجموعة من النشرات والكتيبات عن الجامعة والحياة في ماديسون. وفي سياق حديثه، ذكر لي ذلك المسؤول بأنني يمكن أن أستأجر بدلة ثقيلة بمبلغ دولارين (حوالي الستين قرشاً سودانياً) لفترة الشتاء إذا كنت أحتاج لذلك، وهناك منظمة تعمل خصيصاً في تأجير الملابس والأواني والأثاثات لمن يريد بمبالغ محددة. ولا أنكر أنني شعرت بغثيان حينما سمعته يشير عليّ باستئجار بدلة لفترة الشتاء فنحن في السودان لم نعتد على استئجار ملابس في الصيف لنغيرها بأخرى نؤجرها للشتاء. وقد أشار لي هذا المسؤول أيضاً بأن مكتبه على استعداد لمعاونتي في أي شيء وأنهم يرحبون بأي استفسار وعلى استعداد لمساعدتي متى لزم ذلك. وشكرته على حسن استقباله لي. وقبل أن تبدأ الدراسة كنت أنتهز فرصة الفراغ لأتجول في شوارع مدينة ماديسون وأتنقل داخل المتاجر لأشتري ما يلزم من الملابس الثقيلة لمواجهة البرد وأهمها حذاء قوي ثقيل للوقاية من الانزلاق في الجليد تفادياً لتجربة المطار المرة. كنت خلال تجوالي في شوارع ماديسون ألاحظ أن معظم الطلاب لا يهتمون بمسألة الأناقة في اللبس ويلبسون أي شيء يقيهم من البرد. وقد كانت فكرتي قبل أن أغادر السودان أن الطلاب في الجامعة يلتزمون بلبس الجاكتات والكرفتات ومثل هذه الأشياء. لكن هذا غير موجود خاصة في محيط الجامعة. فالطلاب لا يهتمون باللبس على الاطلاق بل إن معظمهم يلبسون بنطلونات متسخة وممزقة ويعيشون حياتهم بصورة غير رسمية عكس ما سمعته -وأنا في السودان- عن إنجلترا وكيف أن الطلاب والناس بصفة عامة يلتزمون هناك بلبس البدل الكاملة. كنت أستغرب

أيضاً أن أرى الطلاب يأكلون بأيديهم ولا يستعملون الشوك والسكاكين في بعض الأحيان كما كنت أعتقد في السودان. ويبدو أن الجيل الطلابي الأمريكي قد نجح لحد ما في إشعال ثورة ضد الزيف الاجتماعي وتخلص من أوهام وخرافات الفضائل الانجليزية الموروثة. وفي واقع الأمر، فإن أول انطباع لي عند وصولي أمريكا هو أن الاهتمام بالعمل واضح للغاية والجدية في العمل لها المرتبة الأولى. ولعل طبيعة هذا المجتمع تفرض على أفراده ذلك فلا مكان لمن لا يعمل هنا، فالعطالة تعني الموت البطيء في ذلك المجتمع، ولا مجال للتقصير أو الخطأ المتعمد أو الاهمال لأن العقاب حتمي وصارم حتى لو كان الشخص رئيساً لدولتهم كما حدث للرئيس ريتشارد نيكسون الذي أجبر على الاستقالة بعد فضيحة ووترقيت الشهيرة. هناك جوانب كثيرة في الحياة الأمريكية منها المشرق ومنها غير المشرق خاصة في الجانب الاجتماعي وسأتطرق لها فيما سيلي من أبواب.

ليبرالية التعليم

بدأت الدراسة في الجامعة وبدأت المواظبة على حضور المحاضرات في القاعات المختلفة. وفي الحقيقة فقد وجدت صعوبة بالغة في البداية في تتبع ما يقال داخل المحاضرات نسبة للكنة الغريبة التي يتحدث بها الأمريكيون الانجليزية. فطريقتهم في الحديث تختلف تماماً عن الطريقة التي تعودناها من الانجليز في مدارسنا وجامعاتنا في السودان. فهم ينطقون الانجليزية بطريقتهم المميزة ويصعب على الشخص في البداية أن يفهم ماذا يقولون. وفي الحقيقة بعيداً عن دراستي العلمية في مجال التعليم الزراعي فقد لفت نظري طريقة التعليم في كليات العلوم الاجتماعية في جامعة ويسكونسن-ماديسون وهي كما علمت ليست سوى امتداد لطريقة التعليم في مدارسهم الثانوية العليا. الطلاب داخل المحاضرات يدخلون في نقاشات مستمرة مع المحاضر. بعض الأحيان قد يستغرق ذلك النقاش أكثر من نصف زمن المحاضرة. بعض الأساتذة يقسمون الطلاب داخل القاعة إلى مجموعات لنقاش مواضيع محددة وبعد ذلك تطرح للنقاش لكل الفصل. طريقة التعليم في كليات العلوم الاجتماعية تجبر أي شخص للادلاء ببعض وجهات النظر سواء أكان الطالب راغباً في ذلك أم غير راغب. أذكر أنني وبعد مرور ثلاثة أسابيع على بداية الدراسة وكنت جالساً في قاعة المحاضرات وسط الطلاب سمعت إحدى الطالبات تسأل المحاضر عن كيف تتخذ القرارات في الأجهزة الحكومية في البلدان غير الولايات المتحدة الأمريكية. فما كان من المحاضر إلا أن أشار لي قائلاً: «معنا هنا أحد الطلاب الأجانب ويمكن أن يتحدث لنا عن هذا الموضوع». وبعد أن

شرحت كيف تتخذ القرارات الحكومية في السودان خاصة في وزارة الزراعة وتدرج السلطة الهرمي فيها سألني المحاضر هل يمكن أن أقارن بين ما يحدث في السودان وفي أمريكا في هذا المجال. ونسبة لأنني لم أكن أعرف الشيء الكثير عن أمريكا حينذاك فقد اعتذرت قائلاً بأنني حضرت منذ ثلاثة أسابيع فقط ولا أعرف أي شيء عن أمريكا حتى الآن. لفت نظري أيضاً داخل قاعات المحاضرات أن الطلاب في بعضها يدخنون خلال المحاضرات ويحملون إلى داخل القاعات الساندوتشات وعلب الكوكا كولا والمشروبات المعدنية الأخرى. وهم يأكلون ويشربون خلال إلقاء المحاضرات ولا غرابة لديهم في ذلك. بل إن أحد المحاضرين كان دائمًا يدخل إلى قاعة المحاضرات وهو يحمل كوباً من الليموناده يومياً يشرب منه خلال إلقاء المحاضرة حتى تنتهي. ويمكن للطالب داخل قاعة المحاضرة أن يجلس كيفما يشاء كأن يخلف رجليه في الكرسي الذي أمامه إن كان خالياً ليواجه بكعب حذائه المحاضر حتى نهاية المحاضرة دون أن يثير ذلك في المحاضر شيئاً. فهم يؤمنون بعدم الالتزام بالرسميات في مجال التعليم. في الحقيقة فكرت كثيراً في هذا الأسلوب من التعليم خاصة وأنني مارست أسلوباً مختلفاً من التعليم في السودان بكل رسمياته حيث لا مجال للتدخين داخل قاعات المحاضرات أو الأكل والشرب خلال المحاضرات. ولا تعليق لي في هذا الجانب الأخير طالما أن هذه الطريقة مقبولة لديهم وربما تكون وراءها فلسفة غائبة عن ذهني خاصة وهناك ممارسات عملية لتعميق الأسلوب الديمقراطي في مجال التعليم كجانب من طبيعة مجتمعهم الديمقراطي. أما الجانب الأول من أسلوب التعليم في كليات العلوم الاجتماعية وهو إعطاء الفرص للطلاب للنقاش وتقديم المواضيع والحوار في مجموعات وعلى مستوى القاعة كلها، فقد أعجبني جداً ودارت في ذهني عدة أفكار عن أهمية تطبيق نظام ديمقراطية التعليم في السودان وهي فلسفة تستند على إعطاء أكبر كمية من الفرص للطلاب للاشتراك في النقاش والادلاء بآرائهم وإعطاء الفرص لهم للوقوف أمام زملائهم الطلاب وإلقاء

المواضيع والدفاع عن آرائهم. هذا الأسلوب في تقديري يمكن أن يخلق الكثير من الزعماء الذين يحتاج لهم السودان للقيادة في مختلف مرافق الدولة، بالاضافة إلى أنه يجعل الشخص واثقاً من نفسه ويمكن أن يشارك إيجابياً بآرائه بعد أن يغادر المدرسة أو الجامعة. في جامعة ويسكونسن-ماديسون يمكن للانسان أن يقف ويقول أي رأي، ومهما كان حديثه مبعثاً للسخرية لا يمكن أن تجد من يسخر منه أو يضحك عليه أو من يحُط ويقلل من أهمية كلامه أو من يقول له بامتعاض «أجلس يا أخ»، فالكل يستمع بصبر لكل ما يقال. في داخل المحاضرات لم أشاهد قط أحداً يستهزىء من حديث أحد رغم أن بعض ما يقال يبعث السخرية والضحك. أذكر أن أحد الطلاب ذكر كلاماً في إحدى المحاضرات يمكن أن يكون مبعثاً للسخرية وكدت أن أنفجر ضاحكاً. فإذا بالفصل صامت تماماً يستمع بانتباه حتى انتهى المتحدث من كلامه ووقف آخر وأدلى برأي مختلف عن رأي الأول؛ فقد أجبرت على الصمت والاستماع. ديمقراطية التعليم التي أرى أهمية تطبيقها في السودان تتطلب ألا يسخر أي أحد من حديث أي أحد مهما قال-فالسخرية والاستهزاء والأمر بالجلوس تجعل البقية يحجمون عن الادلاء بآرائهم ويتقوقعون رهبة. ويمكن لأساتذتنا في المدارس والجامعات أن ينبهوا الطلاب إلى هذه العملية فهي هامة للغاية لتفادي حدوث ترسبات وتعقيدات نفسية قد تصاحب الانسان فترات طويلة.

في هذه الفترة الأولى من حياتي الدراسية في أمريكا وهي فترة الربيع الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٥/٧٤ ركزت كل جهدي في التحصيل الدراسي. وكنت لذلك أقضي معظم ساعات النهار في قاعات المحاضرات أو المكتبات وأعود حوالي الساعة الخامسة مساء لأبدأ في إعداد وجبتي الرئيسية مثل عامة الأمريكيين إذ يتناولون وجبة العشاء في السادسة مساء كوجبة رئيسية مثل وجبة الغداء الرئيسية في بلادنا. فيومهم العملي يبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحاً وينتهي في الساعة الرابعة والنصف ظهراً

حيث يتناولون في مكاتبهم وجبة غداء سريعة حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً. وبالنسبة لي، فقد تأقلمت سريعاً على هذا النظام دون متاعب كبيرة كما أنني نادراً ما كنت أخرج في المساء إلى المكتبة لبرودة الجو الشديدة خارج المبنى وكنت لذلك أفضل أن استذكر دروسي في غرفتي. هذا وقد ابتعدت تماماً خلال هذه الفترة عن تكوين أي صداقات مع الأمريكيين أو غيرهم بل كنت حينما أشعر بوحدة أتجه إلى شقة صديقيَّ السودانيين في الطابق الثامن من نفس المبنى الذي أسكن فيه لأستمع لبعض الأغاني السودانية أو نتجاذب أطراف الحديث وأعود لمواصلة استذكار دروسي في غرفتي. فتلك الفترة الدراسية الأولى كانت تستوجب التركيز والصبر والاهتمام خاصة وهي فترة انتقالية يعيشها كل مبعوث سوداني في جو من القلق وهو يحاول التأقلم على حياة تختلف في جوهرها عن حياته السابقة في أرضه وبين أهله وأصدقائه وزملائه. ويضاف إلى ذلك أهمية إعطاء الانطباع الحسن عن المقدرات الأكاديمية والعملية التي يتمتع بها المبعوث حتى يعكس صورة مشرفة لأساتذته ومعلميه. أما العمل في الفترات التي تعقب تلك الفترة الأولى فهو لا يقل بأي حال من الأحوال عنها، لكنه يضحي روتيناً لا يؤرق المبعوث ويؤلمه كما يحدث في تلك الفترة الدراسية الأولى.

آلام السود

في السودان وقبل مجيئي لأمريكا كنت كثيراً ما أسمع وأقرأ عن التفرقة العنصرية في أمريكا واضطهاد البيض للأمريكيين السود هناك. وفي الواقع لم يكن إختياري للدراسة بجامعة ويسكونسن في أمريكا سوى نتاج لنصائح الناصحين بالدراسة في إحدى جامعات الولايات الشمالية لأمريكا تفادياً للدخول في تجارب عنصرية في الولايات الجنوبية قد لا أملك رفاهية الانغماس في مقاومتها. ولما كانت طبيعتي كسوداني لا تتحمل الإستحقار من أي شخص مهما كان قدره فقد كنت دائماً حذراً في دخول المطاعم والمحلات التجارية في ماديسون بل وكنت حريصاً على ملاحظة معاملات الناس لي لأن لوني يعتبر نسبياً أسود مثل الأمريكيين السود. لاحظت أن بعض الأمريكيين البيض لا يستسيغون مطلقاً الجنس الأسود ويبدو أنهم يكرهون الأمريكيين السود كراهية مرة. بعض الأمريكيين البيض لا يخفون نظرة الاشمئزاز لرؤيتهم لشخص أسود. وقد لاحظت هذه النظرة وأعتبرها من أكثر الأشياء تعذيباً للسود في أمريكا. خلال قراءاتي للكتب التي تعالج مسائل التفرقة العنصرية في أمريكا عرفت أن الأمريكيين السود يسمون هذه النظرة «نظرة الكراهية Hate Stare» كما وردت في كتاب «أسود مثلي» للكاتب الأبيض جون هوارد قريفن (مرجع رقم٩). لكنني وللحقيقة سميتها نظرة الإشمئزاز لأنني فعلاً لاحظت الإشمئزاز واضحاً في وجوه بعض من إلتقيت بهم من البيض سواء أكان ذلك عبر الطريق أو في المحلات التجارية أو غيرها، ولا يوجد سبب لذلك غير لوني. ليس هناك في ماديسون شخص يجرؤ على ممارسة التفرقة العنصرية علناً لأنها ممنوعة

بالقانون لكنهم يمارسونها سيكولوجياً وبطرق غير مباشرة أكثر تعذيباً للأمريكيين السود. كنت دائمًا أدخل في نقاش مع زملائي السودانيين عن مسألة التفرقة العنصرية في أمريكا وكان رأيي دائمًا أن أي شخص أسود يأتي إلى أمريكا ولا يلاحظ نظرة الرجل الأبيض العنصرية للرجل الأسود في أمريكا شخص أما أن يكون غبياً أو لا إحساس له. خلال وجودي في أمريكا عايشت تطبيق قرار من الحكومة الفيدرالية الأمريكية بمزج مدارس البيض والسود وجعلها واحدة كنوع من المساواة في التعليم في بعض الولايات، وأطلقت على هذه العملية الترحيل المدرسي (School Busing). ولشد ما دهشت وأنا أرى المظاهرات العنيفة التي إجتاحت هذه الولايات ترفض مزج هذه المدارس وتطالب بإخراج السود من مدارس البيض (راجع مجلة التايم الأمريكية الصادرة بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٧٥). وليس هذا فحسب بل على الصعيد الرسمي فقد فقد أحد قادة التعليم الأمريكيين البيض بمدينة سان فرانسيسكو وهو الدكتور توم شاهين منصبه في أغسطس عام ١٩٧٢ نتيجة لوقوفه الصلد مع مزج مدارس البيض والسود وإنهاء هذه العنصرية والازدواجية في التعليم (راجع مجلة هارفارد التعليمية، مجلد ٣٤، رقم واحد، صفحة ١١ والصادرة في فبراير عام ١٩٧٣ - مرجع رقم ١٠). واستعجبت أي مجتمع ديمقراطي هذا الذي يطالب بمدارس متفرقة للبيض والسود في أمريكا! وسألت بعض الزملاء الأمريكيين: «هل تسمون مجتمعكم مجتمعاً ديمقراطياً وأنتم تتظاهرون وترفضون الترحيل المدرسي كما أصدرته الحكومة الفيدرالية؟» بعضهم أيدني معلناً أن عملية التفرقة العنصرية وجذورها الممتدة إلى أيام الإستعباد للسود في أمريكا من الأشياء المخجلة والمؤسفة في المجتمع الأمريكي وبعضهم وهم قلة بدأوا يسوقون التبريرات للإحتجاج على مسألة مزج مدارس البيض والسود والتي لم تقنعني مطلقاً. وكمثال لذلك فهم يشيرون إلى الإرهاق المتوقع أن يلازم التلاميذ الصغار نتيجة ترحيلهم إلى مدارس بعيدة ما عن ديارهم. تحادثت مع بعض زملائي من الأمريكيين السود في

الجامعة عن وضع الرجل الأسود في المجتمع الأمريكي، فشرحوا لي بإفاضة أنهم يعانون معاناة مرة في المجتمع الأمريكي من جراء لونهم وأخبروني بأنني كأسود لن أجد متاعب من جراء لوني داخل الجامعة لكنني سأجدها حتمًا متى ما خرجت شبراً واحداً خارج الحرم الجامعي سواء أكان ذلك في الولايات الشمالية أو الجنوبية. وللحقيقة ساقتني الظروف مرة مع أحد الأصدقاء السودانيين إلى متجر خارج الجامعة وفي أطراف المدينة. وهناك شعرت بأنني في حاجة إلى بعض السجائر فسألت أحد الأشخاص أين يمكنني أن أجد سجائر في هذه المنطقة. فأشار لي والصديق بالتوجه إلى حانة قريبة يمكن أن أجد فيها آلة لبيع السجائر. وبمجرد دخولنا الحانة فإذا بجميع الأشخاص وكلهم من البيض يرمقوننا بنظرة غريبة مليئة بالإستغراب وكأنها تستهجن دخول هذين الشخصين الأسودين إلى مكان البيض. ولم أحتمل نظراتهم القاسية وسرعان ما جرجرت زميلي خارجاً للعودة من حيث أتيت. في الحفلات التي يقيمها الطلاب في شققهم وعماراتهم وداخلياتهم يمكن للإنسان أن يلاحظ عدم إرتياح البيض بصورة عامة للسود. بل حتى في داخل قاعات المحاضرات بعض الطلبة البيض لا يخفون كراهيتهم للأمريكيين السود رغم أن الأمريكيين البيض معروفون بصفة عامة بتهذيبهم المتناهي. فكرت بيني وبين نفسي في وضع الرجل الأسود في أمريكا واقتنعت تماماً بأن أمريكا ليست بلداً لشخص أسود على الإطلاق ويمكن أن تكون بلداً مفتوحة لأي شخص آخر من أي منطقة في العالم لكن ليس للسود، فهم لحد كبير فئة غير مرغوب فيها هنا على الإطلاق. تساءلت بيني وبين نفسي لماذا لا يطالب الأمريكيون السود بعد أن نالوا حريتهم بالعودة إلى أفريقيا والعيش وسط مجتمعات من جنسهم ولونهم؟ ولعل كل ما كان يدور في ذهني من أسئلة عن وضع الرجل الأسود في أمريكا وجدت الإجابة عنها فيما بعد عند قراءاتي عن حركة السود في أمريكا وهي توضح إستحالة تنفيذ مثل هذا المطلب خاصة والبلاد الأفريقية نفسها تعاني من المشاكل ما يكفي بأن تجعلها تعيش في تعاسة

وشقاء ناهيك عن خلق مشكلة جديدة لها بجلب الأمريكيين السود إليها. وقد علمت فيما بعد بأن محاضراً أمريكياً أسود ذكر مرة بأن الأمريكيين السود قد شاركوا بعرقهم ودمائهم في بناء تلك الحضارة الأمريكية المعاصرة ولا يعقل التخلي عنها والعودة إلى أفريقيا مرة أخرى. وكنت أتساءل إذا كان وضع الأمريكيين السود في الولايات الشمالية مثل هذا فكيف يكون وضعهم في الولايات الجنوبية حيث التفرقة العنصرية تمارس بصورة أعنف وعلناً. وقد أخبرتني إحدى زميلاتي من الأمريكيات السود في الجامعة أن الولايات الجنوبية في أمريكا لا تطاق بالنسبة للرجل الأسود. فهناك علامات واضحة في المطاعم والمحلات التجارية وحتى دورات المياه توضح عدم دخول السود بالأمر فيها. وقد قرأت في إحدى الصحف المحلية بماديسون في أحد الأيام خبراً مفاده أن الرئيس الأمريكي السابق جيرالد فورد ينتمي إلى نادي إجتماعي أرستقراطي يمارس فيه بعض هواياته الرياضية وعضوية النادي محظورة على النساء والسود. وقد وقفت طويلاً أمام هذه المعلومات ولم أملك سوى التألم لوضع الرجل الأمريكي الأسود إذا كان هذا هو حال قادته.

هناك جانب آخر وهو، ما هو وضع الطلاب الأجانب السود الأفريقيين في المجتمع الأمريكي وخاصة المجتمع الطلابي؟ وللحقيقة أقول أن الأمريكيين البيض في المجتمع الطلابي يعاملون الطلاب الأجانب سوداً كانوا أو غير سود بمنتهى الرقة والاحترام. أذكر أنني وعند دخولي إحدى قاعات المحاضرات أمطرني البعض بنظرات الاشمئزاز لم أكترث لها مطلقاً فقد أصبحت جزء من حياتي هنا لا يشغل البال ولو قليلاً. وعندما طلب المحاضر أن ينهض كل واحد فينا ليعرف نفسه، نهضت من مقعدي وأوضحت إسمي وبلدي والغرض من وجودي في أمريكا ودراستي وغيره. وفوجئت ببعض الطلبة البيض يأتون إلي ويسألونني عن بلدي وما هو رأيي في بلدهم وكيف أمارس حياتي هنا بعيداً عن أهلي ووطني وبدأوا ينظرون لي ويعاملونني برقة وإحترام متناهيين وهو نفس الشيء الذي وجدته عند

الأساتذة وبقية العاملين في الحرم الجامعي. فهم يحترمون الطلاب الأجانب غاية الاحترام ويقدمون لهم كل ما يحتاجونه من المساعدات ويفرقون تماماً بين الطلاب الأجانب السود والأمريكيين السود. وفي تقديري أن هذه العملية هامة للغاية إذا كانت أمريكا ترغب في إقامة علاقات جيدة مع دول العالم الأخرى خاصة أفريقيا، فعليها أن تعامل الطلاب الأجانب بعيداً عن صراعات مجتمعيها الأبيض والأسود لأن ما يواجهه الطلاب الأجانب من معاملات هنا يمكن أن يكون ذا أثر كبير في تشكيل العلاقات بين أمريكا وبلادهم متى ما عاد هؤلاء الطلاب لبلادهم واحتلوا مراكز مرموقة فيها.
أذكر أنني كنت أتحدث مع أحد أصدقائي من أثيوبيا عن بعض مظاهر التفرقة العنصرية التي مرت بنا دون أن يعرف الجانب الآخر أننا أجانب.
وقد خلصنا في الحديث إلى أننا يجب ألا نقحم أنفسنا مطلقاً في صراع المجتمعين الأبيض والأسود في أمريكا. وقد سميتهما مجتمعين لأن المجتمع الأسود في أمريكا يعاني حقاً من الفقر والتمزق الإجتماعي والاقتصادي والتعليمي، مما جعله ينغمس في عالم الجرائم والمخدرات والخمور كما أن المجتمع الأبيض رغم التمزق الاجتماعي الذي يعاني منه (في رأيي وبالمقارنة مع مفاهيمي الإجتماعية) فهو يعيش في رفاهية وراحة تكنولوجية وإقتصادية وتعليمية. وقد فكرت في كتابة مقال لإرساله للصحف في السودان بعنوان «الجانب المظلم لأمريكا» وهو الجانب الإجتماعي لمجتمعيها الأبيض والأسود إذ أن لي آراء كثيرة في هذا الجانب خاصة وأن الجانب الذي نعرفه عن أمريكا في بلادنا هو الجانب التكنولوجي المشرق فقط. خلال تجوالي في شوارع ماديسون كنت أتوقع أن أجد كمية كبيرة من المجانين السود في الشوارع لأن الضغوط الاجتماعية في المجتمع الأمريكي على الأمريكيين السود في رأيي كافية لأن تجعل أكثر من نصفهم مجانيناً فاقدين لعقولهم، وهو الشيء الذي لم أجده مما يدل على قوة إحتمال الأمريكيين السود عقلياً وجسمانياً. فإذا نظرنا إلى معاناتهم خلال الأربعمائة سنة الماضية لوجدنا أن ثلاثمائة سنة منها إستعباد بالمعنى.

الواضح. وربما تكون الفئة التي كنت أبحث عنها موجودة بكميات قد تكثر أو تقل داخل المصحات العقلية، والله أعلم!!

في أحد الأيام طلب مني أحد الأصدقاء السودانيين الاستماع إلى إحدى الاسطوانات التي استعارها من أحد الأصدقاء الأثيوبيين وهي لشخص أمريكي أسود. واعتقدت في بداية الأمر أنها لمغني أمريكي أسود خاصة وأن الأمريكيين السود مشهورون بأغانيهم الجميلة والتي تعجب المستمعين البيض والسود والأجانب على السواء. ولشد ما دهشت حينما بدأت أستمع لصوت أحد الزعماء من الأمريكيين السود وهو يخاطب مجموعة من مستمعيه في لقاء في مدينة ديترويت بولاية ميتشجان. فقد كان الصوت هادراً قوياً عنيفاً يتسم بمنطق خيالي وثقة كاملة. وقد عرفت أن ذلك الشخص هو الزعيم الأمريكي المسلم مالكولم إكس والذي اغتيل في قاعة الأودوبان بمدينة نيويورك حينما بدأ في إلقاء إحدى خطبه هناك عام ١٩٦٤. وللحقيقة فقد شدني الصوت والمنطق إلى الإستماع بكل حواسي لهذه الاسطوانة وهي بعنوان (الإقتراع أو الموت Ballot or Bullet). ولم أفق إلا بعد أن إنتهى الزعيم مالكولم إكس من خطبته. لقد كانت خطبته إدانة للتفرقة العنصرية وهجوماً لاذعاً للمجتمع الأبيض الأمريكي ونقداً ذاتياً للمجتمع الأسود ودعوة إلى تكتل الأمريكيين السود لمواجهة الإضطهاد والاستغلال والاستحقار الذي يمارس في أمريكا ضد الأمريكيين السود. ولعلني لم أسمع في حياتي خطبة مليئة بالقوة والمنطق مثل تلك الخطبة. ومنذ ذلك الحين بدأت أسأل عن تاريخ مالكولم إكس ولم أتردد في الإتجاه للمكتبات وشراء ما أجده من كتب عن مالكولم إكس. ولم تمضِ أيام حتى كنت قد قرأت (تاريخ حياة مالكولم إكس بقلمه (Autobiography of Malcolm X) مرجع رقم ٣١)، وكتاباً عن أحاديثه ولقاءاته (Malcolm X Speaks) - مرجع رقم ١٧، وكتاباً آخر كتبه عن التاريخ الأمريكي الأفريقي (Malcolm X on The Afro-American History) مرجع رقم ١٦، والجزء الخاص به في كتاب (أدب الأمريكيين السود Black American Literature) - مرجع رقم ٢٠،

وكتاباً آخر عن حركة الحقوق المدنية في أمريكا بعنوان (ولم ننج بعد And We Are Not Saved، للكاتبة السوداء دبي لويس (مرجع رقم ١٤). ولم يوقف سيل قراءاتي عن هذا الزعيم الأسطورة كما أعتقد سوى قرب إمتحانات الفترة الدراسية الأولى لي في أمريكا. ونسبة لإرتباط هذا الزعيم في جزء من حياته بحركة المسلمين السود في أمريكا والتي كان يتزعمها الإيجا محمد - والذي توفي في حوالي شهر فبراير عام ١٩٧٥، بعد وصولي لأمريكا بفترة بسيطة - فقد ظللت أقرأ باستمرار صحيفة التنظيم الإسلامي للأمريكيين السود وقد كانت بعنوان (محمد يتحدث Mahammed Speaks*. وقد كانت تلك الصحيفة تعبر عن آراء المسلمين السود في أمريكا وتنادي دائمًا مطالبة باسم المسلمين السود بتخصيص ولاية في أمريكا يتجمع فيها كل الأمريكيين السود وعددهم يزيد عن الإثنين وعشرين مليون نسمة لتكون لهم دولة مستقلة وتطالب أمريكا برعاية هذه الدولة حتى تقف على رجليها كرد لكل ما قدمه الأمريكيون السود لأمريكا خلال فترة الثلاثمائة سنة التي استعبدوا فيها مما أدى لأن تكون أمريكا أقوى وأغنى دولة في العالم. تجدر الإشارة هنا إلى أن الإيجا محمد قد بنى دعوته الإسلامية على أساس أنه رسول الله للشعب الأمريكي الأسود. وقد بدأ إبنه والاس د. محمد مؤخراً في تصحيح هذا المفهوم وتبنى الإسلام كما هو معروف في الشرق العربي وأنحاء العالم الأخرى.

في الحقيقة ظللت ولا زلت معجباً بالزعيم الأمريكي الأسود مالكولم إكس في صراعه لرفع الإستبعاد الإجتماعي والإقتصادي والسياسي عن كاهل أبناء جنسه من الأمريكيين السود. وأعتقد أن دعوته لتوحيد جهودهم والتقائهم مسألة ذات أهمية قصوى إذا كان الأمريكيون السود يرغبون في

* بعد وفاة الإيجا محمد وانتخاب إبنه والاس د. محمد رئيساً للمسلمين السود في أمريكا تغير إسم هذه الصحيفة إلى أخبار البلاليين (Bilalian News) وكلمة البلاليين ترمز إلى السود في أمريكا بدلاً عن الزنوج (Negros) والتي لا يستسيغها السود كما أشرت من قبل. وهذا التعبير منسوب إلى بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم.

تحسين أوضاعهم في المجتمع الأمريكي. هناك شيء هام للغاية وهو أن الأمريكيين البيض لا يهتمون كثيراً بغرس مفاهيم المساواة العنصرية في مدارسهم وجامعاتهم في طلابهم كما يفعلون بالنسبة للمفاهيم الديمقراطية، ولا أدري لماذا يتجاهلون هذا الشيء الأساسي والهام. فتدريس الطلاب معاملة بعضهم البعض بإنسانية بعيداً عن العنصريات ذو أهمية كبيرة في تخفيف حدة الصراعات العنصرية في أمريكا. وللحق أقول لم أدخل محاضرة واحدة في جامعة ويسكونسن - ماديسون بأمريكا تحدث فيها المحاضر بخير عن الأمريكيين السود، بل كانت كل الأمثلة التي أقحم فيها الأمريكيون السود تدينهم وتستحقر من شأنهم في المحاضرات، وهي في نظري مسألة تعمق من حدة العنصريات في أمريكا وتدين مجتمع العلم فيها. وقد مرت عليَّ عدة أمثلة أهمها محاضرة كنت قد حضرتها في كورس لعلم النفس الإجتماعي أورد فيها المحاضر تجربة تبين مقارنة بين وضع الأجناس المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وعام ١٩٧٤ في عدة مجالات مثل الذكاء والتفوق وغيرهما. وقد أشار المحاضر بمقارنة نسبة الذكاء في مجموعة من مجتمعات الدول الأوروبية بالإضافة للمجتمع الأمريكي بشقيه الأبيض والأسود. ولم ترد كلمة ذكاء مطلقاً أمام جنس الأمريكيين السود (أو الزنوج كما مكتوبه) باعتبار أنها غير واردة على الإطلاق في هذا الجنس. وقد كان يجلس بجانبي في المحاضرة أحد الزملاء السعوديين وسأل المحاضر لماذا لا نجد كلمة ذكاء أمام الجنس الزنجي الأمريكي في التجربة كما نجدها أمام الأجناس الأخرى؟ ولم يجد المحاضر رداً شافياً لذلك. وفي الواقع لم تكن تلك الحادثة أكثر مرارة من بعض الدراسات التي تلقيتها فيما بعد في كورسي علم التعليم الإجتماعي وعلم التربية النفسي والتي أوضحت محاولة أحد الباحثين الغربيين لإثبات تخلف العنصر الأفريقي الأسود عقلياً عن العنصر الأبيض ومحاولة باحث آخر لربط الغباء باللون الأسود أي أنت أسود فأنت غبي بالطبيعة. ولعل كلمة أسود في نظري تتعدى حدود الأمريكيين السود لترشقنا نحن في القارة

الأفريقية أو أفريقيا السوداء (Black Africa) كما تنعتها هنا بعض الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى. ولشدة ذهولي لم أنبث ببنت شفة خلال تلك المحاضرات خاصة وقد كنت أجهل تماماً أي شيء يتعلق بمثل هذه الدراسات المجرمة في نظري. وعلى كل فأنني أحمد الله كثيراً على أنني لم أولد كأحد الأمريكيين السود، فما أقسى أن يعيش الانسان كواحد من قطاعات الأقلية في أي مجتمع خاصة إذا كانت هذه الأقلية غير محبوبة.

الفرقة الثورية

خلال هذه الفترة الأولى من وجودي في ماديسون بأمريكا كانت الحرب في فيتنام لا تزال تدور في ذلك الجزء من القارة الآسيوية، وكانت متقطعة بعد معاهدة باريس التي وقعها هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا آنذاك ولي دوك ثو مندوب فيتنام الشمالية. وكان الحماس الطلابي للمطالبة بخروج أمريكا من فيتنام في أوج قمته في جامعة ويسكونسن-ماديسون بالذات. وفي نفس الوقت كانت الحرب تدور بين قوات الكامور روج والنظام القائم في كمبوديا مدعمًا بواسطة أمريكا. وحدث في ذلك الوقت أيضاً أن قام الانقلاب العسكري الأول في أثيوبيا والذي أطاح بالامبراطور هيلا سيلاسي، واستمر القتال بين الحكومة الأثيوبية العسكرية وقوات التحرير الأريترية. وكانت في جامعة ويسكونسن-ماديسون عدة جبهات طلابية منظمة تطالب بإيقاف الدعم الامريكي لحكومات فيتنام وكمبوديا وأثيوبيا بعضها منظمات يسارية. وقد اتصل بي بعض الطلاب الذين ينتمون لاحدى هذه المنظمات وهي منظمة (فرقة الطلاب الثورية) وهي كما قالوا منظمة يسارية تضم طلاباً وقادة غير متطرفين وطلبوا مني الانضمام لهذه المنظمة. وقد أعطوني إحدى جرائدهم التي تعبر عن آرائهم وفيها إدانة للنظام الرأسمالي الحاكم في أمريكا والدعوة لمحاربته هو بدلاً عن الحروب في دول العالم الأخرى والتي أفقدت أمريكا خمسين ألف قتيل وعشرات الآلاف من الجرحى والمشوهين نتيجة إقتحامها في حرب فيتنام فقط. وقد طلب مني أعضاء هذه المنظمة الاشتراك في المظاهرة التي تنادي بها الجبهة المتحدة (وهي مكونة من مجموعة من

سظمات الطلاب في الجامعة) لايقاف الدعم الأمريكي المادي والعسكري ـ.كومات فيتنام وكمبوديا وأثيوبيا. ولكراهيتي للحروب ولايماني بخطأ ندخل الأمريكي العسكري في فيتنام وغير فيتنام فقد خرجت في هذه المظاهرة بعد أن اتصل بي بعض الأصدقاء الأريتريين وطلبوا مني الخروج معهم والاشتراك في المظاهرة. وقد كانت هذه المظاهرة بحق قوية وتنادي بإيقاف الحروب الاستعمارية، وكانت هتافاتها تدور في هذا الاطار وفي إطار تمجيد الشعب الفيتنامي خاصة. كانت المظاهرة ضخمة تتكون من مجموعة كبيرة من طلاب الجامعة وكان الطلاب يشتركون فيها خلال سيرها من مبنى الجامعة متجهة نحو مبنى الحكومة الرئيسي في ماديسون عبر الشارع الرئيسي فيها ويسمى شارع الولاية. وعلى جانبي المظاهرة كان يسير مجموعة من البوليس الأمريكي لحراستها وحمايتها وكانوا يشكلون صفاً كاملاً من بداية المظاهرة وحتى نهايتها في كِلا الجانبين. وأمام المظاهرة كان يسير أحد رجال البوليس يتقدم المظاهرة بخطوات لايقاف العربات عند تقاطع الشوارع أو في إشارات المرور حتى يؤمن للمظاهرة السير السليم.
وعند وصول المتظاهرين إلى مبنى الحكومة الرئيسي ألقى مجموعة من قادة المنظمات خطباً حماسية يدينون فيها التدخل الأمريكي في فيتنام وكمبوديا وأثيوبيا ويطالبون بإيقاف المعونات لهذه الحكومات وينعتون رئيس دولتهم ووزير خارجيته بالأمبريالية والاستعمار. وبعد أيام من هذه المظاهرة إتصل بي أيضاً مجموعة من قادة فرقة الطلاب الثورية ودعوني للاشتراك في مظاهرة أخرى قيل أنهم ينوون إقامتها في شيكاغو بولاية إلينوى بالاشتراك مع نفس المنظمات بجامعات شيكاغو. لكنني اعتذرت عن الاشتراك في هذه المظاهرة كما اعتذرت لهم بكل تهذيب عن عدم إمكانية إنضمامي لمنظمتهم أو أي منظمة أمريكية أخرى لأنني أولاً لي آراء ومفاهيم أخرى مختلفة كما أنني ثانياً لست أمريكياً لكنني طالب أجنبي في أمريكا هدفي في المقام الأول هو دراستي في الوقت الحاضر. إلا أن ذلك لم يوقف هؤلاء الطلاب عن الاتصال بي كلما لاقوني في دار اتحاد طلاب الجامعة أو المكتبة وإعطائي شيئاً

من مطبوعاتهم ودعواتهم لحضور ندوات أو حلقات نقاش يقيمونها والتي لم أتمكن من حضور أي واحدة منها لانشغالي في الدراسة.

الانتماء الديني

في هذه الفترة من وجودي في أمريكا ونسبة لغرابة الأشياء التي كنت أشاهدها في حياة الأمريكيين فقد كنت كثير الاستفسار، كثير الأسئلة عن أي شيء أراه. ورغم التكنولوجيا ومظاهر العمران فقد كنت ألاحظ أن هناك شيئاً هاماً للغاية يفتقده هذا المجتمع وهو الانتماء الديني. قليل من الشباب الأمريكي من يقول لك أن له ديناً. بل إنني مررت على عدد كبير منهم أخبروني بأنهم لم يقرروا بعد إلى أي دين ينتمون، وهناك أقلية منهم مسيحيون. فالدين لا وجود له بصورة مؤثرة إطلاقاً هنا. ولعل قراءاتي أوضحت لي أن أمريكا وأوروبا كما عرفت قد أستبدلتا بالدين الفلسفة وصاغتا منها قواعد أخلاقياتها وقوانينهما الاجتماعية وهو الشيء الذي لمسته حقاً هنا. فكثيرون من الشباب الأمريكي يتحدثون عن فلسفتهم الخاصة في الحياة وهي في الواقع ليست سوى تبنٍ لفلسفات إجتماعية لمفكرين غربيين أو شرقيين ولا يربطون ذلك إطلاقاً بأي قوانين أو نظم أو فلسفات دينية. ولعلني لا أجانب الصواب إذا قلت أن هناك قلقاً نفسياً بالنسبة لكثير من الشباب الأمريكي الذي عايشته هنا، ولا أعزي ذلك لفقدان العنصر الديني الآن فربما تكون هناك مسائل اجتماعية أو عائلية أو غيرها مصدر هذا القلق خاصة أن الشباب هنا يعيش اللحظة كاملة. هذا بالاضافة للمجموعات الضخمة التي تهجر دور العلم سنوياً دون هدف كما توضحه الدراسات الأمريكية من خلال الكورسات التي حضرتها وبرمجة كثير من جوانب التعليم بهدف امتصاص أفراد هذه المجموعات وترغيبهم فيه. وكمثال لذلك فقد أفرد المجلس القومي الاستشاري للتعليم المهني

بالولايات المتحدة الأمريكية في تقريره السادس (مرجع رقم٢٨) والمقدم لسكرتير الصحة والتعليم والرخاء وهو منصب يعادل منصب الوزير في بلادنا-أفرد جزءاً خاصاً ومطولاً عن أهمية تدعيم الارشاد الاجتماعي والأكاديمي بالمؤسسات التعليمية تحت المستوى الجامعي. وحتى تتسم توصياته بالواقعية فقد أورد التقرير هذه الأرقام عن الشباب الأمريكي.
أولاً هناك سبعمائة وخمسون ألف صبي وصبية يهجرون المدارس الثانوية العليا قبل إكمالها كل سنة (ولم يحدد التقرير الجهات التي تمتص هؤلاء الطلاب). ثانياً أكثر من ثمانمائة وخمسون ألف شاب وشابة يهجرون الكليات قبل إكمالها كل سنة (ولم يحدد التقرير أيضاً الجهات التي تمتص هؤلاء الطلاب). ثالثاً نسبة العطالة بين الشباب في ازدياد مستمر كل سنة خاصة بالنسبة لخريجي الجامعات وهذه هي السنة العاشرة التي تزداد فيها نسبة العطالة خاصة بين خريجي الجامعات. وقد أشار التقرير والذي يقدم سنوياً إلى سكرتير الصحة والتعليم والرخاء والذي يقدمه بدوره إلى الكونغرس الأمريكي إلى أن هناك الآن ما يزيد على سبعين ألف مرشد اجتماعي في الولايات المتحدة في مختلف الحقول بالمقارنة مع عدم وجود أي وظيفة من هذا القبيل قبل ستين عاماً. من هذا العدد هناك سبعة وأربعون ألف مرشد يعملون في المؤسسات التعليمية المختلفة. وقد أشار التقرير إلى عدة مقترحات لتدعيم نظام الارشاد الاجتماعي الأكاديمي بالمدارس وزيادة عدد المرشدين لتقليل نسبة المرشد للطلاب والتي تقدر بمرشد واحد لكل أربعمائة وخمسة وسبعين طالباً في المستوى الثانوي ومرشد واحد لكل ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب بالنسبة للمستوى الأولى. كما أشار التقرير أيضاً إلى أهمية تدعيم التعليم الفني والمهني وفتح مؤسسات تعليمية مهنية لامتصاص هؤلاء الشباب، وإجراء دراسات واقعية ومكثفة لتدعيم نظام الارشاد الاجتماعي الأكاديمي بالمدارس والمؤسسات التعليمية المختلفة.
وفي الكتاب الخامس والسبعين للجنة القومية لدراسة التعليم -الجزء الثاني- بعنوان (قضايا التعليم الثانوي) صياغة وليام فان تيل والذي صدر

عام ١٩٧٦ (مرجع رقم٣٣) ورد في صفحة ١٥٤ ما يلي:

«كل سنة ولأكثر من خمس عشرة سنة، ١٩٥٨-١٩٧٤ يهجر أكثر من مليون صبي وصبية المدارس الثانوية العليا قبل أن يتخرجوا منها، ومن المتوقع أن يستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٨٠ مما يوضح أن فكرة التعليم الثانوي لكل الشباب الأمريكي لا زالت بعيدة كل البعد عن الحقيقة».

وأشار الكتاب إلى أن هناك اهتماماً أيضاً بأن التركيز الشديد على الجوانب الأكاديمية ونحوها قد أدى إلى إهمال جوانب كثيرة خصوصاً النمو العاطفي والأخلاقي والاجتماعي.

في الواقع وبعد مجيئي لأمريكا بحوالي الأسبوع أخطرني الأخ الدكتور التجاني أبو جديري أن الطلاب المسلمين في جامعة ويسكونسن-ماديسون يؤدون فريضة الجمعة في القاعة الأرضية لأحدى الكنائس داخل الحرم الجامعي. كما أن هناك تنظيماً إسلامياً للطلاب المسلمين في الجامعة وهو فرع من اتحاد الطلاب المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ولقد سعدت حقاً بأن أجد هذه الفرصة للانتماء لذلك التنظيم الاسلامي الطلابي النشط. وكنت سعيداً حقاً بأن أتجه إلى سكرتير منظمة الطلبة المسلمين بماديسون وأعلن إنضمامي لمنظمة الطلبة المسلمين بماديسون. وبمعاونة صديقي الدكتور عابدين محمد علي تحصلت على الفورم الخاص بعضوية اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا وبعثت بهذا الفورم بعد ملئه إلى رئاسة اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا بولاية أنديانا. وكم كانت فرحتي كبيرة حينما تسلمت بطاقة العضوية. كنت أؤدي فريضة الجمعة مع إخواني المسلمين بانتظام في تلك القاعة الأرضية في إحدى الكنائس والتي خصصت لتنظيم الطلاب المسلمين بماديسون لهذا الغرض وكنت دائماً بعد كل فريضة أشعر بدفع روحي جديد وبتمسك شديد لديني وتقاليدي الاسلامية. كما كنت خلال هذه الفترة ملتزماً بحق لدراستي

حيث كنت أقضي معظم أوقاتي في المكتبات أو مستذكراً لدروسي داخل غرفتي.

كان مبنى (الساكسوني) الذي أسكن فيه لا يخلو من الحفلات الساهرة التي يقيمها الطلاب خاصة في العطلات الأسبوعية. وقد أتيحت لي فرصة حضور بعض هذه الحفلات بدعوة من بعض الأصدقاء الأمريكيين وقد لفت نظري أن مجموعة كبيرة من الشباب الأمريكي يدخنون حشيش الماريقوانا بكثرة كما أن البوليس الأمريكي لا يشدد كثيراً على إلقاء القبض على الذين يدخنون هذا النوع من الحشيش. وقد سألني بعض الأمريكيين مرة هل أدخن الماريقوانا؟ فأجبتهم بالنفي وكانوا مستغربين حقاً فهي كما قالوا تجعلهم يشعرون بسعادة متناهية ويفضلونها على الخمور بكل أنواعها والتي يتعاطونها هي الأخرى بكميات وافرة في أنديتهم الليلية وفي مساكنهم. ومن الغريب أن أحد المرشحين لرئاسة الجمهورية لأمريكا لعام ١٩٧٦، طرح برنامجه للرئاسة وكان يحتوي ضمن فقراته على تقنين تعاطى حشيش الماريقوانا وعدم اعتبارها ضد القانون. هذا بالاضافة لعدد من الندوات والمسيرات والاعلانات شاهدتها تطالب بإباحة الماريقوانا واعتبارها مسألة عادية لا تقع تحت طائلة القانون.

وفي أوائل شهر مايو عام ١٩٧٥ بدأ الطلاب الاستعداد للامتحانات والتي استمرت حتى منتصفه. ولقد كنت مطمئناً للدخول في امتحانات الكورسات التي أخذتها خاصة وأنني كنت مقتنعاً تماماً بمجهودي الدراسي الذي بذلته خلال هذه الفترة. وفي الحقيقة فقد كانت فرصة جميلة أن يكون أحد امتحاناتي تقديم شفوي أمام بعض أعضاء هيئة التدريس في مدرسة أوريقون الثانوية العليا ببلدة أوريقون بولاية ويسكونسن وهي تبعد حوالي العشرين ميلاً جنوب مدينة ماديسون. وقد أخذني المحاضر وبقية الطلاب الآخرين للامتحان هناك، وكنت مندهشاً حقاً لجمال المدرسة ونظافتها المتناهية. أما بقية الامتحانات فقد أجريتها في مبنى الجامعة. وكانت فرحتي

كبيرة حينما علمت بأنني أحرزت امتيازاً في كل العلوم التي درستها. وقد عبر لي أستاذي الدكتور ماتيسون عن سروره لهذه النتيجة وطلب مني المحافظة على هذا المستوى. وبعدها أخذنا إجازة لفترة أسبوعين قبل بداية الفترة التالية وهي فترة الصيف والتي تبدأ عادة في أوائل شهر يونيو.

الابن الرب

قبيل بداية الفترة الدراسية الثانية لي في أمريكا رن جرس التليفون في شقتي في أحد الأيام وكان المتحدث من الجانب الآخر أحد الأمريكيين والذي عرفني بنفسه باعتبار أنه عضو في إحدى المنظمات المسيحية وأنهم اعتادوا أن يقيموا حفلاً سنوياً للطلاب الأجانب بجامعة ويسكونسن-ماديسون. ودعاني هذا الشخص ومعي صديقيّ في الشقة لحضور هذا الحفل والذي أخبرني بأنه سيقام في إحدى الكنائس في الجزء الشمالي من مدينة ماديسون. وأضاف بأن مندوباً عن الكنيسة سيأتي ليأخذني بعربته إلى مكان الاحتفال وسيعيدني إلى شقتي بعد انتهاء الاحتفال. ولما كانت فكرتي ضحلة للغاية عن الدين المسيحي فقد اعتبرتها فرصة لمعرفة شيء عن هذا الدين خاصة وقد كنت أؤمن بأن المستعمر الانجليزي وغير الانجليزي عند غزوه للمستعمرات الأفريقية والآسيوية كان يحمل البندقية بيد ويحمل الانجيل في اليد الأخرى، يصفع بتلك ويعلم الناس أن يديروا خدهم الأيسر إذا صُفعوا على الأيمن. وفي الموعد المحدد ليوم الاحتفال، طرق باب شقتي رجلٍ أمريكي أبيض في حوالي الخامسة والأربعين من عمره وعرفني بنفسه قائلاً أنه المستر هاريس وطلب أن يأخذني إلى مكان الاحتفال. وعند دخولي الكنيسة لاحظت أن هناك استعداداً كبيراً لهذا الاحتفال، ووجدت مجموعة كبيرة من الطلاب الأجانب خاصة من البلاد الآسيوية والأفريقية. وقد استقبلتني في الباب لجنة من منظمي الحفل وطلبوا من المستر هاريس وزوجته التي عرفني بها عند وصولي الكنيسة بأن يكونا المضيفين لي وعليهما ملازمتي حتى انتهاء

الحفل. وقد صحبني المستر هاريس وزوجته عبر قاعات الكنيسة وبدآ يشرحان لي الأماكن المختلفة للكنيسة وكيف يؤدون صلواتهم. وكنت من جانبي أشرح لهما أيضاً بوصفي مسلمًا كيف نؤدي صلواتنا وما هي الأشياء الأساسية في ديننا الحنيف الاسلام. وكم كانت دهشتي كبيرة حينما سمعت المستر هاريس يردد بأن السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو ابن الاله بجانب أنه هو أيضاً إله!! وقبل أن أفق من دهشتي نودى علينا بأن الأكل جاهز وعلينا التوجه إلى قاعة الطعام لتناوله. وكان المستر هاريس وزوجته في الحقيقة في غاية اللطف حينما طلبا مني أن أتقدمهما في الصف لاختيار ما آكل وذكرا لي بأنهما سينبهاني إذا مررت على لحم خنزير حتى أتفاداه لأنهما يعلمان أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير. وبعد انتهاء الأكل التقطت لنا بعض الصور الفوتوغرافية وعزفت بعض المقطوعات الدينية وألقيت الخطب والأحاديث وطلب من كل واحد من الطلاب الأجانب أن يقف ويعرف نفسه. ونهضت من مقعدي وعرفت نفسي للحاضرين والغرض من وجودي في أمريكا، وشكرتهم على احتفالهم بالطلاب الأجانب. وبعد انتهاء مراسيم الحفل أخذني المستر هاريس إلى شقتي بعد أن أعطاني هو وزوجته رقم تليفونهما وعنوانهما وطلبا مني أن أزورهما في منزلهما مرة أخرى الشيء الذي لم أفعله بعد ذلك لانشغالي في دراستي. وفي الحقيقة وبعد عودتي إلى شقتي ظللت أفكر كثيراً في الدين المسيحي ولم أتردد في قراءة جزء من الانجيل الذي أهداه لي أحد الأصدقاء الأمريكيين. وقد عرفت أن المسيحيين يؤمنون بأن الإله هو في صورة ثلاثية. الصورة الأولى هي صورة الأب لسيدنا عيسى عليه السلام والصورة الثانية هي صورة الابن (إبن الاله) وهو سيدنا عيسى عليه السلام والصورة الثالثة هي صورة الروح. وينتج عن ذلك أن سيدنا عيسى عليه السلام هو إبن الاله الوحيد وبالتالي فهو يقدس كإله نفسه.
وهم يؤمنون بأن الاله أرسل إبنه سيدنا عيسى عليه السلام للأرض ليموت لكي يمحي خطايا البشر. وقد طافت بذهني عدة آيات قرآنية تشير

إلى كفر من يؤمنون بمثل هذه المعتقدات من وجهة النظر الاسلامية. كنت قبل مجيئي لأمريكا أعتقد أن الدين المسيحي من النواحي الأساسية يلتقي مع الاسلام في كثير من الأشياء لكنني اقتنعت هنا تماماً بأن مفاهيمي الاسلامية تتناقض تناقضاً جذرياً مع المفاهيم المسيحية. وزادني ذلك تمسكاً بديني الحنيف الاسلام بل وكنت دائمًا أردد أن الله سبحانه وتعالى ليس له ولد، لأنه جل جلاله ليس له زوجة وهو الله الواحد في ملكوته يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار؛ سبحانه وهو قادر على أن يخلق من يشاء بكلمة كن فيكون. وما مثل سيدنا عيسى إلا كمثل سيدنا آدم عليهما السلام كلاهما كلمة الله لعبديه بأن يكونا فكانا. وفي الواقع كثيراً ما كنت ألتقي ببعض الأشخاص منهم الطلاب في الجامعة يبشرون بالديانة المسيحية ويناقشونني فيها. وكنت مرة أجلس في دار اتحاد الطلاب فأتى شخصان من الأمريكيين البيض وحيياني وطلبا أن يجلسا ويتحادثا معي في الديانة المسيحية. وكان يجلس معي حينها شاب صديق من الهند وهو مسلم أيضاً. وبدأ الشابان يطرحان الأفكار المسيحية وذكرا أن السيد المسيح هو إبن الإله وقدمات لينقذ العالم. وطلبا مني وصديقي الهندي أن نقبل أن يكون السيد المسيح عليه السلام منقذنا وهي إحدى الأفكار الأساسية في الديانة المسيحية. وبالطبع رفضنا الطلب وذكرنا لهما أن السيد المسيح لم يمت أولاً كما أننا لا يمكن بأي حال أن نقبل بشر لينقذنا لأن المنقذ هو الله سبحانه وتعالى ولا أحد غيره. كما أشرنا لهما بأننا مسؤولون مسؤولية مباشرة عن أعمالنا أمام الله سبحانه وتعالى ولا يزيل هذه المسؤولية موت أحد أو حياة أحد. ولشعوري بالضيق من النقاش إستأذنت منصرفاً إلى محاضراتي. وقد أدخلتني آرائي في الواقع في كثير من النقاشات مع بعض الأمريكيين المسيحيين لعدم اقتناعي بما يؤمنون ولفكرتي بأن الدين المسيحي المعاصر ليس هو دين السيد المسيح عيسى إبن مريم عليه السلام والذي أوحى إليه كنبي. بل هو الدين الذي كتب عن السيد المسيح سنين عديدة بعد اختفائه وجعل منه هو نفسه إلهاً. ذلك ما أشار به البروفسير فلويد هـ.

روس من جامعة كاليفورنيا والأستاذة تنيت هيلز في كتابهما (الأديان الكبيرة التي يعيش بها الانسان)، (مرجع رقم٢٥)*. وقد ظللت في حوار ونقاش مع كثير من المسيحيين حتى قررت في أحد الأيام عدم الدخول في أي نقاش في هذا الجانب خاصة حينما شعرت بأنه يدخلني في أشياء لا أرغب في الحديث عنها بل مجرد التفكير فيها.

خلال فترة الاجازة الصغيرة وقبل بداية فترة الصيف الدراسية لعام ١٩٧٥، كنت أقضي معظم أوقاتي مع زملائي وأصدقائي السودانيين المتزوجين حيث تعد لنا زوجاتهم ما لذ وطاب من الوجبات السودانية الشهية. وخلال هذه الفترة غادر أحد الصديقين السودانيين اللذين يسكنان معي في مبنى (الساكسوني) منتقلاً إلى منطقة المتزوجين بعد أن حضرت عروسته من السودان وبعثت له في ماديسون. ولقد قضينا بحق كجالية سودانية أياماً جميلة ونحن نحتفل بزواجه وسط المراسيم السودانية من (حِنة) و(ضَريرة)، وأغاني سودانية وغيرها. وبعد فترة قصيرة أعلن الأخ العازب الآخر بأنه سيغادر ماديسون متجهاً إلى السودان بغرض الزواج. ولعل سفر الأخوين السودانيين جعلني أعيش في حالة غربة لا أحسد عليها في مبنى (الساكسوني) وسط الأمريكيين والأجانب. وقد تعرفت خلال هذه الفترة على أحد الزملاء المصريين وأصبحنا نقضي أوقاتنا سوياً يزورني أحياناً في غرفتي وأزوره في غرفته. وقد خفف عني كثيراً من إحساس فقدي لصديقيّ السودانيين.

(*) يوجد هناك حالياً قطاع مسيحي يؤمن بوحدانية الاله ويسمى دعاة جيهوفا، وجيهوفا ترمز إلى إسم الاله. وكان مندوبون عنهم يأتون لشقتي في فترات يتحادثون معي ويمدونني بمطبوعات على أمل ان اصبح واحداً منهم.

حِوار خفيف

في أوائل شهر يونيو عام ١٩٧٥ بدأت فترة الصيف الدراسية وكانت من أكثر الفترات الدراسية إرهاقاً لي. فالعمل كان متواصلاً دون راحة لانها فترة قصيرة تنتهي في حوالي شهرين. وقد زادني تعاسة خلال هذه الفترة استقالة أستاذي المشرف على دراستي وهو الدكتور هارولد ماتيسون من الجامعة. وقد ذكر لي بأنه قرر ترك العمل في الجامعة والتوجه إلى فلوريدا للعمل كنائب لمدير إحدى الشركات. وقد ظللت أفكر كثيراً قبل إختيار أستاذي الذي سيشرف على دراستي بدلاً عن الدكتور ماتيسون. ووقع إختياري أخيراً على البروفسير جون ثومبسون وهو أحد الأساتذة المشهورين في شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة. وقد رحب بي البروفسير ثومبسون كطالب من طلبته للتحضير للماجستير في مجال التعليم الزراعي. وقبل نهاية فترة الصيف الدراسية وكان من المقرر أن تنتهي في أوائل شهر أغسطس بدأت البحث عن سكن جديد لي، إذ أن عقد السكن الذي وقعته في مبنى (الساكسوني) كان من المقرر أن ينتهي في أول شهر أغسطس عام ١٩٧٥. وبعد بحث شديد وجدت غرفة في مبنى صغير يتكون من ثلاثة طوابق في شارع أورشارد الشمالي (North Orchard st.) ويعتبر أقرب إلى مكان دراستي من مبنى (الساكسوني). وقد كان رقم المبنى هو ٤٥ كما كانت غرفتي هي الغرفة رقم ١٠٤ في الطابق الأرضي من ذلك المبنى. كانت الغرفة جيدة لحد ما إذ أنها لشخص واحد وتسمى شقة الكفاءة (Efficiency Apartment) لا يشاركني السكن شخص آخر كما كان الحال في مبنى (الساكسوني)، حيث كانت المضايقات تطرأ صباحاً

ومساءً في إستخدام المطبخ وغرفة الاستحمام. فالغرفة صغيرة وهي عبارة عن غرفة نوم ويمكن أن تنقلب إلى غرفة جلوس بقليل من التعديلات أهمها أن السرير الذي أنام فيه يمكن أن ينقلب إلى كنبة في حالة حضور ضيوف. والغرفة ملحق بها مطبخ صغير بثلاجته وبها مكتبة صغيرة للدراسة ودواليب للملابس. أيضاً ملحق بالغرفة في أحد جوانبها غرفة إستحمام صغيرة مشتركة بيني وبين الشخص الذي يسكن في الغرفة الملاصقة لي. وبعد رحيلي إلى غرفتي الجديدة بأيام قليلة طرق باب غرفتي أحد الأشخاص وهو شاب أمريكي أبيض وعرفني بنفسه على أساس أنه جاري في الغرفة المجاورة وذكر لي أن إسمه كليف بريم وهو يحضر لدراسات عليا في كلية الجيولوجيا بالجامعة. وسألني كليف عن إسمي ومن أي بلد أنا فعرفته بنفسي. ودعاني كليف للجلوس في غرفته والتحادث قليلاً ففعلت. وقد لفت نظري كثرة الكتب التي تحتويها غرفة هذا الشاب بالإضافة لثقافته العالية والتي لاحظتها من خلال الحديث معه. وقد أدهشني أنه يعرف الكثير عن مختلف بلدان العالم بما فيها السودان - عكس الغالبية من الأمريكيين الذين إلتقيت بهم. وبدأ ذلك الشاب الأمريكي يسرد لي بعض الحقائق عن بلادي وكانت كلها صحيحة فيما عدا جانب الغزو الإستعماري للسودان. فقد ذكر لي أن الإنجليز قد غزوا السودان كما قال لمنع تجارة الرقيق التي كان يمارسها المهدي وهي معلومات إستقاها كما أشار من مصادر إنجليزية. وقد أخرج لي عدة كتب منها كتاب دائرة المعارف البريطانية وفيه تسجيل لبعض الأحداث التاريخية للمستعمرات الإنجليزية ومن بينها السودان. وبعد قراءتي السريعة للجزء الخاص بتاريخ السودان وضعت الكتاب جانباً وبدأت أفهمه بأن الإنجليز لم يكتفوا بإستعمارنا ونهبنا فقط بل شوهوا تاريخنا الذي نفخر به. فالشاهد أن كتاباتهم عن تاريخ السودان ملؤها التزييف والكذب المتعمد. وقد ذكرت له أن المهدي من أعظم القادة الذين مروا على بلادنا وكان نضاله من أجل الإسلام ومن أجل إسترداد الوطن من المستعمرين ولم يحدث في تاريخه أن مارس تجارة

الرقيق على الإطلاق. وأشرت إلى كتاب (كرري - معركة أم درمان) للكاتب عصمت زلفو كنموذج للكتابات السودانية التي بدأت مؤخراً لدحض إفتراءات وأكاذيب الانجليز*. وأضفت أن تجارة الرقيق التي مورست منذ قرون مضت كانت في الواقع تمارس بواسطة الإنجليز أنفسهم ورفقاؤهم في هذه التجارة هم الإسبانيون والبرتغاليون. ولعلها كانت إحدى إستراتيجياتهم في غرس مشكلة مزمنة في أمريكا مثل ما فعلوا في كل بلد إحتلوه وهم كانوا يستعمرون أمريكا نفسها لفترة من الزمان حتى نالت أمريكا إستقلالها منهم في ٤ يوليو عام ١٧٧٦ وبعدها دخلت في حرب أهلية طاحنة لتحرير الرقيق. ولا زالت مشكلة السود تمزق المجتمع الأمريكي حتى الآن وستظل تمزقه لفترة ليست قصيرة. وقد أتيح لي فيها بعد مشاهدة فيلم «الخرطوم» الذي يعالج فترة من فترات التاريخ السوداني وهي بالتحديد فترة المهدية. وقد شاهدت هذا الفيلم في التلفزيون الأمريكي كأحد أفلام هوليود الممتازة، وقد كان مليئاً بالتزييفات التاريخية والأخطاء المتعمدة لتشويه تاريخ السودان ونضال أبنائه ضد الإستعمار. وقد كتبت في تلك المناسبة مقالاً مطولاً فندت فيه إدعاءات ذلك الفيلم وأبرزت بعض أخطائه حيث نشرته صحيفة (الديلي كاردينال) اليومية بجامعة ويسكونسن - ماديسون تحت عنوان «لم نعد للرمال»، في عددها رقم ١١١ مجلد ل٣٧ الصادر بتاريخ ١٥ مارس ١٩٧٧ (مرفق رقم ١). وقد وجد ذلك المقال صدى واسعاً وسط زملائي الطلاب خاصة السودانيين والعرب.

في واقع الأمر كانت تلك الجلسة الأولى مع الصديق الأمريكي كليف بداية لصداقة مرحلية بيننا ونقاشات في شتى أمور الحياة وما يدور في العالم من أحداث. وقد كنت معجباً حقاً بسعة أفقه وتعمقه في الكثير من جوانب الحياة. وقد أخبرني بأنه يحمل شهادة في الفلسفة بجانب تحضيره

* توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الرئيسية لجامعة ويسكونسن - ماديسون وهو من الكتب القيمة التي قرأتها.

لدرجة الماجستير في علم الجيلوجيا. وقد قضى ذلك الشاب حوالي ثلاث سنوات في اليابان وسنتين في فيتنام يحارب كجندي في الجيش الأمريكي. وقد أخبرني أن الفترة التي قضاها في فيتنام من أخصب فترات حياته وقد عاد بعدها يتأمل في الحياة وما هي قيمة الحروب والدمار الذي يمارس على وجه هذه الأرض. وفي الواقع كنت أقضي كثيراً من أوقات فراغي مع هذا الصديق الأمريكي نتحادث عن شتى جوانب العلوم والفلسفة والدين. شيء واحد لم يعجبني فيه مطلقاً وهو أنه لا ينتمي لأي دين ولا يؤمن بأي إله ويتساءل إذا كان هناك إله لماذا لا نراه إذا هو موجود فعلاً؟ وأذكر أنني كنت أتحادث معه بعنف عن حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى الإله الواحد والتي لا يعترف بها. وختمت حديثي بالسؤال التالي: «إنك الآن تتنفس الهواء وهو يدخل في كل خلية من جسدك، هل تراه؟» فأجاب بالنفي. فأجبته بأن الله سبحانه وتعالى موجود ولا ينفي ذلك عدم رؤيتك له. وذكر أنني هزمته في النقاش تلك المرة لكنه سيستعد للدخول في نقاشات أخرى متوعداً بأنه سيهزمني فيها.

تجربة رمضانية

إنتهت فترة الصيف الدراسية لعام ١٩٧٥ وبدأت فترة الخريف الدراسية في أوئل شهر سبتمبر من نفس العام. وفي الخامس منه بدأ المسلمون صوم شهر رمضان المعظم، وقد وصلتني لحسن الحظ معلومات كاملة عن مواعيد الصيام ومواعيد الإفطار والإمساك من رئاسة إتحاد الطلاب المسلمين بولاية إنديانا. ورغم الصعوبة التي كنت أجدها في الطبخ وفي تنظيم حياتي المنزلية لوحدي بجانب دراستي الأكاديمية فقد قررت عدم إفطار هذا الشهر الكريم ومواصلة صيامه حتى النهاية. وفي واقع الأمر فإنني لم أجد صعوبة مطلقاً في صيام هذا الشهر رغم أن إحدى محاضراتي كانت تبدأ حوالي الساعة السابعة مساء وتنتهي في التاسعة والنصف مساء مرة في كل أسبوع. وكان هذا الموعد يتعارض لحد ما مع موعد الإفطار إذ أن موعد الإفطار في بداية شهر رمضان كان حوالي الساعة السابعة والثلث مساء وهو موعد غروب الشمس في الصيف. وأذكر أنني في الأسبوع الأول من رمضان توجهت إلى حضور تلك المحاضرة حوالي الساعة السابعة مساء وأنا صائم آملاً أن أنتهز فرصة فترة الراحة في حوالي الساعة الثامنة مساءً لأفطر بساندوتش كنت أحمله في حقيبة كتبي. ولسوء الحظ دخل المحاضر في نقاش مع بعض الطلاب حتى الساعة التاسعة إلا ربعاً حيث تنبه بعد ذلك لإعطائنا فترة راحة قصيرة. وبالطبع لم أتردد في الإسراع خارجاً والتهام الساندوتش الذي كنت أحمله بنهم وشربت كوباً من العصير كنت قد اشتريته من ماكينة مشروبات معدنية خارج قاعة المحاضرات. وبعد عودتي إلى غرفتي حوالي الساعة العاشرة مساء أعددت وجبة إفطاري الرسمية وقررت بعدها عدم التوجه إلى تلك المحاضرة إلا بعد تناول إفطار الصيام وكان ذلك يؤدي إلى

تأخيري عن المحاضرة عدة دقائق. فيما عدا ذلك فقد إنتهى شهر رمضان الكريم بأجمل ما يكون حيث كنت أنظم وجبتي الإفطار والسحور بصورة جميلة للغاية. وقد تعلمت خلال هذا الشهر الكريم أنواعاً كثيرة من الطبخ. وكان يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٥ يوم عيد الفطر حيث أتجهت إلى القاعة الأرضية من الكنيسة التي يؤدي فيها الطلاب المسلمون صلوات الجمعة والأعياد وصليت صلاة العيد مع زملائي المسلمين سائلاً الله عز وجل أن يوفقني في دراستي وحياتي وأن يحفظ أهلي ووطني من كل البلاء والشرور. وبعد الصلاة مباشرة وقد تُليت خطبتها باللغة الانجليزية كما يجري العرف حتى في صلوات الجمع عدت مباشرة لغرفتي وغيرت ملابسي واتجهت إلى المكتبة لمواصلة إستذكار دروسي خاصة وأن الحياة حولي كانت تسير بصورة عادية. فالأمريكيون لا يعرفون أن هذا اليوم من أيام حياتنا السعيدة. فهم لهم أعيادهم الخاصة مثل الكريسماس ورأس السنة والإيستر (أو ذكرى بعث السيد المسيح ونسميه نحن في السودان شم النسيم) وغيرها، وهي أعياد لا تهمنا نحن المسلمين كثيراً.

في أواخر أغسطس عام ١٩٧٥ وصل إلى ماديسون من السودان صديقي العزيز بشري المنصوري للتحضير لـدرجة المـاجستير في علم البساتين. وقد بذلت جهداً كبيراً في أن أجد له غرفة تكون قريبة من المبنى الذي كنت أسكن فيه ولم أوفق، إذ أن الأخ بشري كان قد وصل متأخراً لحد ما وكانت معظم الغرف قد إمتلأت بالطلاب. وقد سكن الصديق بشري حوالي الشهرين مع أحد الأصدقاء السودانيين المتزوجين في منزله (بمرتفعات الصقر) وبعدها حصلت على غرفة أخليت في المبنى الذي كنت أسكن فيه. وبعد حوار مع أحد الأمريكيين ويدعى جيم لونق وكان يسكن في الغرفة المجاورة للغرفة التي أخليت أقنعته بأن يسكن في غرفتي وأن أتحول إلى غرفته حتى يمكنني السكن بجوار الأخ بشري. وفي أوائل نوفمبر من ذلك العام رحلت إلى الغرفة الجديدة رقم ١٠٣ في نفس الطابق الأول للمبنى يجاورني الأخ بشري حيث بدأنا ننسق حياتنا المعيشية سوياً خاصة

مسألة الطبخ والنظافة وغيرها. ولعل وجود الأخ بشري في الغرفة المجاورة لي خفف عني الكثير من إحساس الغربة والإغتراب.

محاسن للإستعمار:

في فترة الربيع الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٦/٧٥ بدأت أعد بحثي لدرجة الماجستير بعد أن إنتهيت من الكورسات النظرية المطلوبة لنيل هذه الدرجة. وقد كانت الامور تسير على أحسن ما يرام خاصة وأنني قد بدأت التأقلم على الحياة الأمريكية وفهم الكثير من جوانبها. وفي أحد الأيام رن جرس التلفون في شقتي. ولما كان تليفوني وتليفون الأخ بشري مشتركين (بسماعتين) فقد طلب المتحدث من الجانب الآخر وكانت سيدة أن تكلم الأخ بشري المنصوري. فأخبرتها بأن الأخ بشري غير موجود في الوقت الحاضر ويمكن أن آخذ أي رسالة تخصه. أخبرتني بأنها العائلة الأمريكية المضيفة لبشري (Host Family) وأنها زوجة أحد البروفسيرات المحاضرين بشعبة الآداب واللغات الافريقية بجامعة ويسكونسن-ماديسون. وقد دعتني هذه السيدة أنا والأخ بشرى لتناول العشاء في منزلهم في أحد أيام الأسبوع كما سألتني عن العائلة المضيفة لي في أمريكا(*). فأجبتها بأنني ليست لدي عائلة مضيفة حتى الآن لأنني لم أملأ الفورمات الخاصة بذلك والتي أرسلها لي مكتب الطلاب الأجانب، لأنني حتى ذلك الوقت لم تكن عندي رغبة مطلقاً في أن أنتمي لأي عائلة أمريكية. وفي الوقت المحدد للعشاء في السادسة مساءً إتجهنا أنا والأخ بشري إلى منزل ذلك البروفسير والذي أخذتنا إليه زوجته بعربتها واستقبلنا البروفسير بكل

(*) هناك منظمات في الجامعات الأمريكية تعمل على ربط الطلاب الأجانب بالاسر الأمريكية عن طريق فكرة العوائل المضيفة حتى يمكن للطالب الأجنبي أخذ فكرة عن الحياة الأمريكية.

ترحاب وطلب منا أن نجلس. وبدأنا الحديث نحن الثلاثة فيما إتجهت زوجته إلى المطبخ لإعداد العشاء. وبدأ البروفسير في سرد ذكرياته عن البلاد الافريقية التي زارها ومن بينها السودان. وقد علمنا أن فترة وجوده في السودان في الأربعينات كانت بغرض التبشير المسيحي هناك لأنه هو أصلاً بريطاني وليس أمريكيا. وسألنا مم تتكون بريطانيا؟ وأذكر أنني أجبته بأنها تتكون من إنجلترا وأسكتلندا وآيرلندا. وسألني ثم ماذا؟ فلم أعرف إجابة. وبغضب واضح صرخ «كيف لا تعرف أن ويلز هي إحدى مكونات بريطانيا؟» وهي وطنه وهو يفتخر بها لحد كبير كما عرفت وصرخ: «أنا من ويلز... أنا من ويلز...» كأنما هذه الأرض ليس فيها سوى ويلز. ويلز في القمة وما عداها في الحضيض. ذلك بالضبط ما كان يصورة الموقف في تلك اللحظة. لم أشأ الدخول مع ذلك البروفسير في أي تفاصيل عن ويلز أو الأجزاء الأخرى من بريطانيا وبدأنا نتحدث عن افريقيا وقد عزيت تشنجه لوهم البريطانيين بأنهم سادة العالم وربما تكون الأجزاء المختلفة لبريطانيا تمارس لعبة السيادة هذه في بعضها. فالاسكتلنديون والآيرلنديون يعتبرون أنفسهم من أصل رفيع (من خلال إحتكاكي بهم في أمريكا) والانجليز بالطبع وهذا مثال حي للويلزيين. وقد سألني البروفسير أيضاً عن بعض المناطق في أفريقيا ولم أعرفها، فقال: «مشكلتكم كأفارقة أنكم تعرفون أمريكا والغرب أكثر مما تعرفون بلادكم». ولعله كان محقاً جداً في هذه العبارة. فقد حاولت أن أستعيد تفاصيل ما درسته خلال فترتي الدراسية في السودان عن أفريقيا فلم تسعفني ذاكرتي بالكثير عكس ما درسته عن أمريكا والغرب عموماً. ولما كان تخصص ذلك البروفسير هو اللغة السواحلية وآدابها فقد بدأ يتحدث عن البلاد الأفريقية التي تتحدث هذه اللغة وأجرى بعض المقارنات بين بعض الكلمات في اللغة السواحلية واللغة العربية التي أوضحناها له. ولما كانت فترة وجوده في السودان هي فترة التسلط الاستعماري الانجليزي فقد إبتعدت عن الخوض في الحديث في هذا الجانب لأن لي آراء كنت واثقاً تماماً بأنها

ستغضبه والوقت بالطبع لم يكن مناسباً، فنحن في منزله بدعوة عشاء منه ومن زوجته. فتاريخ إنجلترا في تلك الحقبة والذي كان البروفسير مضيفنا أحد معالمه هو تاريخ الاستعباد والإستعمار واللصوصية لشعوب الأرض التي خلقها الله حرة واستعبدها الإنجليز. وفي مائدة الطعام جلسنا نحن الأربعة للأكل. وقبل أن نبدأ تلى البروفسير صلاته المسيحية بمناسبة الأكل وتلينا نحن بدورنا جملة بسم الله الرحمن الرحيم وبدأنا الأكل. وللحق كان البروفسير وزوجته في غاية اللطف في تقديم أطباق الطعام وحثنا على الأكل. وفي خلال الأكل تحدث هو عن الاستعمار وأوضح أن هناك حملات حالية على الإستعمار وأن الإستعمار لا يذكر بخير على الاطلاق وهو غير سعيد لذلك. فهناك «رجال مخلصون» - كما قال عملوا في المستعمرات البريطانية وخدموها في جوانب كثيرة وكان يجب أن يقدروا حق قدرهم. بالطبع لم أجب أيضاً لكن عدت بذاكرتي إلى الوراء قليلاً لموضوع كنت أتحادث فيه مع الصديق الأمريكي كليف بريم عن الإستعمار وكان أحد تعليقاته أن المستعمرين بنوا لنا الشوارع والخط الحديدي والكباري وغيرهما وهي محاسن للإستعمار. وكان ردي لكليف بأن المستعمر لم يبن هذه الأشياء لنا فقد بناها لتسهيل مهامه في المستعمرات، بناها لنفسه حتى يتمكن من مص دمائنا بقدر أكبر. وعلى كل إذا طرحنا فاتورة حساب الإستعمار فسنجد أنه مدان لنا بالكثير بما في ذلك غرس أخلاقياته الرديئة فينا. فإنتشار آفة تدخين السجائر وغيرها من الرذائل الأخرى هي نتاج لإحتكاكنا به. وحتى الآن وفي هذه اللحظة تباع علبة السجائر في إنجلترا وأمريكا وبعض الدول الغربية وفيها تحذير بأن تدخين السجائر مضر بالصحة. وفي أمريكا خاصة هناك منظمات تعمل على تبصير المواطنين بخطورة تدخين السجائر مثل المنظمة الأمريكية للقلب (American Heart Association) والمنظمة الأمريكية للسرطان (American Cancer Association) وغيرها. فالسجائر كما ظهر في نشراتهم الصغيرة يسبب السرطان، أمراض القلب وأمراض الرئة (راجع نشرة المنظمة الأمريكية للقلب بعنوان كيف

توقف التدخين - مرجع رقم ١١). وفي نفس الوقت نجد أن هذا التحذير غير موجود في علب السجائر المصنعة في إنجلترا وغير إنجلترا والمصدّرة للسودان بل مكتوب عليها صنعت خصيصاً للسودان. وللأسف الشديد نجد أن سلطاتنا الصحية في السودان تهمل - عن قصد أو غير قصد - تحذير المواطن السوداني بصورة إيجابية بأن تدخين السجائر يقصر من عمر الانسان ويقلق ما تبقى منه بالأمراض(*).

إنتهت زيارتنا لمنزل البروفسير وزوجته وعدت وصديقي إلى غرفتينا وبدأنا نتحادث عنهما. ولم نختلف مطلقاً في أنهما كانا لطيفين غاية اللطف وكريمين جداً معنا. وعلى الرغم من أن الصديق بشري قد أشار إلى الروح المرحة التي تحلى بها البروفسير مضيّفنا إلا أنني كنت سعيداً بعودتي إلى غرفتي وحمدت الله كثيراً على أنني لم أختر حتى تلك اللحظة عائلة أمريكية مضيفة لي. فقد تزيدني ألماً دون أن تقصد إذا كانت لها جذور إنجليزية أو يهودية أو صهيونية. وعليه فقد قررت ألا أختر أي عائلة أمريكية كعائلة مضيفة لإنعدام الرغبة الحقيقية لي في أن أنتمي لأي عائلة أمريكية.

درب اللبّانة:

كان ضمن كورساتي الدراسية التي أخذتها في هذه الفترة كورس للبروفسير ميرل إسترونج عن إدارة التعليم الفني والمهني. وقد كان علينا أن نقدم خلال هذا الكورس مجموعة من التحليلات لمقالات عن التعليم الفني والمهني من المجلات العلمية العالمية التي تهتم بهذه المواضيع. وكانت توجد

(*) لا توجد دعاية للسجائر إطلاقاً في أجهزة الاعلام الأمريكية كالراديو والتلفزيون والسينما وبالقانون كما أن الحرب ضده على أشدها بتحريم تدخينه قانونياً في المطاعم والمواصلات العامة. أما الأجهزة الإعلامية الوحيدة التي يمكن لشركات تصنيع السجائر الإعلان من خلالها هي الصحف والمجلات الأمريكية واللافتات على الطريق حيث يلزمها القانون الأمريكي أيضاً بكتابة العبارة التالية على علب سجائرها وإعلاناتها: «تحذير: لقد أعلن الجراح العام بأن تدخين السجائر خطر على صحتك - Warning: Thesurgeongeneral has determined that cigarette smoking is dangerous to your health.» هناك اتجاه الآن في أمريكا لتغيير عبارة «خطير على صحتك» بعبارة «يؤدي إلى قتلك» لكنها لم تقنن بعد رسمياً في أجهزة التشريع الأمريكية.

هذه المجلات في مكتبة تسمى مركز مواد التدريس (Instructional Material Center) بشعبة العلوم التربوية بالجامعة. وفي أحد الأيام وفيها كنت أقلب في هذه المجلات إسترعى إنتباهي مجموعة من الكتب الفلكية التي تعالج مسائل الفضاء والكواكب والمجرات الكونية. ووجدت نفسي دون أن أشعر أقرأ في هذه الكتب. ولشد ما دهشت حينها عرفت أن المجموعة الشمسية (الشمس وكواكبها التسعة التي نعرفها ومن بينها الأرض) ليست سوى وحدة واحدة من بلايين المجموعات الشمسية الأخرى (حوالي ٢٥٠ بليون شمس) في مجرة كبيرة (Galaxy) تسمى درب اللبّانة (Milky Way Galaxy). ومجرتنا المسماة درب اللبّانة ليست سوى مجرة واحدة من بلايين المجرات في هذا الكون(*). ولقد سميت مجرتنا بدرب اللبانة لأن جزءا من هذا الدرب يمكن مشاهدته بالعين المجردة من الأرض ليلاً في شكل خط من الدخان الأبيض المتقطع. في السودان كنت أعتقد أن ذلك الخط من الدخان الأبيض الذي نراه في السماء في الليل هو الطريق الذي نزل به كبش الفداء لسيدنا إسماعيل حينها أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبحه تحقيقاً للرؤ يا التي رآها في منامه، ولا أدري من أين أتيت بهذا المفهوم. لكنني عرفت أن مجرة درب اللبّانة هي وحدة واحدة من بلايين المجرات الشمسية الضخمة التي تسبح في هذا الكون وهي نفسها تضم بلايين الشموس أو النجوم (Stars) ومن بينها شمسنا وكواكبها التسعة المعروفة. وبمقارنة شمسنا وحجمها مع بقية الشموس الأخرى في مجرة درب اللبّانة تعتبر هذه الشمس متوسطة في الحجم فهي ليست كبيرة وليست صغيرة. وأقرب نجم لنا هو شمس (غير شمسنا) تسمى ألفا سنتوري (Alpha Centauri) وهي تبعد عنا بمسافة كبيرة للغاية، حوالي ٢٦ بليون ميل. والضؤ الذي نراه الآن لأقرب شمس لمجموعتنا كان قد بدأ سيره نحو الأرض قبل حوالي

(*) يقدر كتاب «أساسيات الاحياء - Foundations of Biology» (مرجع رقم ١٩) والصادر عام ١٩٦٨ عدد المجموعات الشمسية في مجرة درب اللبّانة بمائة بليون شمس أو نجم (Star). وقد ورد في تقدير مجلة النيوز ويك الأمريكية الصادرة بتاريخ ١٥ أغسطس ١٩٧٧ أن عدد الشموس في مجرة درب اللبّانة هو ٢٥٠ بليون شمس أو نجم.

أربع سنوات ونصف. أي ما نراه من ضؤ لأقرب شمس لنا هو حال تلك الشمس قبل أربع سنوات ونصف. أما أقرب مجرة لمجرتنا درب اللبّانة فهي مجرة تسمى أندروميدا (Andromeda) وقد شاهدت صورها واضحة في بعض الكتب. وهناك بلايين البلايين من هذه المجرات التي تسبح في هذا الكون مثل مجرتنا بشموسها وكواكبها، وهي في تقديري أبعد بكثير من أن يتخيلها عقلي الصغير أو عقل أكبر عالم فلكي على وجه الأرض (راجع كتاب «نجوم تحت الصنع» لسيسليا باين - مرجع رقم ٢٣ وكتاب «النجوم» لديكفوس وكروس - مرجع رقم ٤ وكتاب «النجوم والبروج» لآن إيفنس مرجع رقم ١٢). في السودان كانت تدور برأسي دائمًا عدة أسئلة عن الكون والشمس ومن بينها إلى متى ستظل الشمس ملتهبة دافقة بالحياة على الأرض؟ ولماذا لا تخمد؟ وما هو سر ثبات نسبة الحرارة والضؤ الذي يأتينا إلى الأرض كل يوم دون أي تغيير؟ ونحن بالطبع نعرف أن حياة الأرض مرتبطة إرتباطاً كاملاً بحياة الشمس إذ أن أي عرقلة في حياة الشمس تعني نهاية الأرض ومَنْ عليها. ولعل كتاب «حياة وموت الشمس» لجون دوبلوسكي (مرجع رقم ٢٦) أعطاني الكثير من الإجابات لتساؤلاتي. فقد علمت أن عمر الشمس هو حوالي خمس بلايين سنة وهي في منتصف عمرها ويتوقع أن تواصل إعطاء الضؤ والحرارة بصورة ثابتة لفترة أخرى تقدر بخمس بلايين سنة. والسر في تكوين طاقة الحرارة والضؤ الذي ينبعث منها هو تمازج أربع وحدات من غاز الهيدروجين يؤدي إلى تكوين وحدة من غاز الهيليوم مع تكوين الطاقة الضوئية والحرارية التي تصل للأرض. كما أن هناك معادلات علمية أثبت العلماء أنها تؤدي إلى أن تكون نسبة الضؤ والحرارة التي تبعثها الشمس ثابتة دون تغيير. وقد دهشت حقاً حينما قرأت بأن الشمس رغم أنها مستديرة بصورة غاية في النظام هي في الواقع ليست جسمًا صلداً مثل الأرض وإنما هي غاز بكثافة كبيرة وعالية جداً.

في الحقيقة ما قرأته عن الكون والفلك في مكتبة مواد التدريس بعث

في الشعور العميق بعظمة الله سبحانه وتعالى. إن ضخامة هذا الكون والنظام الدقيق الذي يسير به دلالة على قوة وعظمة الخالق عز وجل. وكنت أعود إلى غرفتي وأنا في غاية الذهول من تصوري لهذا الكون. ولعدة أيام كنت أستلقي على ظهري في سريري قبل النوم وأفكر بعمق في مجموعتنا الشمسية وإخواتها في مجرة درب اللبّانة وهذه المجرة الكبيرة وأخواتها في هذا الكون اللامحدود. إن هذا الكون وما يجري فيه من دقة ونظام لا يمكن أن يكون شيئاً نبع من نفسه، فهو صنع الله سبحانه وتعالى القادر. إن وصولي لهذه الحقيقة ليس شيئاً جديداً إنما هو إمتداد لايماني الفطري بعظمة الله سبحانه وتعالى وقوته وقدرته على خلق هذا الكون. ولعل المنطق الذي يشير إلى أسباب النظام والدقة في هذا الكون وأنه لا يمكن أن يكون قد تولد إعتباطاً هو نفس المنطق الذي أبرزه أحد علماء الخلية (Cell Cytology) بجامعة هارفارد بأمريكا من أن تكوين خلية الحياة الاولى على الأرض أكبر وأعقد بكثير من أن تنبع من نفسها دون تأثير من قوة غير مادية. وقد سمعت هذا الرأي في برنامج ساعة صفاء من إحدى المحطات الإذاعية بمدينة ماديسون بولاية ويسكونسن وهو برنامج يقدم صباح كل أحد. وقد إستعدت لحظتها ماكنت قد قرأته في كتاب «أساسيات الأحياء» - (مرجع رقم ١٩) من أن هناك عالمين أمريكيين في شيكاغو أجريا محاولة لتسليط طاقة ضوئية على مكونات البروتين لفترة يوم كامل في محاولة لخلق خلية حية وهي نفس المحاولة التي أجراها من قبل أحد العلماء الروس عام ١٩٢٤ وكلاهما منيا بالفشل.

جولة في شيكاغو:

في أوائل مايو عام ١٩٧٦ كان موعدي والأخ بشري للذهاب لزيارة مدينة شيكاغو بولاية إيلينوي بصحبة إثنين من الأصدقاء الأمريكيين البيض هما جيف ويقل وشارلي أندرسون. وكان الصديق جيف قد إقترح أن يأخذنا إلى شيكاغو بعربته وهي تبعد حوالي الثلاث ساعات بالعربة جنوب شرقي مدينة ماديسون وتقع على ضفاف بحيرة ميتشجان. وفي تمام الساعة السابعة

والنصف صباح السبت الأول من مايو عام ١٩٧٦ تحركنا بالعربة متجهين نحو شيكاغو. وتلك كانت أول مرة منذ مجيىء لأمريكا أذهب فيها لزيارة ولاية أخرى بخلاف ولاية ويسكونسن. وقد كنت سعيداً بزيارتي لمدينة شيكاغو إذ أنني كنت قد سمعت الكثير عن هذه المدينة بالإضافة لقراءاتي عنها بأنها كانت معقل العصابات المنظمة في الماضي. وللحق كانت زيارتنا لشيكاغو في غاية الإمتاع إذ صادف ذلك اليوم يوم العمال العالمي، وكان هناك إحتفال كبير في شيكاغو بهذه المناسبة إحتوى على كرنفال لمختلف النشاطات لطلاب المدارس والمنظمات المختلفة في شيكاغو (يلاحظ أن أمريكا تحتفل قومياً بيوم العمال العالمي في أول سبتمبر من كل عام). وقد زرنا عمارة سيرس (Sears Tower) وهي أعلى عمارة في العالم وتحتوي على مائة وعشرة طابق ويليها مبنى التجارة العالمي في نيويورك. وقد اتيح لنا أيضاً زيارة عمارة جون هانكوك (John Hancock Tower) العالية وطريق شيكاغو السمائي المشهور (Chicago Skyway)ومتحف العلوم والصناعة بمواده الغنية. وقد أخذنا الصديق جيف في جولة داخل منطقة السود في الجزء الجنوبي من مدينة شيكاغو وتسمى أحياء السود الفقيرة (Ghettos) حيث يعيش السود هناك في فقر مدقع كما لاحظت من منظر مساكنهم وملابسهم وحالتهم عموماً. ويمكن ببساطة مقارنة تلك الأحياء بأفقر الأحياء في السودان من حيث الإحتقان والإتساخ العام. أعجبني في قلب مدينة شيكاغو جمال مبانيها وحداثتها والبراعة الهندسية بها كما أعجبتني نظافة شوارعها وعماراتها. وقد دهشت حقاً حينما زرنا مطار أوهير بشيكاغو (Ohaire air port) وهو من أكثر المطارات إزدحاماً في العالم إذ لا يخلو هذا المطار من طائرة هابطة أو صاعدة. وقد شاهدنا الطائرات في ذلك المطار تقف بالصف في إنتظار دورها في الصعود في الوقت الذي يكون فيه هناك عدد كبير من الطائرات في الجو في إنتظار أن تأخذ إشارات بالهبوط. وأذكر أننا حسبنا في إحدى اللحظات الطائرات التي كانت هابطة في أرض المطار في لحظة واحدة وكانت سبع طائرات.

كانت زيارتنا لشيكاغو بحق ممتعة حيث قضينا يوماً كاملاً بها وعدنا بعد ذلك إلى ماديسون في منتصف الليل. ومن ناحيتي فقد كانت زيارتي لشيكاغو سريعة للغاية ولم تمكنني من أخذ إنطباع عام عن الجانب الإجتماعي لهذه المدينة لكن يبدو أن الناس في شيكاغو يعيشون حياة سريعة سرعة المظاهر التكنولوجية فيها. فالعربات تسير بسرعة جنونية والقاطرات الداخلية (داخل المدينة) تسير بسرعة كذلك مصعد عمارة جون هانكوك كما قيل لنا هو أسرع مصعد في العالم. وهناك كثير من الناس يتحدثون لك عن خطورة شيكاغو وينصحونك بعدم السير وحدك فيها خاصة في أماكن معينة منها مثل جنوب المدينة. فشيكاغو كانت ولا زالت تتسم بسمعة كبيرة في مجال الجرائم. وقد أخبرني أحد الأصدقاء الأمريكيين بأن متوسط جرائم القتل اليومية في مدينة شيكاغو أربع جرائم أو أكثر. وعلى العموم لم يقابلنا في شيكاغو ما يشوب رحلتنا ويعكرها. ويبدو أن الناس في شيكاغو يعيشون في حذر شديد من بعضهم البعض. وللحق أقول لم يقابلني في شيكاغو شخص أسود مبتسماً على الإطلاق بل غالبيتهم يسيرون في الطرقات بوجوه متجهمة وهم مسرعون في مختلف الاتجاهات. ويبدو أن هناك وداً مقطوعاً بين البيض والسود في شيكاغو كما لاحظت من خلال دخولي بعض المطاعم والمحلات التجارية وهو إنطباع سريع قد يكون خاطئاً.

التكنولوجيا والقلق

إن الزائر لأمريكا لأول وهلة قد تصيبه «الصدمة الحضارية» التي يتحدثون عنها في السودان. فالتكنولوجيا في قمتها؛ مبانٍ جميلة وعالية، سلالم أتوماتيكية هابطة وصاعدة، سيارات وقاطرات تسير بسرعة وهي جميلة وجديدة وشوارع نظيفة ومخططة، وحركة غاية في النظام. شقق مهيئة بكل وسائل الراحة، بوتاجازات، وثلاجات، وآلات لغسيل الملابس والأواني وآلات للتنشيف وأبسطة. وخدمات كهربائية غاية في التطور وخدمات تليفون أيضاً غاية في الدقة وخدمات بريد ترد إليك في منزلك وهي دقيقة جداً. وفي الشوارع والمحلات التجارية كل شيء بالماكينات. الأكل في المطاعم بالخدمات الدقيقة جداً، وإن شئت فهو معبأ في أكياس في ماكينات تدخل نقودك فيأتيك الأكل خارجاً. وينطبق ذلك على علب المياه المعدنية والحلويات وغيره. وحتى السجائر هو في ماكينات وموزع في مختلف المباني تدخل نقودك فيأتيك خارجاً والصحف تباع أيضاً في ماكينات. وهناك ماكينات مهيأة لأن تفك لك نقودك إذا كنت في حاجة إلى فكة. وهناك ماكينات تأخذ الكمية المطلوبة من النقود كثمن لما تشتري وتعيد لك الباقي في مكان مخصص. البصات مواعيدها دقيقة وهي سريعة ومريحة. وإذا أردت سيارة أجرة يمكن أن تتصل تليفونياً برئاسة سيارات الأجرة فتأتيك مسرعة في منزلك، وغير ذلك من التنكولوجيا. ويمكن للانسان أن يجد أي شيء يفكر فيه. فحتى أعواد الخشب الصغيرة التي ينظف بها الانسان أسنانه بعد الأكل معبأة في علب صغيرة ومعدة للبيع. ولا يندهش القاريء الكريم إذا قلت أن هناك (تمباك أو التبغ الممضوغ) معبأ في علب

صغيرة ومعد للبيع، وهو يضارع في جودته (عماري دارفور) في أكشاك (سوق العناقريب) بأم درمان-حسب رواية مستعمليه من الأخوة السودانيين المبعوثين!! ومجمل كل هذه الأشياء التي ذكرتها هو الجانب التكنولوجي. والجانب التكنولوجي مريح وهو في خدمة من يدفع أو بالأصح من يستطيع أن يدفع. وهناك فئة من الأمريكيين تستطيع أن تدفع وهناك أيضاً فئة أخرى لا تستطيع. وتلك طبيعة النظام الرأسمالي بطبقاته، دائمًا تجد فيه فئتين رئيسيتين. فئة مستغِلة (بكسر الغين) وفئة مستغَلّة (بفتح الغين). وكما قال الزعيم مالكولم إكس مرة«حدد لي أي نظام رأسمالي في العالم أحدد لك الفئة التي يمتص دماءها». ولعل الجانب التكنولوجي هنا في أمريكا هو الجانب الذي يضفي عبارة التقدم والحضارة على أمريكا وعلى كل البلاد الأوروبية الأخرى. وهو ما يجعل الكثير من الأخوة السودانيين يتحدثون عن الهوة العميقة التي تفصل بيننا وبين الغرب عامة. وأذكر أنني مرة كنت أتحدث في السودان مع أحد الأصدقاء وكان قد عاد من باريس لتوه وذكر لي بأننا متخلفون عن الغرب بما يعادل مائتي سنة، وبأننا نحتاج لهذه السنين أو أكثر حتى يمكننا أن نصل لمستواهم الحالي. وبسذاجة قبلت حديثه باعتبار أننا فعلاً متخلفون هذا التخلف ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نصل لمستواهم خاصة وأنهم ليسوا ثابتين تكنولوجياً بل متقدمون باستمرار. حقيقة أن الهوة التي يتحدثون عنها في السودان بيننا وبين الدول الغربية في الجانب التكنولوجي -والجانب التكنولوجي فقط- موجودة فعلاً لكنها ليست بالمبالغة التي يذكرونها. فنحن لسنا متخلفين عنهم بمائتي سنة أو أكثر ودليلي على ذلك أن كل السودانيين الذين يأتون إلى أمريكا، قمة الحضارة في العالم كما يشار إليها، لا يحتاجون لأكثر من شهر بالتمام والكمال ليصبحوا جزء من هذا المجتمع ويعيشوا فيه بانسجام تام من حيث إستخدام الجوانب التكنولوجية فيه والمعيشة بذكاء رغم كل تعقيدات أجهزته وماكيناته ومعداته. الفرق الوحيد بيننا وبينهم أنهم يعملون وأننا لا نعمل. ومتى ما وصلنا المرحلة التي يتقن فيها كل منا عمله

في السودان ويؤديه بأمانة فلن تجد هناك هوة على الاطلاق. وإذا كانت هناك هوة بيننا وبينهم بهذا الحجم لما استطاع سوداني واحد أن يعيش في أمريكا أو غيرها من الدول الغربية المتقدمة إذا صح التعبير رغم أنني حتى الآن لا أعرف بالتحديد ما هو مقياس التقدم والحضارة وما هو مقياس التخلف والبدائية. فنحن في أمريكا نحمل صفة الطلاب من الدول المتخلفة (underdeveloped countries) وهي صفة لم أكن أستسيغها على الاطلاق خاصة حينما تذكر داخل المحاضرات. وأكثر من مرة صححت هذا التعبير وطلبت إستخدام الدول النامية (Developing Countries). فالمقياس التكنولوجي ليس هو كل شيء فهناك الجانب الاجتماعي والانساني. ويمكن للانسان أن يكون متقدماً تكنولوجياً وفي ذات الوقت قلقاً نفسياً ومتألماً إجتماعياً. فما هي قيمة التكنولوجيا والأجهزة إذا لم تكن لديها القيمة الحقيقية في بعث السعادة والعيش بسلام لأي مجتمع؟ وكنت دائمًا أتساءل بيني وبين نفسي لماذا يُنعت المجتمع بأنه متقدم لمجرد أنه مجتمع صناعي أو تكنولوجي. الدول الغربية بالطبع حاولت أن تصبغ صفة التقدم على مجتمعاتها الغربية والتأخر على المجتمعات الشرقية ويظهر ذلك بعدة محاولات جميعها فاشلة مثل متوسط دخل الفرد للعام في الدولة وهناك دول شرقية مثل الكويت ودولة الامارات العربية المتحدة والسعودية وغيرها وهي دول نامية يفوق متوسط دخل الفرد في العام فيها متوسط دخل الفرد في العام في أمريكا وانجلترا وغيرها من الدول الغربية. ومحاولة أخرى مثل قولهم يكون المجتمع متقدماً كلما استخدم كمية أكبر من البروتينات وبالطبع قبائلنا الرحل في السودان تستخدم البيض واللبن بكميات وافرة، ربما تكون أكثر من بعض المجتمعات الغربية. وأخيراً محاولة تقسيم العالم إلى خمس مجموعات تتزعمها الدول الصناعية الديمقراطية مثل أمريكا وبريطانيا والدول الاسكندنافية وغيرها وهي العالم الأول. وثانياً الدول الصناعية الشيوعية وهي العالم الثاني. والعالم الثالث هو الدول التي تملك أموالاً كثيرة مثل السعودية والكويت وغيرها. والعالم الرابع هو الدول التي تعاني

اقتصادياً لكن فيها مجموعة من التكنوقراط مثل السودان. والعالم الخامس هو الدول التي تعاني من أزمات اقتصادية حادة قد لا تستطيع الخروج منها. وهذا التقسيم مبني على وجهة النظر الأمريكية وقد قرأته في عدة مجلات وهو تقسيم منحاز وجائر وليس له أي معنى خاصة إذا لاحظنا أنه يضع السويد وبعض الدول الاسكندنافية في العالم الأول ويضع روسيا والصين في العالم الثاني. وفي رأيي أن كلمة متقدم ومتخلف يجب أن تكون نتاجاً للجانبين التكنولوجي والاجتماعي. والأولى تضم الجوانب الاقتصادية والثانية تضم العلاقات الانسانية فقد يعيش الانسان في غاية الألم اجتماعياً رغم كل التكنولوجيا المتوفرة له، وقد يكون في غاية السعادة في علاقاته الاجتماعية والأسرية والانسانية رغم فقده للأجهزة والتكنولوجيا. وتكون الضوابط والعلاقات الاجتماعية في صورة أمثل كلما حكمتها الأصول الدينية (من زاوية عرفية أو انطباعية كثير من الكتاب -راجع على سبيل المثال كتاب «ثورة الأمل» للكاتب الغربي إريك فروم- مرجع رقم٨ صفحة٢). عليه نجد أن المجتمعات التي تطبق الأصول الدينية أكثر إستقراراً نفسياً وسعادة نسبية من المجتمعات البعيدة عن أصول الدين والتي فقدت روابطها الاجتماعية نتيجة إنحرافها عن المبادىء والأصول الدينية وغرقت في بحر من الماديات والتكنولوجيا. ولا أعتقد أنني في حاجة لأن أعدد الأمراض الاجتماعية المنتشرة التي تعاني منها المجتمعات الغربية نتيجة إنغماسها في الماديات، منها على سبيل المثال مشكلة الجرائم وإدمان العقاقير والمخدرات ومشاكل الطلاق والانتحار والتي أود أن أستعرضها في شيء من الاسهاب بالنسبةللمجتمع الأمريكي بالذات. وفي جزء لاحق من هذه المذكرات سأتعرض لمشاكل أخرى كالشذوذ الجنسي وهو سرطان حقيقي في المجتمع الأمريكي ومشكلة إنهيار الأسر وتفككها وغيرها من المشاكل*.

(*) استخدمت في تجميع ملخص المعلومات عن المشاكل الاجتماعية للمجتمع الأمريكي والواردة في هذا الباب عدة مصادر ومراجع مسموعة ومكتوبة من بينها الصحف والمجلات والنشرات الاذاعية والتلفزيونية والاستطلاعات الاعلامية الاحصائية والتي تظهر على فترات متفاوتة لشركتي أل سي. بي. أس (CBS) وال أ. بي. سي. (ABC) التليفزيونيتين ومراجع =

مشكلة إدمان الخمور:

يبدو أن مشكلة إدمان الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية أم المشاكل الاجتماعية. فكثير من مشاكل المجتمع الأمريكي الأخرى ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بإدمان الخمور على وجه الخصوص. فقد ورد في عدة كتب ومصادر إعلامية وصحفية ومراجع منتشرة من بينها كتاب «مشاكل إجتماعية» لأميتاي إتزيوني والصادر عام ١٩٧٦ (مرجع رقم٥) أن مجرد تعاطي الخمور وراء الكثير من مشاكل المجتمع الأمريكي. فحوالي ٤٠٪ من وفيات الحركة يمكن أن تعزى للخمر كما تورد سجلات البوليس الأمريكي أن هناك ثلاثة وثلاثة من عشرة (٣,٣) مليون شخص قبض عليهم البوليس الأمريكي في جرائم مختلفة عام ١٩٧١ وكانوا في حالة سكر. وقد ورد عن إحصائيات وزارة الصحة والتعليم والرخاء الأمريكية (Dept. of health, Education and welfare) أن عنصر الخمر يدخل في ٦٤٪ من جرائم القتل، و٤١٪ من المشاجرات و٤٣٪ من جرائم الاغتصاب بالقوة و٢٩٪ من جرائم الجنس الأخرى. وهناك نسبة عالية من جرائم الانتحار ترتكب إما تحت تأثير الخمر أو بواسطة أشخاص مدمنين للخمر. تشير الاحصائيات أيضاً إلى أن ٤١٪ من زيجات مدمني الخمور تعتبر غير ثابتة كما إن انفصال الزوجين في المنزل قابل لأن يخلق أبناء مضطربين نفسياً وربما يؤدي بهؤلاء الأطفال أنفسهم إلى إدمان الخمور. أما الأطفال الذين يولدون لأمهات مدمنات بالمقارنة مع الأطفال الآخرين فهم أقل صحة وأقل تكاملاً، ويبدأون حياتهم بالمتاعب. مدمنو الخمور وشاربو الخمور بكثرة معرضون للاصابات في الكبد والقلب، وبالاصابة بالسرطان وبأمراض قاتلة أخرى (راجع كتاب إتزيوني صفحة٧٣). ويشير إتزيوني بالذات قائلاً «بالرغم من أننا على علم بالمشاكل المرتبطة بالاستخدام غير المعقول للخمر فنحن نفتقد الحقائق الأساسية التي تجعلنا نبني تدخلاً إيجابياً

= المحاضرات الجامعية والنقاشات مع الطلاب وأفراد المجتمع الأمريكي الآخرين وقراءاتي الخاصة لمؤلفين وكتاب في مجال العلوم الاجتماعية.

لمحاربة هذه المشكلة». وقد أورد الكاتب مثالاً لذلك أن الاحصائيات عن مدمني الخمور في الولايات المتحدة نفسها تتضارب. ففي عام ١٩٧٢ أصدر إتحاد المستهلكين بالولايات المتحدة تقريراً يقدر فيه أن هناك خمسة ملايين مدمن للخمر في الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا الرقم ورد كما هو في إحصائيات وزارة الصحة والتعليم والرخاء (HEW)، في نفس ذلك العام. لكن في العام الذي سبقه وهو عام ١٩٧١ ورد تقرير عن وزارة الصحة والتعليم والرخاء في ذلك العام يشير إلى أن مدمني الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية يقدر عددهم بعشرة ملايين شخص. وفي كتب أخرى ورد تقرير يشير إلى أن عدد مدمني الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية هو ما بين ٦إلى١٢ مليون شخص. وتشير عدة مصادر إلى أن تضارب هذه الأرقام يرجع إلى صعوبة تحديد الرقم الحقيقي لمدمني الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية. فمن الصعوبة على الأطباء تحديد المدمن للخمر إلا بعد أن يتصل ذلك المدمن بالطبيب لعلاج مرض آخر. ويمكن للطبيب أن يعالج أمراضاً كثيرة أخرى دون نسبتها بالتحديد لادمان الخمور. وعلى كل، فيقدر الكثيرون أن الرقم الحقيقي لمدمني الخمور بالولايات المتحدة الأمريكية هو ما بين ٥-١٢ مليون مدمن (وهذا الرقم يشير إلى المدمنين ولا يضم المتعاطين للخمور بالقليل أو بالكثير). هناك نظريات مختلفة تعالج مسألة الادمان للخمور. فهناك من يعتبره مرضاً في حاجة للعلاج وهناك من يعتبره إنحرافاً في السلوك. وهناك دراسات مكثفة في الولايات المتحدة الأمريكية تهدف إلى علاج إدمان الخمور.

مشكلة تزايد الجرائم:

بالنسبة للجرائم في المجتمع الأمريكي فقد ورد في عدة مصادر صحفية وإعلامية أخرى أن موجة من الاجرام قد بدأت تجتاح الولايات المتحدة الأمريكية في السنين الأخيرة. وقد أشارت بعض هذه المصادر إلى رسالة كان قد بعث بها الرئيس الأمريكي السابق جيرالد فورد في تاريخ مضى إلى أعضاء الكونغرس الأمريكى قائلاً: «إن أمريكا لا تزال بعيدة

كل البعد عن النجاح في معالجة نوع الجريمة الذي يشغل بال الأمريكيين ليل نهار-وأقصد بذلك جرائم الشوارع والطرقات والتي تمتد لتشمل الأحياء والمنازل، جرائم القتل، السرقات، الأغتصاب، الاحتيال، النهب، الكسر المنزلي ومثل هذا النوع من العنف القاسي الذي يجعلنا نرهب الغرباء ونحجم عن الخروج من منازلنا في المساء». وقد أكدت بعض هذه المصادر عبارة أن أمريكا بعيدة كل البعد عن النجاح في محاربة الجريمة وذلك بتسجيل كثير من أحداث الجرائم التي تدور في المجتمع الأمريكي. فقد ورد كمثال ونقلاً عن سجلات البوليس الأمريكي إلى أنه وفي ظرف إثنين وسبعين ساعة حدثت جريمة قتل راح ضحيتها أحد عشر شخصاً في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا، ستة منهم قتلوا بالرصاص. وقد أوردت عدة مصادر صحفية وإعلامية نقلاً عن سجلات البوليس الفيدرالي الأمريكي أرقاماً عن الجرائم التي تحدث في المجتمع الأمريكي توضح أن مشكلة الجريمة في أمريكا قد أصبحت مشكلة إجتماعية غير خافية. فمنذ عام ١٩٦١ إرتفعت نسبة الجرائم الكبيرة بما يعادل الضعف. من عام ١٩٧٣ وحتى عام ١٩٧٤ إرتفعت نسبة هذه الجرائم بمعدل ١٧٪ وهي أكبر زيادة خلال الأربعة والأربعين عاماً الماضية والتي ظلت تجمع فيها الاحصائيات عن الجرائم. الجرائم التي صاحبها العنف إرتفعت بمعدل أكثر. ففي خلال الأربعة عشر سنة الماضية إرتفعت نسبة جرائم النهب بنسبة ٢٥٥٪، الاغتصاب بنسبة ١٥٣٪ والقتل بنسبة ١٠٦٪. وتشير التقارير الواردة إلى رئاسة البوليس الفيدرالي إلى أن نسبة الجرائم لا تزال في ارتفاع حاد خاصة جرائم الاقتحام الليلي للمنازل بغرض السرقات.

تضيف هذه المصادر إلى أنه رغم أن النسبة المرتفعة للجرائم موجودة بالمدن لكن ارتفعت النسبة في الضواحي أيضاً بنسبة ٢٠٪ وفي الأرياف بنسبة ٢١٪، كما أن هذه الأرقام في ازدياد مستمر. وقد أورد بوليس مدينة نيويورك أن هناك ١٥٥٤ شخصاً راحوا ضحايا لجرائم القتل في هذه المدينة في عام ١٩٧٤. ومن هذه النسبة ٣٤٪ من الضحايا لا يعرفون قاتليهم

معرفة شخصية. وقد أشير إلى كثرة جرائم العنف التي تحدث وأنّ ٦٥٪ منها ترتكب ضد أغراب (لا يعرفون بعضهم البعض). في عام ١٩٧٤ تم تسجيل عشرة مليون جريمة في سجلات البوليس الأمريكي ولم يتمكن البوليس الأمريكي من اكتشاف سوى ٢٠٪ منها (راجع على سبيل المثال مجلة التايم الأمريكية الصادرة بتاريخ ٣٠يونيو ١٩٧٥-صفحة١٠).

أوردت هذه المصادر أيضاً إحصائيات عن أعمار مرتكبي هذه الجرائم ومعظمهم من الشباب وأشارت إلى أن غالبية مرتكبي هذا النوع من الجرائم هم من الأمريكيين السود. وقد ذكر أيضاً أن مرتكبي هذه الجرائم معظمهم من الذكور كما أن نسبة ليست قليلة من النساء تشاركهم وهي نسبة في ارتفاع مستمر. وقد تطرقت بعض هذه المصادر إلى تفاصيل مثل هذه الجرائم في المناطق والولايات المختلفة في أمريكا وأوردت إحصائيات مخيفة عنها. هذا، كما تطرقت في إسهاب إلى عوامل الجرائم في أمريكا وعزتها إلى عدة أسباب منها أن التقدم الاقتصادي السريع يولد الجرائم كما أن هناك نسبة عالية من الشباب الأمريكي السود (٤٠٪ منهم) عاطلون عن العمل. وقد طرحت هذه المصادر عدة مقترحات لعلاج الجرائم المتزايدة في المجتمع الأمريكي.

وفي سياق حديثي عن الجرائم في الولايات المتحدة أرجو أن أشير لجرائم الاغتصاب بصفة خاصة وهي مرتبطة في تقديري لحد كبير بالانحلال النسبي للمجتمع الأمريكي وتعرى بيئته والناتجة عن إهمال وركل لتعاليم الأديان. فقد استعرضت مصادر مختلفة من بينها كتاب «الاغتصاب» لجوون كسيدا وجوزيف كسيدا (مرجع رقم٢) هذه المشكلة بمجموعة من الدراسات التي تتعلق بالاغتصاب أجريت بواسطة عدة بروفسيرات وباحثين في مجال جريمة الاغتصاب. وقد أشارت معظم المصادر إلى أن كل الاحصائيات توضح أن مشكلة الاغتصاب في الولايات المتحدة الأمريكية في ازدياد بصورة تنذر بالخطر. وقد تعرضت هذه المصادر

إلى أمثلة إغتصاب عديدة في مختلف الولايات بأمريكا توضح أن ضحايا جرائم الاغتصاب فيهن الطفلات دون العاشرة وربما في سن الخامسة كما أن فيهن نساء في سن الثلاث والثمانين سنة ناهيك عن الفتيات ما بين العاشرة والعشرين. وقد أشارت هذه المصادر إلى أن مكتب البوليس الفيدرالي الأمريكي قد أصدر في تقريره عن الجرائم المنتظمة لعام ١٩٧٢ أن هناك تسعة وأربعين ألفاً وأربعمائة وثلاثين (٤٩٤٣٠) جريمة إغتصاب بالقوة حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك العام (راجع كتاب الاغتصاب صفحة١٦). وقد أشار كتاب الاغتصاب إلى أن هناك منظمات أخرى أصدرت إحصائيات عن جرائم الاغتصاب في المجتمع الأمريكي تفوق في تقديراتها النسب التي أعلنها مكتب البوليس الفيدرالي الأمريكي.
وللتدليل على الأرتفاع المستمر لجرائم الاغتصاب في الولايات المتحدة الأمريكية فقد أوضحت بعض هذه المصادر أن تقارير مكتب البوليس في مدينة لوس أنجلوس بولاية كالفورنيا أشارت إلى أن عدد جرائم الاغتصاب في هذه المدينة عام ١٩٧٠ قد بلغ ١٩٨٨ جريمة حيث ارتفع هذا العدد في عام ١٩٧١ ليصل إلى ٢٠٦٢ جريمة وليرتفع مرة أخرى عام ١٩٧٢ ليصل إلى ٢٢٠٥ جريمة. ورغم هذه الأرقام المرتفعة من جرائم الاغتصاب فقد أشير إلى أن الأرقام الحقيقية لجرائم الاغتصاب في الولايات المتحدة الأمريكية هي في الواقع أضعاف هذه الأرقام المسجلة لأن كل جريمة إغتصاب تسجل في دفاتر البوليس يعادلها ٣-١٠ جرائم إغتصاب غير مسجلة ربما كنوع من السترة. وهناك تفسيرات نفسية عن الحالات المختلفة لجرائم الاغتصاب قسم فيها مجرمو الاغتصاب في الولايات المتحدة إلى قسمين: القسم الأول يقع تحت باب المغتصِب النفسي وهو شخص ذكي لحد ما وقد ينتمي إلى أسرة غنية ويتسم بتعليم غزير لحد ما وهو يعاني من حرمان جنسي ويشعر بذنب كبير بعد ارتكابه جريمة الاغتصاب، وهذا النوع في العادة رجل أبيض. أما القسم الثاني فيقع تحت باب المغتصب المجرم وهو في العادة من الأمريكيين السود وينحدر من أحياء السود الفقيرة

(Ghettos) وهو غير متعلم أو ذو تعليم قليل جداً وهو يعاني من حرمان جنسي ولا يرى خطأ في اغتصاب امرأة. وهذا النوع من المجرمين حينما يدخل السجن يعتبر في أوساط المساجين بطلاً كبيراً إلا إذا إغتصب طفلاً.

مشكلة إدمان العقاقير:

أما بالنسبة لمشكلة إدمان العقاقير والمخدرات في الولايات المتحدة الأمريكية فهناك عدة مصادر تطرقت لهذه المشكلة من بينها كتاب «المدمن» للكاتب دان ويكفيلد (مرجع رقم٣٤) وهو كتاب يتكون من عدة مقالات كتبت بواسطة مجموعة من البروفسيرات وعلماء النفس والاجتماع الأمريكيين. يشير هذا الكتاب كما تشير مراجع أخرى إلى أن مشكلة إدمان العقاقير والمخدرات في أمريكا حظيت باهتمام خاص لدى المجتمع الأمريكي رغم أن هناك مشاكل إجتماعية أخرى أكثر انتشاراً من إدمان العقاقير والمخدرات. فهناك إدمان الخمور والذي يولد عنفاً أكثر وهناك أمراض تناسلية يمكن أن توصف بأنها مرعبة كما أن حوادث الحركة تؤدي إلى وفيات أكثر بجانب أنها تؤدي إلى التشويه الجسماني ومسألة الاجهاض منتشرة بكثرة في المجتمع الأمريكي. يشير الكتاب إلى أن كل هذه المشاكل الاجتماعية قد حظيت باهتمام من قبل الرأي العام الأمريكي لكنها لم ترق لدرجة الاهتمام الذي لقيه إدمان العقاقير والمخدرات.

يشير كتاب «المدمن» كما تشير مصادر أخرى مختلفة إلى أن كل الدراسات التي أجريت في مجال إدمان العقاقير والمخدرات تشير إلى أن المشكلة في تزايد كبير في الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية. فهناك تقرير لمجلس النواب الأمريكي (Senate) يشير إلى أن كميات العقاقير غير القانونية الواردة إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد تضاعفت ثلاث مرات خلال السنين ١٩٤٥-١٩٥٥. وخلال هذه الفترة تضاعف أيضاً الاهتمام بمشكلة إدمان العقاقير من قبل الصحافة الأمريكية والكونغرس الأمريكي والدراسات التي أجريت فيها. وقد أشارت عدة

مصادر إلى أسماء العقاقير والمخدرات غير القانونية التي تستخدم وأهمها الهيروين والمورفين. ويوضح كتاب «المدمن» بالذات أن مدمني العقاقير لا يميلون مطلقاً إلى ارتكاب جرائم العنف والجنس بل ينحصر همهم في الابتعاد عن هذا العالم والعيش في عالمهم الخاص والذي يهيئه لهم إستخدام هذه العقاقير والمخدرات*.

ورد في بعض هذه المصادر أنه وفي عام ١٩٥٥، أشار تقرير لمجلس النواب الأمريكي إلى «أن الولايات المتحدة الأمريكية لديها من مدمني العقاقير في كل الأعداد المجملة وبنسبة تعداد السكان أكثر من أي دولة أخرى في العالم الغربي». وقد برز رأي وجد قبولاً واسعاً لدى المجتمع الأمريكي بالتفكير في علاج مشكلة إدمان العقاقير والمخدرات بطريقة تختلف عن الطريقة التقليدية والتي كانت تعامل المدمن على أساس أنه مجرم خاصة وقد ثبت أن التهديد والسجن والزجر لا يحدّ من إنتشار هذه المشكلة. وحسب تعليق محافظ مدينة نيويورك السابق روبرت ف. واقنر في خطاب ألقاه عام ١٩٦٢ بأن خطورة إدمان العقاقير والمخدرات تكمن أيضاً في أن المدمن يحتاج إلى ١٠٠-٢٠٠ دولار في الاسبوع ليستطيع تناول العقاقير. وإذا لم يجد هذا المبلغ إتجه نحو الدعارة، السرقة أو المتاجرة في العقاقيربنفسه. وفيما يتعلق بالأعباء المادية المجملة لمستخدمي العقاقيروالمخدرات فقد ورد أن تقديرات الادمان في مدينة نيويورك توضح أن المدمن المتوسط هناك يحتاج إلى عشرة ألف (١٠ ٠٠٠) دولار سنوياً ليمارس تناوله لهذه العقاقير. وإذا لم يجد هذا المبلغ إتجه إلى السرقة حيث يحتاج إلى خمسين ألف (٥٠ ٠٠٠) دولار في شكل بضائع وحاجيات مسروقة. وتقدر بعض المراجع بأنه إذا استخدم خمسة وعشرون ألف (٢٥ ٠٠٠) مدمن في مدينة

(*) يشير الدكتور رولو ماي العالم النفسي والمحاضر بجامعة هارفارد في كتابه «القوة والبراءة» (مرجع رقم١٨ صفحة٣٢) أن إدمان العقاقير في حد ذاته نوع من العنف حيث أن الفرد أولاً يرتكب جرماً ضد عقله شخصياً باستخدامها وهو غرضها الأساسي. ويأتي بعد ذلك الجرائم الصغيرة والكبيرة التي يدخل فيها المدمنون.

نيويورك أسلوب السرقة ليمارسوا هوايتهم هذه، أدى ذلك إلى سرقة ما يقدر بأكثر من بليون دولار في السنة. ولو استخدم نصف هذا العدد السرقة لا تزال الجملة هي ستمائة وخمسة وعشرون مليون دولار سنوياً. ويلاحظ أن التقديرات لمدمني العقاقير بمدينة نيويورك تفوق خمسة وعشرين ألف مدمن.

تطرقت هذه المصادر إلى مسألة إحصائيات الإدمان والمدمنين للعقاقير في أمريكا وخلصت إلى عدم وجود إحصائيات يعتمد عليها نسبة لأن المدمنين يحصلون على سلعتهم بطرق غير قانونية - حسب تقرير لجنة كونت بواسطة البيت الأبيض الأمريكي لدراسة مشكلة إدمان العقاقير. وقد خلصت تلك اللجنة إلى أن هناك تضارباً في الأرقام التي توردها وكالات الدولة على المستوى الفيدرالي ومستوى الولاية والمستوى المحلي (المدن). وتضيف هذه المصادر إلى أنَّ ما يثير الشك هو أن الأرقام والإحصائيات عن إدمان العقاقير والمخدرات في الولايات المتحدة ظلت ثابتة لفترة. ففي عام ١٩٥٦ أشار تقرير لمكتب العقاقير الفيدرالي (Federal Narcotics Bureau) إلى أنه يوجد في الولايات المتحدة بالتقدير حوالي ستين ألف (٦٠٠٠٠) مدمن للعقاقير. وظهر هذا الرقم في تقديرات نفس المكتب عام ١٩٦٢ رغم أن الظواهر تشير إلى تزايد عدد المدمنين في أمريكا. ففي تقرير للمدعي العام بولاية كاليفورنيا لعدة سنين مضت أشير إلى أن هناك اثنين وخمسين ألف (٥٢٠٠٠) مدمن للعقاقير بولاية كاليفورنيا فقط. أما التقديرات بالنسبة لمدينة نيويورك فإنها تشير إلى أن عدد المدمنين للعقاقير بهذه المدينة فقط يتراوح ما بين خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) وخمسين ألف (٥٠٠٠٠) مدمن. وقد أبرز كتاب ويكفيلد أن تقديراً متحفظاً لبعض السلطات الأمريكية خلافاً عن مكتب العقاقير الفيدرالي يشير إلى أن عدد المدمنين للعقاقير والمخدرات حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية بصفة عامة يقارب المليون شخص إن لم يكن أكثر (راجع كتاب ويكفيلد، مرجع رقم ٢٤ صفحة ٣١). وقد أشارت مصادر أخرى كثيرة إلى أهمية الوصول

إلى إحصائيات يعتمد عليها حتى يمكن للخبراء في هذا المجال وضع النظريات اللازمة لهذه المشكلة.

الأرقام الواردة أعلاه تم وضعها في مصادر كتبت في أوائل الستينات من بينها كتاب «المدمن» لدان ويكفيلد. لكن لنترك هذه الأرقام جانباً ولننظر إلى الأرقام بصورة مقربة أكثر حيث أفـردت مجلة النيوزويـك الأمريكية مقالاً مطولاً في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٧٧ عن مشكلة الكوكايين (Cocaine) في الولايات المتحدة وهو أحد عقاقير الإدمان غير القانـونية مثله مثـل الهيروين والمـورفين. وقـد كان عنـوان المقال «الكوكايين خرج عن قبضة الضبط».

بدأت المجلة مقالها بأن الكوكايين غالٍ وغير مصرح به قانـونياً ولو استعمل إستعمالاً غير معقول قد يشكل خطورة قاتلة. ورغم ذلك فيقدر عدد الذين جربوا إستعمال الكوكايين في الولايات المتحدة الأمريكية - حسب تقدير المجلة - بأربعة وثمانية من عشرة (٤,٨) مليون شخص أي حوالي خمسة مليون شخص. وتقدر الأموال التي تستخدم في تجارة الكوكايين بما يعادل واحد بليون دولار سنوياً على الأقل. وقد وردت عدة تحقيقات صحفية وتلفزيونية أهمها ما كان قد ورد في إستطلاعات أجرتها شركتي أل سي. بي. أس. (CBS) وأل أ. ب. سي. (ABC) التلفزيونيتين حيث وضح أن الأمريكيين يطلقون أسماء مختلفة لإخفاء الكوكايين مثل الجليد (Snow) والفتاة البيضاء (White Girl) وكوكا كولا (Coke) وغيرها. وعقار الكوكايين كما أشير يكلف ما بين ١٢٠٠-٢٥٠٠ دولار للأوقية الواحدة بسعر الشارع حسب صفائه. واليوم تجري عمليات تهريب واسعة لعقار الكوكايين داخل الولايات المتحدة أكثر من أي وقت مضى. ويقدر البوليس الأمريكي الكميات التي تضبط من عقار الكوكايين غير القانوني بحـوالي ١٠٪ من الكميات الأسـاسية التي تهـرب للولايـات المتحـدة الأمريكية.

هناك بنود صارمة في القانون الأمريكي لحيازة عقار الكوكايين حيث يتعرض الشخص الذي يملك أوقيتين من الكوكايين إلى السجن مدى الحياة. ويضع المسؤولون في الولايات المتحدة الكوكايين في المرتبة الثالثة بالنسبة لعقاقير الإدمان غير القانونية. والأولى هي عقاقير الهيروين والأمفيتامينز (Heroin and Amphetamines). والثانية هي عقاقير الباربيتوراتس والهلوسة (Barbiturates and Hallucinagens). ثم يأتي في المرتبة الثالثة عقار الكوكايين. والكوكايين كما أشارت عدة مصادر إلى أنه يعتبر أقل خطورة على الصحة من عقاقير المرتبة الأولى والثانية وربما لا يسبب أضراراً عقلية وجسمانية كما تسببها تلك العقاقير. وهناك أبحاث تشير إلى أن الكوكايين ربما يكون أقل ضرراً من الخمور وتدخين التبغ. ويختلف مستعملوا الكوكايين في الولايات المتحدة فمنهم رجال الأعمال ومنهم الطلاب والمغنون وغيرهم. وقد بدأ كثير من الأمريكيين اليوم إستعمال الكوكايين كشيء طبيعي في حفلاتهم ولقاءاتهم. فهو يستعمل في عدة أشكال حيث يمكن تذويبه في الماء أو الخمور وشربه أو حرقه وشم الدخان أو إستعماله كما يستعمل عقار الهيروين وهو حقنة في العضل أو شرايين الجسم. وفي الغالب يستعمل الكوكايين عن طريق الإستنشاق. وقد أشارت عدة مصادر إلى أن بدرة الكوكايين تستخرج من ألياف نبات الكاكاو والذي يزرع في أمريكا الجنوبية.

أوضحت كثير من الإستطلاعات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية إلى أنه ومع إزدياد نسبة المستعملين لعقار الكوكايين بدأ الناس يعتبرون أن القوانين الخاصة بعقوبات حيازة الكوكايين هي في الواقع قاسية أكثر مما يجب كما أن الكثيرين يتطلعون الآن إلى اليوم الذي يمكن أن يتناول فيه الشخص في أمريكا هذا العقار بطريقة علنية. وقد بدأت فعلاً بعض الإعتبارات لذلك حيث نظر مجلس النواب لولاية ماساشوسيتس في مسألة تقليل العقوبة على حيازة الكوكايين وقد صدرت بالفعل قوانين لتقليلها. أشارت بعض المصادر إلى أن هناك إحتمالاً ضئيلاً جداً أن يصدر قانون من

الحكومة الأمريكية الفيدرالية في المستقبل القريب يراجع فيه القانون القديم. لكن من المؤكد أن كمية المستعملين لعقار الكوكايين ستبدأ في الإزدياد خلال الأشهر القادمة وستصل لقمة جديدة - وذلك ما أشارت إليه مجلة النيوزويك الأمريكية الصادرة في مايو عام ١٩٧٧. وفي الواقع لم يمض شهر على نشر ذلك المقال حتى سمعت في نشرة الأخبار التلفزيونية في أحد الأيام أن التقديرات لمستعملي الكوكايين في الولايات المتحدة الأمريكية تقارب الثمانية مليون شخص*.

وكما أشرت من قبل للتجمعات الضخمة التي أقيمت للمطالبة بتقنين تعاطي حشيش الماريقوانا في الولايات المتحدة فإنني لا أستبعد مطلقاً أن يأتي اليوم الذي يخرج فيه مدمنو العقاقير في الولايات المتحدة في مظاهرات ضخمة تطالب بتقنينها وإعتبارها مسألة عادية يبتاعها الإنسان من الأسواق ضمن حاجياته. وفي الواقع لم أندهش كثيراً حينما سمعت في يوم الخميس ١٩/٥/١٩٧٧ وفي إذاعة (دبليو. تي. إس. أو. WTSO) بماديسون خبراً مفاده أن إحدى جامعات ولاية كونيتيكت (Connecticut) ستقدم كورساً عن زراعة حشيش الماريقوانا بالجامعة في الصيف الدراسي لعام ١٩٧٧. وأفاد الخبر أن عدداً قليلاً من الطلبة قد تسجلوا لهذا الكورس ولهذا فربما يلغى. وأعتقد أن ولاية كونيتيكت كانت أمينة في عرض هذا الكورس لتدريسه بالجامعات حيث الشاهد أن كمية كبيرة من الشباب الأمريكي يدخنون الماريقوانا ويعشقونها. وقد يصادف أن تجد كثيراً من الشباب الأمريكي لا يدخنون التبغ العادي أصلاً لكنهم يدخنون حشيش الماريقوانا. وقد ورد في النشرة الإخبارية التليفزيونية لشركة أل سي. بي. إس. (CBS) الأمريكية

(*) ظهر حالياً في الولايات المتحدة عقار غير قانوني بدأ ينتشر في أوساط بعض الشباب الأمريكي ويسمى «غبار الملاك Angel Dust». وتشير الأوساط الأمريكية الرسمية أن هذا العقار يمكن تركيبه داخل الولايات المتحدة الأمريكية وهو يستعمل في عدة أشكال مثل إستنشاقه أو خلطه مع حشيش الماريقوانا وتدخينه. ويعتبر هذا العقار خطيراً للغاية إذ يتسبب في هلوسة وتشنج لمن يفرطون في إستعماله. وقد شاهدت في نشرات الأخبار التلفزيونية آثار ذلك العقار في بعض الشباب الأمريكي وكانت مشاهد تثير الرثاء حقاً.

يوم الثلاثاء ١٩٧٨/٤/٤ وعلى القناة رقم ٣ أن هناك خمسة عشر مليون شخص يدخنون حشيش الماريقوانا بإنتظام في الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك مجلات متخصصة في الولايات المتحدة في شؤون الحشيش والعقاقير المخدرة مثل مجلة (الهاي تايمز High Times) الشهرية والتي تصدرها (ترانزهاي كوربوريشن Trans-high Corporation) في نيويورك. وهي مجلة تعالج شؤون مدمني الحشيش والمخدرات بإسداء النصح عن أنواع الحشيش الجيدة ونصائح أخرى فيما يختص بزراعة الحشيش والعناية به وكيف تصل لقمة الإمتاع في عالم الحشيش. ولعل تفسيري لعدم تسجيل عدد كبير من الطلاب لهذا الكورس في إحدى جامعات ولاية كونيتيكت لا يعود إلى ترك الشباب الأمريكي لتدخين الماريقوانا، فأعدادهم في إزدياد. وإنما لخشية ظهور مثل هذا الكورس في تفاصيل الشهادات الجامعية مما قد يؤثر في عملية الإستيعاب بعد التخرج. وعلى كل فقد أصدرت الحكومة الأمريكية الفيدرالية في أغسطس عام ١٩٧٧ قراراً يبيح حيازة أوقية أو أقل من حشيش الماريقوانا لمستعمليها. وقرار الحكومة الفيدرالية ذلك والذي وجه للولايات الأمريكية المختلفة لتنفيذه في إطار قوانينها المحلية ينطوي على قبول بأمر واقع لم يعد من السهولة ضبطه. فقد حدث في أوائل عام ١٩٧٨ أن أجريت في دولة المكسيك عمليات رش جوية بكيماويات مبيدة لمساحات كبيرة كانت مزروعة بطرق غير قانونية بنباتات حشيش الماريقوانا بهدف إبادتها. والمكسيك بحكم حدودها مع الولايات المتحدة الأمريكية هي إحدى الدول التي تجري فيها عمليات تهريب واسعة لحشيش الماريقوانا إلى داخل الولايات المتحدة. وقد تمكن بعض زارعي ذلك الحشيش من حصاد جزء كبير من ذلك المحصول قبل موته وقاموا بتهريبه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ظهرت فيها بعد أعراض لأمراض مزمنة في الرئة بالنسبة لبعض من إستعملوا ذلك الحشيش المسموم. ورضوخاً للأمر الواقع فقد أعلنت الحكومة الفيدرالية الأمريكية على أجهزة الإعلام المختلفة بأن معامل بحوث مختلفة تجري عمليات

لإختبار حشيش الماريقوانا للتأكد من خلوه من السموم وهي بذلك تنصح المستعملين له أن يرسلوا عينات مّما يمتلكون من حشيش الماريقوانا لإختباره لهم حتى يتفادوا مرضاً مزمناً في الرئة قد يهدم حياتهم. وقد وجد ذلك القرار قبولاً من أوساط الرأي العام الأمريكي فيما عدا القليل من الأصوات التي عارضته بإعتبار أن حشيش الماريقوانا غير قانوني ولا يصح للدولة أن تجري عليه تلك الإختبارات. ولا يستغرب الإنسان إذا سمع في يوم ما عن كورس يقدم في جامعة من جامعات كاليفورنيا عن فن وأصول ممارسة الشذوذ الجنسي تدعمه قوانين ولوائح الحكومة الفيدرالية الأمريكية.

مشكلة الطلاق:

وفي الطبعة الرابعة عام ١٩٦٦ لكتاب «الجنس والمرأة الطالق» والصادر أصلاً عام ١٩٦٤ للدكتور ل.ت وودوارد (مرجع رقم ٣٥) أشار الكاتب في الصفحة التاسعة إلى أن هذا العصر هو عصر الطلاق. فلم يحدث في الماضي أن إنفصل عدد كبير من الناس عن عدد كبير من الناس كما يحدث الآن. تنفصل كل يوم ولمدة سبعة أيام في الأسبوع أكثر من ألف زيجة أمريكية في المحاكم. وترتفع الآن ولأكثر من قرن نسبة الطلاق في المجتمع الأمريكي وتزداد بصورة حادة وذلك بالنسبة للعدد الكلي لحالات الطلاق وبالمقارنة لتعداد المجتمع.

تشير عدة مصادر صحفية وإعلامية أخرى من بينها كتاب وودوارد هذا إلى أن الطلاق أصبح في أمريكا أسهل وسيلة للتخلص من أوضاع الحياة الصعبة. وقد أصبحت مسألة إذابة الحياة الزوجية أسهل من الاحتفاظ بها. وقد تعرضت هذه المصادر لطرق الطلاق في الماضي مشيرة إلى أن عملية الطلاق قديماً لم تكن تحتاج لأكثر من أن يخطر الزوج زوجته بأنها طالق، لكنها اليوم أصبحت معقدة لحد ما وتتطلب أسرع عملية طلاق في الولايات المتحدة اليوم عدة مئات من الدولارات كمصاريف رسمية إضافة إلى متطلبات أخرى كفترة الإستيطان في المنطقة والظهور في قاعات المحاكم وتعقيدات أخرى. ولولا هذه التعقيدات والمتاعب - كما

يقول وودوارد - لتخلص ملايين من الأمريكيين من زوجاتهم في الحال وبصورة قانونية ورسمية:

«I venture to say that millions of Americans Would shed their mates instantly if they could do so, on a legal and binding basis, without difficulty.»

(راجع كتاب وودوارد - مرجع رقم ٣٥ - صفحة ١٠).

تشير بعض المصادر إلى أنه ورغم الإنفصال النظري بين الكنيسة والدولة في أمريكا فإن قوانين الطلاق الأمريكية تنبع أساساً من الديانة المسيحية ونظرتها للطلاق كشر إجتماعي مخيف. وقد تعرض وودوارد لأرقام الزواج والطلاق كما وردت في إحصائيات وزارة الصحة والتعليم والرخاء (Department of HEW)، قسم خدمات الصحة العامة كما يلي:

الأرقام التقديرية للزيجات والطلاقات ونسبتها في كل ۱۰۰۰ نسمة*

السنة	عدد الزيجات	نسبة الزيجات في كل ۱۰۰۰ نسمة	عدد الطلاقات	نسبة الطلاقات في كل ۱۰۰۰ نسمة
۱۸۹۰	٥٧٠٠٠٠	۹	٣٣٤٦١	,٥
۱۹۰۰	٧٠٩٠٠٠	۹,۳	٥٥٧٥١	,٧
۱۹۱۰	٨٤٨٠٠٠	١٠,٣	٨٣٠٤٥	,٩
۱۹۲۰	١٢٧٤٤٧٦	۱۲	١٧٠٥٠٥	١,٦
۱۹۳۰	١١٢٦٨٥٦	٩,٢	١٩٥٩٦١	١,٦
١٩٤٠	١٥٩٥٨٧٩	١٢,١	٢٦٤٠٠٠	٢
١٩٤٥	١٦١٢٩٩٢	١٢,٢	٤٨٥٠٠٠	٣,٥
١٩٤٦	٢٢٩١٠٤٥	١٦,٤	٦١٠٠٠٠	٤,٣
١٩٤٧	١١٩١٨٧٨	١٣,٩	٤٨٣٠٠٠	٣,٤
١٩٥٠	١٦٦٧٢٣١	١١,١	٣٨٥١٤٤	٢,٦
١٩٦٠	١٥٢٧٠٠٠	٨,٥	٣٩٥٠٠٠	٢,٢
١٩٦١	١٥٤٧٠٠٠	٨,٥	٤٠١٠٠٠	٢,٢

(*) المصدر: كتاب «الجنس والمرأة الطالق» للكاتب ل.ت. وودوارد (مرجع رقم ٣٥ - صفحة ١٣).

يشير الكاتب إلى أن الجدول أعلاه يوضح أن عدد الزيجات في كل ۱۰۰۰ نسمة ظلت ثابتة عملياً خلال الفترة ١٨٩٠-١٩٦٠ وهي تتراوح ما بين ٨-١٠ زيجات في كل ۱۰۰۰ نسمة فيما عدا سنين الحروب وما بعد الحروب في الأعوام (١٩٢٠، ١٩٤٠-١٩٤٨) حيث إرتفعت عدد الزيجات مؤقتاً. أما نسبة الطلاق خلال هذه الفترة (١٨٩٠-١٩٦٠) فقد تضاعفت ثلاث مرات كما توضح الأرقام أعلاه. ففي عام ۱۸۹۰ كان هناك طلاق

واحد لكل ١٦ زيجة واليوم هناك طلاق واحد لكل ٤ زيجات. وارتفع عدد حالات الطلاق حتى وصل قمته عام ١٩٤٠ وظلت نسبته ثابتة نسبياً بعد ذلك. ومنذ عام ١٩٤٠ تراوحت نسبة الطلاقات بين كل ألف نسمة ما بين ٢,٢-٢,٥ فيما عد الأعوام ١٩٤٥، ١٩٤٦، ١٩٤٧ حيث أنتهت «الزيجات السريعة لفترة الحرب» بالطلاق. ويقدر الكاتب أن عدد الطلاقات في الولايات المتحدة الأمريكية سنوياً يقارب اليوم الأربعمائة ألف (٤٠٠٠٠٠)حالة طلاق(راجع كتاب وودوارد -مرجع رقم٣٥- صفحة ١٤).

وقد تعرض وودوارد كما تعرضت مصادر أخرى مختلفة لأعداد حالات الطلاق في الولايات الأمريكية المختلفة حيث وضح أن أكثر الولايات التي تحدث فيها حالات الطلاق هي ولايات كاليفورنيا، تكساس، إيلينوي، أوهايو وفلوريدا. كما أن أقل الولايات التي تحدث فيها حالات الطلاق هي فيرمونت، ألاسكا ونورث داكوتا. وقد أوضحت بعض المصادر مقارنة الطلاق في أمريكا مع بعض الدول الأخرى مشيرة خاصة إلى الدول الكاثوليكية مثل إسبانيا وإيطاليا حيث نسبة الطلاق فيها صفر تقريباً. وفي بريطانيا رغم أنها دولة غير كاثوليكية على طريقة روما تشير إحصائياتها عام ١٩٦٠ إلى أن نسبة الطلاق فيها ٥, في كل ١٠٠٠ نسمة وهي نسبة توازي نسبة الطلاق في كل ١٠٠٠ نسمة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٠. وفي كندا توضح الأرقام هناك أن عدد الطلاقات عام ١٩٦١ بلغت ٦٤٨٦ حالة بنسبة ٣٦ر في كل ١٠٠٠ نسمة. وقد عزى بعض الكتاب هذه الأرقام في كندا إلى قوانين الطلاق المتشددة فيها. أشار وودوارد خاصة في كتابه «الجنس والمرأة والطلاق» إلى أن هناك مليوناً وسبعمائة ألف وثمانية (١٧٠٨٠٠٠) إمرأة طالق في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣. وخلص إلى أن المستقبل يحمل زيادة كبيرة في عددية الطلاقات في الولايات المتحدة الأمريكية ونقصاً كبيراً في عددية الزيجات وتنبأ بأن تصبح عدد حالات الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية في غضون السنين القليلة القادمة نصف مليون حالة سنوياً.

خلال وجودي في أمريكا لاحظت عدداً من الزملاء الأمريكيين المتزوجيين في الجامعة في حالة إنفصال مع زوجاتهم وهي فكرة يمارسها الأزواج في أمريكا قبل الشروع في عملية الطلاق الرسمية حيث يعيش الزوج والزوجة بعيدين عن بعض لفترة يمارس كل واحد فيهما حياته كما يشاء. وبعد فترة الإنفصال يقرر الزوجان فيما إذا رغبا بإعادة حياتهما كزوجين مرة أخرى أو إكمال عملية الطلاق الرسمية. وبالتأكيد تنبع مشاكل متشعبة في حالة وجود أطفال لهما. وقد لفت نظري أيضاً في أمريكا ظاهرة البنت الصديقة (Girl Friend) كظاهرة مميزة للمجتمع الأمريكي والمجتمعات الغربية عامة حيث تعيش الفتاة الأمريكية مع صديق لها تختاره ويختارها بصفة توازي لحد ما حالة الزواج، وربما تتوج هذه الصداقة بالزواج الرسمي وربما تنتهي دون زواج. وفي أمريكا لا يغيب عن البصر مطلقاً منظر شاب أمريكي يمسك بيد صديقته الأمريكية غالباً وهما يعبران الطريق أو يسيران على جانبيه إذا كانا في حالة لقاء عادي. وهناك اللقاءات المشحونة بالعواطف والتي تثمر الإحتضان والتقبيل في الطرقات والمنتزهات والأماكن العامة الأخرى.

وظاهرة الولادات غير الشرعية الناتجة عن إباحية الجنس في أمريكا بدأت تطل بعنقها كظاهرة لمشكلة إجتماعية أخرى. فهناك تقدير ورد عن عدة أجهزة إعلامية (إذاعية وتليفزيونية) يشير إلى أن الولادات غير الشرعية في الولايات المتحدة تقارب اليوم المليون طفل سنوياً تصحبها مشاكل إجتماعية أخرى مرتبطة بها. وتعمل الأجهزة الرسمية الأمريكية المختلفة والمعنية بالعمل على رعاية هؤلاء الأطفال والإهتمام بهم حتى يصبحوا مواطنين أصحاء ومنتجين لبلدهم مستقبلاً. وتهتم الدوائر الأمريكية الرسمية بهذه المشكلة ويشار إليها خصيصاً بمشكلة «حمل الفتيات ما بين العاشرة والعشرين سنة Teenage Pregnancy» رغم أن الولادات غير الشرعية تضم الفتيات والنساء معاً*. وهناك حركة قوية جداً في أمريكا

(*) في لقاء تلفزيوني بثته شركتا ال سي. بي. إس وال أ. بي. سي التليفيزيونيتان على القناتين ـ

تقودها منظمات نسوية عريقة لتقنين عملية الإجهاض هناك وهي حالياً تعتبر غير قانونية إلا في حالتين: عندما تكون حياة الأم في خطر وفي حالة حدوث جريمة إغتصاب.

مشكلة الإنتحار:

أما فيما يختص بمشكلة الإنتحار في الولايات المتحدة الأمريكية فقد أشار وودوارد في كتابه «الجنس والمرأة الطالق» وفي صفحة ٨٧ أن عدد حالات الإنتحار الحقيقية ومحاولات الإنتحار أو الشروع فيه بين النساء الطالقات في الولايات المتحدة كثيرة بشكل لا يصدق. وقد تعرض الكاتب في هذه المناسبة لعدد حالات الإنتحار في الولايات المتحدة الأمريكية بصفة عامة حيث أورد إحصائيات عن عدد هذه الحالات في عام ١٩٦١ تبين أن هناك تسعة عشر ألف ومائة وسبعين (١٩١٧٠) حالة إنتحار سجلت رسمياً في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك العام، هذا مع افتراض أن هناك حالات إنتحار كثيرة سجلت على أنها حالات وفيات عادية لسبب أو لآخر. ويقدر الكاتب عدد حالات الإنتحار السنوية في الولايات المتحدة الأمريكية بخمسة وعشرين ألف حالة انتحار تقريباً.

«Assuming a great many suicides were reported as natural deaths for one reason or another, it is safe to say that about 25000 Americans died by their own hand each year.»

(راجع كتاب وودوارد - مرجع رقم ٣٥ - صفحة ٨٧). وحسب تفسير الكاتب هناك بالتقريب نصف دستة من الأشخاص يقتلون أنفسهم بأيديهم في كل مائة ألف (١٠٠٠٠٠) نسمة سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية. ويشير الكاتب إلى أن معظم حالات الإنتحار في الولايات

= ٣و٢٧ أعلن سكرتير الدولة الأمريكية للصحة والتعليم والرخاء مساء الأربعاء ١٩٧٨/٦/١٤ أن مشكلة حمل الفتيات ما بين العاشرة والعشرين سنة في أمريكا تقارب المليون حالة سنوياً وهي كما وصفها بلسانه من «أعقدوأهم» المشاكل التي تواجه المجتمع الأمريكي لما يرتبط بها من مشاكل إجتماعية أخرى.

المتحدة هي حالات رجالية. أما محاولات الشروع في الإنتحار فيشير الكاتب إلى عدم وجود إحصائيات عن هذه المحاولات ويعتقد أن معظمها محاولات نسائية وهي محاولات يقدرها بعدة مئات من الالآف كل سنة. ويضيف بأن النساء الطالقات لا شك يمثلن عدداً هائلاً من هذه المحاولات (راجع كتاب وودوارد صفحة ٨٨). وقد جرت في دولة غيانا بأمريكا الجنوبية وفي أواخر عام ١٩٧٨ عملية إنتحار جماعية بمدينة جونز تاون قام بها قطاع مسيحي من الأمريكيين وراح ضحيتها ما يزيد عن التسعمائة أمريكي أزهقوا أرواحهم بأنفسهم مخلفين وراءهم هلعاً وذهولاً غير محدودين في أوساط المجتمع الأمريكي.

رحلة لنيويورك

إنتهت فترة الربيع الدراسية في أواخر شهر مايوا عام ١٩٧٦ وبدأت فترة الصيف الدراسية في ٢١ يوليو ١٩٧٦. وفي هذه الفترة بدأت العمل بصورة جادة أكثر في بحثي الذي سأقدمه لنيل درجة الماجستير في التعليم الزراعي. ونسبة لحضور بعض أقاربي من السودان في زيارة قصيرة لمدينة نيويورك وقضاء بعض الأيام فيها، فقد قررت السفر إلى نيويورك للقائهم هناك خاصة وأن ظروفهم لم تكن لتسمح لهم بزيارتي في ماديسون. وفي يوم ١٩٧٦/٦/٢٠ إستقليت بص «القرى هاوند - Grey Hound» في تمام الساعة الثامنة صباحاً وكان بصحبتي أحد الاخوة السودانيين متجهين نحو مدينة نيويورك. كانت الرحلة طويلة وشاقة من مدينة ماديسون عبر ولاية إيلينوى حيث إستقلينا بصاً آخر في مدينة شيكاغو كان مهيئاً لأخذ الركاب إلى نيويورك. وحوالي الساعة الواحدة والنصف ظهراً بدأ البص رحلته متجهاً نحو نيويورك ماراً بولاية إنديانا ثم ولاية أوهايو حيث نزلنا لفترة راحة قصيرة بمدينة كليفلاند حوالي الساعة العاشرة مساءً. ومنها واصل البص رحلته عبر ولاية بنسلفانيا ومنها لولاية نيويورك. في الواقع أُعجبت جداً بالمناظر الجميلة والطبيعة الخضراء والوديان والجبال العالية التي تنزل منها المياه المتدفقة من كل الجوانب وذلك في ولاية بنسلفانيا وجزء من ولاية نيويورك. وفي الواقع ما شاهدته في ولاية بنسلفانيا من المناظر الطبيعية يوحي تماماً بأن الله سبحانه وتعالى قد حبا هذه البلاد بجمال الطبيعة وغزارة الثروات (مياه أمطار وأنهار وأراضٍ خصبة). وصلنا مدينة نيويورك في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي بعد قضاء ليلة كاملة في

البص الذي واصل سيره دون توقف. وقد كانت الرحلة غاية في الإرهاق أخذت بالتمام حوالي الأربعة والعشرين ساعة منذ مغادرتنا ماديسون. ومن موقف البص بمدينة نيويورك إتصلت تليفونياً بزوج إبنة عمي ويعمل في بعثة السودان بالامم المتحدة ووجهني الوجهة التي يمكن أن توصلنا لمنزله. وفعلاً إستقلينا تاكسياً أنا والأخ السوداني الآخر متجهين نحو المكان الذي وصف لنا. ولما كانت تلك هي المرة الثانية التي اشاهد فيها مدينة نيويورك فقد أصبحت السرعة الجنونية التي تسير بها العربات والقاطرات شيئاً طبيعياً بالنسبة لي. فالحركة في مدينة نيويورك سريعة للغاية والمدينة مزدحمة غاية الإزدحام، وقد لفت نظري كثرة الأجانب فيها. فمدينة نيويورك بها أعداد كبيرة من الآسيويين ومن بلدان الشرق الأوسط كما أن بها عدداً كبيراً من الأمريكيين السود. أما مبانيها فهي عالية للغاية ومبنية بنظم هندسية آية في الروعة والجمال.

قضينا عدة أيام في مدينة نيويورك كانت ممتعة للغاية زرنا فيها مبنى الامم المتحدة وإستقلينا باخرة سياحية أخذتنا في جولة حول جزيرة مانهاتن وهي الجزيرة الرئيسية في مدينة نيويورك. ومدينة نيويورك بها عدة جزر أخرى بالاضافة لمانهاتن مثل بروكلين وكوينز وبرونكس وستاتن وليبرتي. شاهدت أيضاً حي هارلم المشهور وهو المنطقة الرئيسية لسكن الأمريكيين السود هناك كما لم يصادفني في مدينة نيويورك على الإطلاق ما جعلني أشعر بأن هناك تفرقة عنصرية تمارس في هذه المدينة. فالناس كل مشغول بنفسه وكل شخص يجري في اتجاه. والمحلات التجارية والمطاعم ودور السينما تكتظ بأناس من مختلف الألوان والأشكال. ومتى ما دخلت متجراً أو مقهى تجد معاملة طيبة من أصحابه في أي شكل كنت أسود - أصفر - أحمر أو أبيض. الفترة التي عشتها في مدينة نيويورك جعلتني ألتقي ببعض الاخوة السودانيين العاملين في بعثة السودان بالامم المتحدة ويبدو أنهم فعلاً من الشباب العامل الموثوق به.

عدنا أنا والأخ السوداني بعد ذلك لمدينة ماديسون حيث واصلت جهودي في دراستي والتي إنقطعت لفترة اسبوع. وكان كل تركيزي وقتها منصباً على إكمال بحثي الذي قررت تقديمه للجنة مختارة من الأساتذة (ثلاثة بروفسيرات) مع نهاية فترة الصيف الدراسية. وقد تم إخطاري للجلوس للإمتحان التحريري لدرجة الماجستير في التعليم الزراعي في الخامس من اغسطس عام ١٩٧٦ أي بالتقريب بعد سنة وسبعة أشهر ونصف منذ حضوري للولايات المتحدة الأمريكية. وفي الاسبوع الثاني من اغسطس عام ١٩٧٦ أتممت دراستي في البحث الذي كنت أعمل فيه بعد جلوسي للامتحان التحريري لنيل الدرجة وقد أخطرت في منتصف اغسطس بنجاحي بنيل درجتي والتي أخذت مني ما يزيد عن السنة ونصف السنة لتحضيرها(*).

في هذه الفترة غادر صديقي بشري المنصوري غرفته الملاصقة لغرفتي في المبنى رقم ٤٥ بشارع أورشارد الشمالي ورحل إلى مباني الطلاب المتزوجين (بمرتفعات الصقر) بعد أن تم زواجه من إبنة عمه والتي وصلت إلى ماديسون من السودان. وبما أنني لم أكن أستسيغ المعاملة غير الكريمة التي كنا نلقاها من صاحب المبنى الذي نسكن فيه قررت الرحيل إلى مبنى آخر وسكنت في الطابق الثالث من عمارة تتكون من أربعة طوابق تسمى «الايسترادفورد هاوس – Stratford House» أو المبنى رقم ٤٣٣ بشارع جيلمان الغربي (433 West Gilman St.). وكانت غرفتي هي الغرفة رقم ٣١٥ في شقة تتكون من أربع غرف نوم والمنافع.

(*) نسبة لبعض التأخير في إجراءات تجليد رسالة البحث وتسليم نسخ منها للمكتبات في جامعة ويسكونسن – ماديسون فقد تسلمت شهادتي للماجستير رسمياً في ديسمبر عام ١٩٧٦.

قراءات تاريخية

في الشقة التي كنت أسكن فيها في عمارة (الإيسترادفورد) كان يشاركني السكن ثلاثة من الشبان الأمريكيين البيض لم أتشرف بمعرفتهم من قبل؛ كنا نستعمل جميعنا مطبخاً واحداً وغرفة إستحمام واحدة لكن لكل شخص غرفة نومه المنفصلة. وقد رحلت إلى ذلك المبنى بالتحديد في يوم ١٩٧٦/٨/٢٠. وللحق أقول رغم أن عبئاً أكاديمياً ثقيلاً قد نزل عن كاهلي بعد النجاح في الامتحان التحريري لدرجة الماجستير إلا أنني بدأت اعاني من قلق نفسي حاد لا أعرف بالتحديد مصدره. وكانت تنتابني لحظات من القلق أفضل فيها البقاء داخل غرفتي وحيداً ولا أرغب التحادث مع أي شخص. وكنت في بعض الأحايين أتجه إلى الساحة الشمالية لدار إتحاد الطلاب بجامعة ويسكونسن - ماديسون وأجلس مواجهاً بحيرة مندوتا أتأمل فيها لفترات طويلة. وكان يمر بي في تلك اللحظات بعض الأصدقاء الأمريكيين والأجانب ومنهم مَنْ كان يجلس معي ويبدأ الحديث في أي موضوع. وسرعان ما ينتابني الضيق وأستأذن عائداً إلى غرفتي. فلم تكن لدي أدنى رغبة في المحادثة مع أي شخص. وفي اليوم الثاني لرحيلي بمسكني الجديد جاءني أحد الشبان الأمريكيين وقال إنه يسكن في واحدة من الغرف وأن إسمه كلارنس شيسر. وأخطرني بأنه يحضر لدرجة الدكتوراة في اللغة الانجليزية. وقد إستقبلته وعرّفته بنفسي وبدأنا نتحدث عن مختلف المواضيع ومن بينها وطني. السودان وما هي مشاكله وما هو الدور الذي سأؤديه بعد العودة إليه. وقد طرح عليَّ ذلك الشاب آراء قيمة ومفيدة ذكر لي بأنها من وحي تجاربه في العمل كاستاذ في

المدارس الثانوية الأمريكية وخلال تجاربه في التحضير لدرجة الدكتوراة بجاسعة ويسكونسن - ماديسـون. وقد تحـادثنا لفتـرة قصيرة إستـأذن هو بعدها لأنه يحضّر لامتحان درجته.

كانت الجلسات التي تجمعني مع الاخوة السودانيين فيها الكثير من الترفيه خاصة حينما نجتمع في منزل أحد الاخوة في منطقـة الطلاب المتزوجين. لكنني كنت أشعر بالضيق ينتابني دوماً وافضل العودة إلى غرفتي أطالع الصحف أو أقرأ أحد الكتب. وقد قرأت خلال هذه الفترة كتاباً باللغة الانجليزية بعنوان «أسرى المهدي» للكاتب السـويسري بيـرون فيرويل (مرجع رقم ٦). وهذا الكتاب يحكي عن فترة الاعتقال التي قضاها ثلاثة من الاوروبيين معتقلين بواسطة الحركة المهدية في السودان وهم بالتحديـد سلاطـين باشـا النمسوي والأب أوهـروولدر المسيحي وشارلس نيوفلد التاجر الالماني. وللحق أقول لم أجد كتاباً يمعن في الاساءة والاهانة والسخرية من السودان مثل هذا الكتاب. وملخص هذا الكتاب - كما أراه - هو تبرير موقف سلاطين باشا بعد إستسلامه حينما كان مديراً لدارفور إبان قيام الحركة المهدية في السودان في أواخر القرن الماضي وخضوعه للمهدي وتبنيه للإسلام. وهذا الكتاب يحاول خلق التبريرات لسلاطين لذلك التصرف خاصة بعد النقد الذي وجهه له غردون باشا لذلك التصرف وربما يكون هناك آخرون قد وجهوا له نفس النقد. ولكي ما يجد الكاتب ما يبرر تصرفات سلاطين تلك حاول إيضاح أن السودان من السؤ بمكان في مناخه وفي تخلف سكانه بدرجة شنيعة تجعل أي انسان يتصرف التصرف الذي سلكه سلاطين. وقد أغفل الكاتب حقيقة أن سلاطين ليس بأي حال من الأحوال الجندي الذي يشرف بلاده خاصة إذا راعينا ما أبداه من ملق وتزلف وإنهيار تام في كبريائه ورجولته إبان فترة الاعتقال وذلك يظهر جلياً في مخاطبته للمهدي وللخليفة بكلمات يخجل الانسان من ترديدها كتبها هو نفسه في مذكراته «السيف والنار في السودان» مثل (سيدي) و(داير رضاك) وغيرها. ولقد صدق حقاً ويلغرد سكاوين

بلنت (Wilfred Scawen Blunt) أحد الغربيين المناوئين للإستعمار والمتحمسين للعرب حين كتب في مذاكرته بعد قراءته لكتاب «السيف والنار» لسلاطين ما يلي:

«سلاطين ماكر حقير في طبعه ذلك الكتاب. ولقد إرتكب المهدي خطأً بعدم قطع رأسه مباشرة بعد إستسلامه وإرساله فوراً للآخرة. فتظاهره بالولاء للخديوي ولملكتنا المحترمة يثير الغثيان، كما أن عدم ولائه لهؤلاء الناس الذين تبنىً دينهم لينقذ به حياته التعسة يثير الاشمئزاز». (راجع كتاب فيرويل - مرجع رقم ٩ صفحة ٣٢٣).

ولعل الكاتب بيرون فيرويل مثله مثل أي مدافع آخر عن الإستعمار وهم كثر في العالم الغربي حاول تبرير تدخل الانجليز في السودان بحجة أنهم يريدون رفع مستوى هذا البلد من درجة التخلف لدرجة قليلة من الحضارة وهي النغمة التي سمعتها حتى هنا في أمريكا وكأنما الانجليز هم أوصياء الله على الأرض. ولنا أن نتساءل بأي حق يجعل الانجليز من أنفسهم أوصياء على شعوب العالم؟ وبأي حق تسمح لهم أنفسهم بالتدخل في بلاد الآخرين؟ ومَنْ دعاهم لكي يجعلونا متحضرين؟ أو ليس تدخلهم في السودان وفي غير السودان هو مص لدماء أبنائه ونهب لثرواته؟ وهم بعد كل ذلك يحملوننا مسؤولية أننا فقراء متخلفون كأنما هم ليسوا سبب بلائنا وأمراضنا وتخلفنا وتخلف الكثير من شعوب العالم الثالث. ومَنْ يراوده الشك في دور المستعمرين في نهبنا فليقرأ كتاب السيف والنار في السودان لرودلف سلاطين (مرجع رقم ٣٠) وهو كتاب قرأته مباشرة بعد كتاب أسرى المهدي وقد وجدته في المكتبة الرئيسية لجامعة ويسكونسن - ماديسون ويحتوي على أكثر من ستمائة صفحة. ويبدو أنه قد كتب أصلاً باللغة الالمانية وترجمه ونجت باشا مدير المخابرات في الجيش المصري آنذاك إلى اللغة الانجليزية. وهذا الكتاب يحكي بتسلسل تاريخي الفترة التي قضاها سلاطين في السودان قبل وبعد إعتقاله بواسطة الحركة المهدية في

السودان ويوضح في صفحاته المغانم التي كان يجمعها من رق وذهب وعاج وثروة حيوانية وإرسالها إلى رؤسائه من الأتراك والغربيين في مصر حينما كان في المناصب القيادية في مديريات السودان. ولو كان هناك سرد تاريخي من أبناء السودان لهذه الفترة لظهرت العجائب فيما يتعلق باللصوصية التي كانت تمارس آنذاك(*). ولعل من أعجب الأشياء أن يتحدث سلاطين وفيرويل وغيرهم من المستعمرين عن تدخل الانجليز لايقاف تجارة الرقيق التي كانت تمارس في السودان. وللإنسان أن يتساءل إذا كانت هناك تجارة للرقيق من المسؤول عنها في تلك الفترة التي كانت إمتداداً لتاريخ سابق قد يصل للقرن الخامس أو السادس عشر حيث كان يتم شحن الرقيق بالملايين كالحيوانات للدول الغربية ولأمريكا بالذات حيث بصمات هذه التجارة لا تزال وحتى اليوم كأسوأ المعالم على وجه الأرض شاهدة على إنعدام الانسانية والضمير وقبل كل شيء على إنعدام الصدق وتزييف الحقيقة وهي صفات لا تشرف الغربيين المعاصرين على الاطلاق(*) (*). وأنا أضع هذه

(*) يشير الكاتب مارتن كارنوي في كتابه «التعليم كاستعمار بيئي» (مرجع رقم ١) إلى أمثلة عديدة لدور الاستعمار الاوروبي في إمتصاص ثروات دول العالم الثالث. وكمثال للصوصية الاستعمار فقد أسهب الكاتب بصفه خاصة في دور بريطانيا في إستغلال الهند إقتصادياً إبان سنين إستعمارها وحماية مؤسساتها الرأسمالية خاصة مؤسسات الغزل والنسيج بإصدار قوانين تجبر الهند على قبول مصنوعات الغزل البريطانية في تجارة حرة. وقد أوضح الكاتب أن الهند نتيجة لذلك ظلت مستغلة ومضغوطة من قبل بريطانيا خلال السنين الاولى المشرقة للرأسمالية البريطانية. وقد تعرّض الكاتب أيضاً للأساليب التي إستخدمها الانجليز في نهب ثروات الهند مما أدى لتدمير صناعتها وفقر أبنائها لمدة قرن. وفي جزء آخر تعرض الكاتب لاسلوب التعليم الذي إستخدمه الاستعمار كأداة لإحداث تغييرات في كثير من البلاد التي إحتلها مما أدى إلى إرتباطها إقتصادياً وبيئياً بالدول المستعمرة لم ينج منها إلا القليل حتى بعد الاستقلال السياسي.
وفي السودان كثيراً ما نسمع ونقرأ عن أهداف المستعمر التعليمية إبان فترة الاستعمار بتعليم فئة من السودانيين تخدم مصالحه الاقتصادية البحتة ولا ترمي من النواحي الأكاديمية لخلق فئة خلاقة تعمل لإحداث التغييرات في شتى نواحي البيئة السودانية. وقد كان الفشل حليفه رغم الضبط الأكاديمي الذي مارسه إذ صارت الفئة المتعلمة من السودانيين نواة للعمل على ركله خارج البلاد أولاً وقبل كل شيء.

(*) (*) يوضح كتاب «أبيض فوق أسود» للبروفسير وينثروب د. قوردان من جامعة كاليفورنيا (مرجع رقم ١٣) أن مسؤولية تجارة الرق في العالم تقع أولاً على البرتغاليين والاسبانيين وقد مارسها

الآراء آمـلاً أن تحث زملاءنـا السودانيـين الدارسـين في مجـال العلوم الاجتماعية، والتاريخ بالذات لمزيد من التصدي لمثل هذه الكتابات. فقد آن الأوان أن يسمع العالم رأينا فنحن لسنا في موضع الذلة والمهانة إنما أمة قد نمت. ومَنْ يدري فقد يأتي زمان تزدهر فيه الحضارة السودانية لتتربع على قمة الحضارة في هذا العالم. فالتاريخ لم يعرف حضارة واحدة سادت على وجه الأرض على الدوام. فقد ظهرت حضارات وإندثرت وأعقبتها أخرى. فحضارات الفراعنة والإغريق والرومانيين والبابليين والآشوريين والاوربيين بما فيهم المستعمرون الإنجليز كلها سادت لزمان واندثرت. وحضارة الانجليز بالذات كانت تتمثل في إمبراطورية لا تغرب عنهـا الشمس وقد غاب عنها اليوم كل شيء حتى الشمس. وبدأت تسود الآن الحضارة الأمريكية بكل تكنولوجيتها ووصولها للقمر والمريخ وغيره وسيأتي عليها الزمان لتندثر وتظهر غيرها. ومَنْ يدري فقد يأتي دورنا في يوم من الأيام.

مباشرة بعدهما الانجليز. وقد إستعرض الكاتب عدة أفكار باحثاً في الأسباب التي أدت بالانجليز إلى أن يستعبدوا بشراً مثلهم في الوقت الذي يدعون فيه الحرية والديمقراطية لأنفسهم. ويؤيد هذا القول الكاتب الانجليزي ي.د. موريل في كتابه «عبء الرجل الأسود» (مرجع رقم ٢١) حيث يشير إلى أن تجارة الرقيق في العالم بدأها أساساً البرتغاليون في منتصف القرن الخامس عشر وتبعهم فيها بفترة قليلة الاسبـانيون ثم الانجليـز عام ١٥٦٢ ثم الدنماركيون عام ١٦٢٠ والفرنسيون حوالي عام ١٦٤٠ ثم السويديون والبروسيون وأخذت حجمها المرعب في القرن الثامن عشر. أما الكاتب مارتن كارنوي فقد أشار في كتابه «التعليم كإستعمار بيئي» (مرجع رقم ١ صفحة ١١٣) إلى أن تجارة الرقيق بدأت بالرحلات الاستكشافية للبرتغاليين عام ١٤٤١ حيث احتكروا سوقها حتى نهاية القرن السادس عشر. وبعد ذلك نافستهم فيها عدة دول من بينها فرنسا والدنمارك وأخيراً مارسها تجار الرقيق الانجليز الذين سيطروا على هذه التجارة تماماً ولمدة ثلاثين عاماً ابتداء من عام ١٧١٢ مع معاهدة أتريشت حيث أصبحت بريطانيا في القرن الثامن عشر أشهر وأعظم دولة لتجارة الرقيق في العالم. وقد بدأت نهاية هذه التجارة مع بداية القرن التاسع عشر حيث أعلنت حكومة الدنمارك عدم قانونيتها عام ١٨٠٢ كما منعت الولايات المتحدة إستيراد الرق رسمياً عام ١٨٠٤ وتبعتهما بريطانيا عام ١٨٠٧ حيث أعلنت عدم قانونية حمل الرق في السفن البريطانية كما منعت فرنسا هذه التجارة عام ١٨١٥ (راجع كتاب كارنوي صفحة ١١٦).

مشاكل (الإيسترادفورد)

كما ذكرت سابقاً فقد كان يشاركني الشقة التي كنت أسكن فيها في الطابق الثالث من عمارة (الإيسترادفورد) بشارع جيلمان الغربي ثلاثة من الشبان الأمريكيين البيض هم كلارنس سيشر وإريك سامور وآندي جونز. وكان الأخير يسكن في الغرفة التي تلاصق غرفتي. ومن تحركاته وتصرفاته ومحادثاته التليفونية تحسست أن هذا الشاب يعمل في تجارة ما وكما عرفت فيما بعد تجارة حشيش الماريقوانا. فهو كما ذكر لي له إتصالات بمهربي الماريقوانا من كولومبيا بأمريكا الجنوبية ويعمل على توزيع تجارتهم لمستهلكين يعرفهم في ماديسون. وقد أوضح لي بأن هذه التجارة مربحة بصورة رهيبة وذلك ما جعله يعمل بها. فرطل الماريقوانا ويطلقون عليها (بوت – Pot) قد يساوي في كولومبيا عشرة دولارات لكنه يساوي أضعاف هذا المبلغ في ماديسون. من الغريب أن هذا الشاب يدرس في جامعة ويسكونسن – ماديسون في مجال العلوم الإجتماعية وهو في سنته النهائية لنيل الليسانس لكنه يقضي معظم وقته متاجراً في حشيش الماريقوانا أو مسترخياً في غرفته مع أحد أصدقائه يدخنونها.

وفي أحد الأيام وحوالي الساعة الخامسة صباحاً إستيقظت على صوت شخصين يجريان بشدة ويدخلان غرفة آندي ويقفلان الباب بصوت عال، وساد السكون لفترة قصيرة. بعد ذلك سمعت طرقاً عنيفاً على باب شقتنا الرئيسي وخرجت لأعرف مَنْ الطارق. فإذا بي أمام إثنين من رجال البوليس الأمريكي بملابسهما الرسمية يسألانني هل أسكن في هذه الشقة وحدي؟ فأخبرتهما بأن ثلاثة من الزملاء الأمريكيين يشاركونني السكن.

وسألاني هل كانت غرفتي مضاءة قبل فترة قليلة. فأخبرتهما بأنني كنت نائمًا منذ الساعة العاشرة مساءً ولم أستيقظ إلا على صوت طرقهما. ومن خلال لهجتي يبدو أنهما عرفا أنني أجنبي ولست أحد الأمريكيين السود مما جعلهما يحادثاني بمنتهى الرقة وطلبا أن يدخلا الشقة. وقد أذنت لهما وطرقا باب غرفة آندي طرقاً عنيفاً لكن لم يخرج أحد. وسألتهما ماذا حدث؟ فأخبراني بأن هناك إزعاجاً يجري في الحرم الجامعي ولم يشاءا أن يخبراني بتفصيل ما حدث. وفي الصباح جاءني آندي وسألني ماذا حدث بيني وبين البوليس خاصة وقد كان هو وأحد أصدقائه داخل الغرفة منبطحين على الأرض ولم يفتحا الباب. وقد أخبرت آندي بتفاصيل ما حدث ونصحته بأن يكون حذراً خاصة وهو يعمل في تجارة خطيرة للغاية. ولم تمض أيام بعد ذلك حتى طرق باب الشقة شخص آخر بملابس مدنية يبدو أنه من رجال البوليس الفيدرالي وبدأ يسألني عن آندي وأين يجده ومتى سيعود للشقة. وعند عودة آندي أخبرته بذلك وقد أخبرني بأن رجال البوليس يتعقبونه كما يبدو وقد آن الأوان لكي يرحل من غرفته إلى غرفة جديدة لا يعرفها البوليس وذلك ما فعله بعد أيام قليلة بعد أن سكن مجاوراً لي لفترة شهر وعدة أيام.

وفي منتصف سبتمبر عام ١٩٧٦ سكن في الغرفة المجاورة لي وهي غرفة آندي جونز سابقاً بعد إخلائها شاب أمريكي أبيض ويدعى ألان هاين. وفي اليوم الذي انضم فيه هذا الشاب لشقتنا حييته وعرّفته بنفسي. ومن خلال محادثتي معه تحسست أن ذلك الشاب غريب في تصرفاته ويتحدث بانوثة واضحة وتتسم تصرفاته بلين الفتيات. وقد دهشت جداً حينما أخبرني بأنه ذهب ذلك الصباح ليقابل حبيبه. وقد سألته ببراءة أين تسكن حبيبته هذه؟ فرد بأن حبيبه رجل وليس فتاة وهو كما ذكر لي (دون خجل) يمارس الشذوذ الجنسي أي هو (قاي - Gay) كما يطلقون هنا على الشاذين جنسياً ، وهو لا يعمل ولا ينتمي لأي مؤسسة تعليمية لكنه عاطل ويتقاضى منحة من الدولة تسمى منحة الرخاء (Welfare

(Allowance تعطى للعاطلين عن العمل تمكنه من العيش وشراء ضروريات الحياة.

وبعد فترة إجتمعت بالشابين الآخرين وعقدنا لقاءاً تحادثنا فيه عن هذا الشاب الجديد الذي انضم لشقتنا. ورغم أن كل واحد فينا يعيش في عالمه الخاص ولا نلتقي إلا نادراً وفي المساء أثناء تناولنا للوجبات بالمطبخ، فقد أبدينا اشمئزازاً تاماً بأن يكون أحد زملائنا في الشقة مثل ألان هاين. ولما كانت قوانين السكن الأمريكية لا تسمح بطرد شخص من الشقة دون أن يرتكب جرماً قانونياً فقد أجبرنا على قبوله. وبمرور الأيام سبب لنا ذلك الشاب منتهى التعب بتصرفاته. فقد كان يجلب أشخاصاً بين الفترة والأخرى للشقة يجالسونه لفترات طويلة يسمعون خلالها الأغاني ويتعاطون الخمور. وقد كان صوت الأغاني المنساب من جهاز الأغاني أو (الاستريو - Stereo) عالياً في بعض المرات لدرجة يستحيل معها الاستذكار ومواصلة الدراسة. وقد أخبرنا صاحب المبنى بتصرفات هذا الشاب ومن بينها أنه كان يستعمل المعدات التي تخصنا في المطبخ من أواني وكبابي وغيره دون غسلها وارجاعها في أماكنها. وأكثر من مرة نبهت ذلك الشاب بأن يتكرم بغسل الأواني التي تخصني إذا رغب في استعمالها كما ذكرت له أنه لا مانع لدي أن يستعملها لكن من الذوق أن يغسلها ويرجعها في مكانها. وتكررت شكواي وشكوى الآخرين لصاحب المبنى من تصرفات ذلك الشاب خاصة وقد بدأ في استعمال المعلبات التي تخصنا وخاصة معلباتي. فقد بدأت أفتقد كثيراً من الأشياء التي كنت أجلبها لطعامي والتي كنت أضعها في ثلاجة المطبخ. وقد كنت متأكداً تماماً بأنه مصدر إختفاء معلباتي من الثلاجة رغم انكاره المتكرر عند سؤاله. وفي الحقيقة لم يصادفني خلال وجودي بأمريكا حتى ذلك الوقت شخص يتسم بأكبر قدر من الرذائل مثل ذلك الشاب. فقد كان شاذاً جنسياً ولصاً وكاذباً ويتصرف بعدم احترام للآخرين وغير مهذب على الاطلاق. ولما كان العيش مع مثل هذا الشخص في عداد المستحيل فقد كنت أتوقع صداماً مخيفاً بيني وبينه الشيء الذي حدث

بالضبط يوم الخميس ١٩٧٦/٩/٢٨ . فقد عدت للشقة مرهقاً بعد يوم دراسي مليء بالمحاضرات وجلبت معي نصف دستة بيض ووضعتها في الثلاجة ودخلت غرفتي لاغير ملابسي. وعند خروجي من الغرفة فوجئت بإختفاء البيض. وقد كان ألان هو الوحيد الموجود في الشقة. ولم أتمالك نفسي لحظتها ودخلت في عراك وإشتباك بالأيدي معه كان عنيفاً للغاية وقد صببت جام غضبي على ذلك الشاب بالركل واللكمات ولم يوقف ذلك العراك سوى تناوله لسكين كانت ملقاة على منضدة في المطبخ في محاولة للهجوم بها عليّ. وصادف أن دخل في هذه اللحظة صاحب المبنى إلى الشقة حيث فض الإشتباك واستدعى البوليس الذي أتى مسرعاً وأجرى بعض التحقيقات. ولما كان إستعمال آلة مثل السكين في الإشتباك جريمة كبيرة في القانون الأمريكي فقد سيق مقيداً بالسلاسل إلى الحراسة وطُلب مني الاتجاه في اليوم التالي للمدعي العام للادلاء بأقوالي في هذه الحادثة وقد دونت في سجلات البوليس تحت رقم ٦١٧٧١ . وقد ذهبت في اليوم التالي وسردت للمدعي العام ما حدث بالضبط. ولم يخف المدعي العام اشمئزازه من تصرفات ذلك الشاب وذكر لي بأنه سيتابع الإجراءات القانونية التي تكفل طرده من الشقة وذكر لي بأنه قد يحتاج لأقوالي في المحكمة في فترة لاحقة. وقد عدت أدراجي لقاعات المحاضرات مواصلاً دراستي بعد أن عبرت له عن ألمي بالخوض في تجربة كريهة مثل تلك التجربة كما أنني وفي بلادي لم أدخل من قبل في تجربة مؤلمة كهذه. وقد ودعني معتذراً عما حدث لي من قلق وأعطاني رقم تليفونه للإتصال به لمعرفة قرار القاضي. ولم تمكنني ظروفي الدراسية من الاتصال به فيما بعد لكن عند عودتي إلى الشقة وجدت أن مدير المبنى قد أخلى غرفة ألان من كل حاجياته وكان قبلها قد أخذ منه مفتاح غرفته قبل إقتياده للحراسة كقرار بعدم السماح له بالدخول فيها مرة أخرى. وكانت تلك آخر مرة للإلتقاء فيها بشخص مثل ألان.

أما بالنسبة للمجتمع الأمريكي فإن ألان هاين بشذوذه الجنسي يمثل

فئة تقدر بالملايين في هذا المجتمع بدأت في الظهور علناً مطالبة بحقوق واعترافات من قبل دولتهم. ويجدر هنا أن أشير إلى مقالات واستطلاعات مطولة عن حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا أوردتها عدة كتب ومجلات أمريكية. فقد أفردت هذه المصادر عدداً من الأرقام عن الشاذين جنسياً في أمريكا ونشاطهم من أجل الاعتراف بهم رسمياً من قبل الدولة وعدم اعتبارهم فئة منحرفة. وأجمل هذه الأرقام والاحصائيات فيما يلي من فقرات.

إن هناك ما يقارب الخمسة ملايين شخص من الشاذين جنسياً وبصورة مطلقة وعلنية من كلا الجنسين بأمريكا وهو رقم متحفظ لدارسي حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا. لكن الرقم الذي يدعيه قادة حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا هو أن عدد الشاذين جنسياً اليوم في أمريكا يقارب العشرين مليون شخص من كلا الجنسين وهو تقدير يضع في الاعتبار الشاذين جنسياً الذين يمارسون نشاطهم بصورة غير علنية. وعلى هذا الأساس أقام قادة حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا تنظيمهم وخرجوا في مظاهرات وأقاموا الندوات والحلقات التليفزيونية والمذكرات تطالب الدولة بالاعتراف الرسمي بالشذوذ الجنسي في أمريكا واعتباره مسألة عادية ومقبولة لدى المجتمع الأمريكي. وقد أكدت مجلة النيوز ويك الأمريكية في عددها الصادر بتاريخ ٦يونيو ١٩٧٧ عددية الشاذين جنسياً في أمريكا بأنها تقارب اليوم العشرين مليون شخص، كما أكدت هذا العدد أيضاً مجلة التايم الأمريكية الصادرة بتاريخ ٨سبتمبر عام ١٩٧٥.

تاريخ حركة الشذوذ الجنسي العلني في أمريكا بدأ -حسب ما جاء في عدة مصادر- منذ حوالي ست سنوات. ومنذ ذلك التاريخ بدأ تنظيم الشاذين جنسياً في أمريكا يحرز الانتصارات المتوالية. فحوالي إحدى عشر ولاية في أمريكا حذت حذو ولاية إيلينوى في إلغاء القانون الذي يعاقب

على ممارسة الشذوذ الجنسي(*). الجمعية الأمريكية للأطباء النفسانيين (American Psychatric Association) أوقفت مسألة إعتبار الشذوذ الجنسي على أنه إضطرابات نفسية بعد أن كانت تعتبر الشذوذ الجنسي إضطرابات عقلية ما يقارب ثلاثاً وعشرين سنة. بعض الشركات الأمريكية الكبيرة أعلنت بأنها لا تمانع في تخديم الشاذين جنسياً علناً ومن بينها وكالة التخديم المدني (Civil Service Commission).

بتقدير البوليس الأمريكي يوجد اليوم في أمريكا حوالي أربعة آلاف ناد ليلي علني خاص بالشاذين جنسياً. وقد كانت في الماضي معتمة غير مضاءة بصورة كافية كنوع من التستر لكنها اليوم تتلألأ بالأضواء وتنبعث منها الموسيقى العالية. وقد أوردت بعض المصادر أسماء بعض الشاذين جنسياً في أمريكا على المستوى القومي منهم ممثلون في هوليود وبروفسيرات في بعض الجامعات العريقة في أمريكا.

وقد ورد أيضاً في كتاب «من أجل الحب أو المال» للكاتب روبن لويد وطباعة مطبعة فانقارد بأن هناك ما يقارب المائة ألف صبي وصبية في سن ١٣-١٦ سنة معظمهم من الهاربين من منازلهم وينتمون للأسر العاملة أو الأسر التي تعتمد على منحة الرخاء (Welfare) في العيش يعملون في هذا النوع من الدعارة. كثير من المصادر أشارت إلى أن كلاً من بوليس مدينتي لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا لا يجدون هذا الرقم كبيراً على الاطلاق. وهناك غارات مستديمة يجريها البوليس على هذا النوع من الدعارة. كما تطرقت بعض المجلات لحمامات الشذوذ الجنسي العلني حيث يدفع الشخص مبلغاً من المال ليمارس هوايته في صورة ثنائية أو

(*) في مقالها عن حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا أشارت مجلة النيوزويك الصادرة بتاريخ ٦يونيو ١٩٧٧ إلى ارتفاع عددية الولايات التي ألغت القيود على ممارسة الشذوذ الجنسي وأصبحت ثمانية عشر ولاية (راجع صفحة١٧) بالمقارنة مع إحدى عشرة ولاية ألغت قوانين معاقبة الشذوذ الجنسي عام ١٩٧٥ كما أشارت مجلة التايم الأمريكية الصادرة بتاريخ ٨سبتمبر ١٩٧٥ (العدد الكلي للولايات لأمريكية هو إحدى وخمسون ولاية).

جماعية. ورد أيضاً في بعض المراجع أن هناك ثماني وثلاثين ولاية في أمريكا لا تزال تعتبر عملية الشذوذ الجنسي ضد القانون وقد يعاقب مرتكبو هذا النوع من العمليات بالسجن لفترة قد تصل إلى إحدى وعشرين سنة سجناً. كما أشير إلى أن الجيش الأمريكي يستغني عن خدمات ألفي (٢٠٠٠) مجند سنوياً من كلا الجنسين للشذوذ الجنسي.

وحقيقة أن هذه الأرقام والتي أوردتها عدة مصادر إعلامية وصحفية لو قورنت بتعداد المجتمع الأمريكي وهو يزيد عن المائتي مليون نسمة تبدو غير ذات وزن كبير. لكن لو وضعنا في الاعتبار إنتصارات الشاذين جنسياً عبر السنين في أمريكا وتزايد فئاتهم وخروجهم علناً اليوم للمطالبة بحقوقهم مع مراعاة أن بعض نظريات علماء النفس تشير إلى أن الشذوذ الجنسي هو مظهر يتم بواسطة التعلم (Learned Behavior)، إذا وضعنا ذلك في الاعتبار يمكن التنبؤ بمستقبل حركة الشذوذ الجنسي في أمريكا. ولا يجب إغفال أن كثيراً من الحادبين على المجتمع الأمريكي يشيرون إلى أن رفع القوانين المعاقبة على ممارسة الشذوذ الجنسي يؤدي حتماً إلى انتشار هذه العادة في المجتمع الأمريكي وتزايدها. وقبل ست سنوات فقط، لم تكن هناك هذه الملايين من الشاذين جنسياً والعلنيين تطالب بحقوق واعترافات كما أنه لم تكن هناك إحدى عشرة أو ثمانية عشر ولاية تعلن صراحة إلغاؤها لقوانين معاقبة ممارسة الشذوذ الجنسي السري والعلني*.

وتطابقاً مع هذه المعلومات التي أوردتها عدة مصادر مكتوبة فقد شاهدت يوم الأحد ١٩٧٧/٥/١٥ وفي السادسة مساء برنامجاً تليفزيونياً باسم (ستون دقيقة) وهذا البرنامج يقدم كل يوم أحد من القناة رقم٣ والتابعة لشركة أل سي. بي. أس (CBS) الأمريكية وهو من أنجح البرامج التليفزيونية على المستوى القومي في أمريكا. وقد كان موضوع البرنامج

(*) توجد في أمريكا منظمات مناوئة لحركة الشذوذ الجنسي العلني في مختلف الولايات بأمريكا أشهرها منظمة (أنقذوا أبناءنا Save Our Children) بميامي بولاية فلوريدا وتقودها سيدة أمريكية متدينة وهي مسيحية تدعى أنيتا بريانت.

ظاهرة كما وصفها المذيع بأنها ظاهرة خطيرة في المجتمع الأمريكي وهي استخدام الأطفال في أدوار جنسية بصورة تكاد تكون مهددة للمجتمع الأمريكي.

وقد كان البرنامج مليئاً بمقابلات مع الأطفال الضحايا في سن ١٣ سنة أو أقل وبعض من يستخدمونهم في هذه العملية والتي تجلب ثروات كثيرة كما قيل من خلال توزيع المجلات والأفلام واستخدام الأطفال أنفسهم في المسائل الجنسية. ورغم أن هذه الفئة من المجتمع الأمريكي أيضاً ليست كبيرة بمقارنة التعداد لكنها ظاهرة سرطانية بدأت تعم المجتمع الأمريكي -كما وصفها المذيع- وهي ليست أقل خطورة من ظاهرة الشذوذ الجنسي والتي كما أشرت بدأت تنتشر في المجتمع الأمريكي بصورة مرعبة. ولا يفوتني أن أشير إلى مقال مجلة النيوز ويك الأمريكية عن حركة الشذوذ الجنسي والصادر بتاريخ ٩يونيو ١٩٧٧ والذي أشار بصفة خاصة إلى مدينة سان فرانسيسكو بكاليفورنا (عاصمة الشاذين جنسياً كما يطلقون عليها) بأن تعداد سكانها يبلغ ستمائة وثمانون ألف (٠٠٠ ٦٨٠) نسمة بينهم مائة وعشرون ألف (٠٠٠ ١٢٠) شخص من كلا الجنسين من الشاذين جنسياً وينتمون لأندية الشذوذ الجنسي بصورة علنية وقد خرجوا في مظاهرات يطالبون فيها ببعض الحقوق منها عدم تمييزهم واحتقارهم عند الاستيعاب في العمل.

وفي الواقع لا أدري كم تعداد الشاذين جنسياً من هذه المدينة غير العلنيين وكم سيكون عددهم بعد عدة أعوام تأتي في المستقبل. ففي حديث مع أحد أصدقائي الأمريكيين في ماديسون ذكر لي بأن أندية الشذوذ الجنسي في ماديسون لم تكن علنية قبل أربعة أو خمسة أعوام مضت. لكنها بدأت في الانتشار وأخذ عددها يزداد وبدأت هذه الفئة من المجتمع الأمريكي في الظهور علنياً مستغلة سماحة الديمقراطية الأمريكية في ذلك. ولا يعلم إلا الله ماذا سيكون عليه المستقبل. فلم يبق إلا ممارسة الجنس

الطبيعي والشاذ في الطرقات كشيء طبيعي في المجتمع الأمريكي وهي مرحلة أرى أنها ستتم في مستقبل السنين القادمة.

فما كان غريباً في أمريكا قبل ستة أعوام لم يعد غريباً اليوم وما هو غريب اليوم لن يكون غريباً بعد عشرة أعوام خاصة تحت ظروف غياب الواعز الديني في هذا المجتمع واندفاع هذا المجتمع بصورة عمياء نحو المجهول. ولعل هذا السرد قد جلبه ظاهرة استخدام الأطفال في المسائل الجنسية وهذه الظاهرة أعتقد أنها مرتبطة إلى حد كبير بالأسرة الأمريكية والتي بدأت تقاسي من التفكك كما وصفها كثير من الكتاب. ورغم المنظمات الاجتماعية المتعددة والموجودة هنا لمساعدة الأسرة والعمل على حفظها وترابطها وحل مشاكلها فلا تزال الأسرة الأمريكية تعاني الأمرين من التفكك والانهيار. وما ظاهرة استخدام الأطفال في العمليات الجنسية العلنية وغير العلنية سوى مظهر لتفكك الأسر. وحتى لو سلمنا جدلاً بأن الأسرة الأمريكية المتوسطة لا زالت تتمسك اليوم ببقايا تقاليد موروثة ويمكن اعتبارها لحد ما في إطار التحفظ يبرز سؤال هام هنا وهو كيف سيكون وضع الأسرة الأمريكية (الوحدة الأساسية في المجتمع الأمريكي) مستقبلاً وهناك قلاقل إجتماعية خطيرة بدأت تعرف طريقها نحو الأسر؟ ففي دراسة قدمها البروفسير جيري دبنهام الأستاذ بشعبة إدارة التعليم بجامعة يوتا والبروفسير هوارد ويكفيلد رئيس شعبة إدارة التعليم بجامعة ويسكونسن-ماديسون في أبريل عام ١٩٧٧ وهي بعنوان «مستقبل المدارس والأسر في امريكا» (مرجع رقم ٣) خلص الكاتبان إلى عدة نقاط:

أولاً لا يوجد في الولايات المتحدة حتى الآن تنسيق بين الموارد المادية والرأي العام الأمريكي والمعرفة العلمية والاجتماعية لخلق مجهود قومي موحد ليرفع من مستوى حياة الأسر الأمريكية بصورة مرضية. وفي نفس الوقت يلاحظ معظم المهنيين العارفيين أن حالة الأسر والأحياء الأمريكية في تدهور مستمر وفي حاجة ماسة للانضباط الاجتماعي. وقد أشار الكاتبان

إلى أهمية أن تلعب المدارس ومؤسسات الرخاء دورها في رفع مستوى حياة الأسر.

وقد أشار الكاتبان إلى أنه وفي الوقت الذي توجد فيه الآن في الولايات المتحدة عدم مساواة إجتماعية (Social Inequality) ومشكلة إدمان للعقاقير المخدرة وازدياد الجرائم واضطرابات العقل والتي يمكن ربطها بالنقص في الرعاية السليمة للأطفال نجد أن زيادة برامج الرخاء وتشديد القوانين المعاقبة وعقوبة السجن لا تعالج أمراض المجتمع الأمـريكي الأساسية وانهيار المناخ العائلي. وقد نبه الكاتبان إلى أنه من الواضح عدم إمكانية إهمال الحاجة لرفع مستوى حياة الأسر الأمريكية من النـاحية الاجتماعية. وقد تطرق الكاتبان إلى التسلسل التاريخي الذي أدى لهذا الوضع وخلصا إلى أن الضبط الاجتماعي والأخلاقي والذي كان يمارسه الآباء في فترة من الفترات على الأبناء بدأ يزول باستمرار في عالم غياب الآباء عن الأسر وظروف خروج الأمهات المتحررات للعمل واستقلال الجد والجدة وبيئة مجموعات (شلل) الأطفال والصبيان.

وعليه، فإن العائلة التقليدية المعروفة في الماضي قد زالت ليحل محلها عائلة اليوم والتي تتسم بوجود رب أسرة واحد أو مجموعة متسلسلة من الأرباب للأسرة الواحدة. وقد أصبح الأطفال عبئاً اقتصادياً وأخلاقياً غير مرغوب فيه بدلاً من أن يكونوا حسنات إقتصادية وإجتماعية. وهذا العامل أدى إلى وجود ظاهرة الأسر الصغيرة وظاهرة الأطفال الهاربين من منازلهم والاستخدام السيء للأطفال وهجرهم. والأسر اليوم في أمريكا تقدم القليل لأفرادها في الوقت الذي يتطلع فيه الأفراد إلى أن تقدم لهم الأسر الكثير مع التطور السريع في الجانب التكنولوجي.

ونلاحظ، أن هناك إحساساً من قبل الأطفال بعدم كفاءة رب وربة الأسرة مما يؤدي إلى انحرافات خطيرة من قبل هؤلاء الأطفال. ويقول الكاتبان: «رغم أن التكنولوجيا أعطتنا وهم التقدم والضبط إلا أن مقدرتنا

على العيش تضعف بصورة واضحة، فالقلق والاضطراب وعدم الانتظام من الظواهر التي تقود عصرنا». ويوضح الكاتبان أن هناك جدلاً مقنعاً وجاداً يمارس اليوم لرفع مستوى حياة الأسر الأمريكية كطريق لتحقيق الاستقرار الاجتماعي. وقد اقترح الكاتبان عدة مقترحات كأن تجهز المدارس في أمريكا بطريقة تشابه المنازل الأمريكية حتى تمارس دورها في رعاية الأطفال رعاية صحية. كما اقترحا أيضاً وجوب إعادة النظر في المؤسسات الاجتماعية القائمة في الولايات المتحدة والتي وصفاها بأنها تعمل أكثر في تعميق عدم المساواة في المجتمع الأمريكي وانقسامه الاجتماعي.

وقد سمعت في أحد الأيام إعلاناً في إذاعة من إذاعات ماديسون، اعتبرته غريباً جداً، وهو أن امرأة أعلنت عن فقدها لكلبها الذي تحبه. ووصف المذيع أوصاف الكلب وطلب ممن يجده الاتصال بالمرأة في تليفونها أو عنوانها. والأمريكيون هنا يحبون الحيوانات (الكلاب والقطط بالذات) بصورة عجيبة ويدللونها ولعل ذلك كظاهرة لمجتمعهم. فهم، كما ذكر لي أحد أصدقائي السودانيين، يفتقدون الرباط الروحي الذي يمكن أن يجمعهم وذلك بتفكك الأسر وعدم ترابط العوائل والاتجاه للعيش بفردية، فرب الأسرة أو ربة الأسرة لا تجد أبناءها حولها. ففي سن الثامنة عشرة كل فرد عليه أن يحيا حياته الفردية الخاصة. وعليه نجد أن رب الأسرة أو ربة الأسرة لا تجد حولها سوى الحيوانات -قططاً كانت أو كلاباً- لتغدق عليها العواطف المكبوتة، وهي في نظري عملية سيكولوجية أكثر منها عطفاً على الحيوانات كما يقولون هنا. ولا يستغرب الانسان إذا وجد في البقالات أكلاً معبأ خصيصاً للقطط والكلاب كما أن الدعاية لهذا الأكل تظهر بصورة دائمة في أجهزة التليفزيون والاذاعة الأمريكية هذا جانباً عن العيادات الخاصة والمنتشرة لهذه الحيوانات.

وبالطبع ما نعتبره نحن غريباً يعتبره الآخرون طبيعياً. فالمجتمع الأمريكي له ظواهره البيئية التي ينفرد بها والتي تميزه عن المجتمعات

الانسانية الأخرى، كما له معايشاته البيئية التي يلتقي فيها مع مجتمعات أوروبية أخرى. فالأمريكيون وحينما يسجلون تاريخ الأيام في مكاتباتهم الرسمية والخاصة يكتبون الشهر أولاً قبل اليوم عكس ما هو سائد في بقاع العالم الأخرى. وطائر البوم الذي تشاءم منه أجدادنا العرب ونتشاءم منه نحن حتى اليوم في بلادنا العربية، يحتل مكان القلب عند بعض الأمريكيين، وتجد صوره ولوحاته المرسومة معلقة على جدران المنازل وعلى أرصفة الطرق وعلى حيطان المتاجر للبيع، وهو الشعار الرسمي لاحدى المنظمات الطلابية بفروعها في المدارس الثانوية الأمريكية العليا. فهو ليس مصدر الشؤم عند الأمريكيين كما هو الحال عندنا وإنما يتشاءم الأمريكيون من القط الأسود كما سمعت ويحتل عندهم مرتبة البومة لدينا.

كثير من الزملاء الأمريكيين الذين تحادثت معهم يشيرون إلى أن الحياة اليوم في تغيير مستمر وسريع في هذا الزمان. وهذا التغيير المستمر والسريع حتم على الأسرة الأمريكية تغييراً في الأدوار. فلم تعد الأسرة الأمريكية كما كانت في الماضي، الأب هو المسؤول عن مصدر المعيشة والأم هي المسؤولة عن العناية بالأطفال ورعايتهم-إنما تغيرت هذه الأدوار بصورة كبيرة ولا يمكن وصف هذا التغيير بالتفكك والانهيار كما يوصف الآن. ويصح أن تكون هذه تبريرات، مجرد تبريرات مسكنة لفترة ما قبل أن ينجلي الوضع المنهار للأسرة الأمريكية في مرحلة متأخرة لا يمكن أن تصل إليها يد العلاج. وهنا يستحسن أن أتحدث عن هذا التغيير السريع للغاية والذي يميز المجتمع الأمريكي اليوم وكما لمسته خلال وجودي هناك.

حقيقة إن الحياة في أمريكا تسير بسرعة لا توصف فيما يختص بالمعاملات الرسمية وغير الرسمية. وهناك تغيير سريع ومستمر في أي شيء تقريباً. في الجامعة لم تمر معي لحظة لم أشاهد فيها تغييراً في المباني أو التصميمات العمرانية. فالمحلات التجارية وغير التجارية في تغييرمستمر. فما كان مطعمًا لن يمر عليه وقت كبير حتى يصبح متجراً للملابس، بل إنني ذهلت حقاً وأنا ألاحظ تغييرات سريعة ومستمرة في الشخصيات التي

أقابلها في الشُعَب الدراسية وفي المؤسسات الرسمية في الجامعة وخارج الجامعة. ولم تمض سنة على مجيئي لأمريكا حتى شعرت بأنني أعيش في كل مرحلة دراسية في غربة جديدة من حيث التغييرات المستمرة التي تجري. وهذا التغيير المذهل والمستمر في الحياة الأمريكية يتعلق بكلا الجانبين التكنولوجي والاجتماعي. فالأجهزة التي تستخدم في المنازل وخارج المنازل في تغيير مستمر والموضات والأكل وما شابه ذلك في تغيير مستمر وسريع بصورة جنونية. وقد أخبرني أحد أصدقائي الأمريكيين بأنه كان في زيارة مرة لولاية كاليفورنيا وقد استقل البص من إحدى مدنها متجهاً لمدينة أخرى تبعد عدة كيلومترات.

وفي الطريق مرّ بقرية أمريكية تتكون من منازل صغيرة ومزارع. وبعد أن قضى حوالي الشهر في المكان الذي كان متجهاً إليه عاد بنفس الطريق الذي أتى به ومستقلاً نفس البص. ولشدة دهشته كما ذكر لي فإنه لم يجد القرية التي مرّ بها في رحلته الأولى. فقد أضحى مكانها خالياً تماماً ولم يعد يوجد بها سوى آثار لساكنين في فترة ما. ويبدو أن السلطات بكاليفورنيا قد قررت إستخدام منطقة هذه القرية في أشياء غير سكنية. وهذه القصة تدل على أن التغيير في أمريكا يسير بسرعة خيالية لا يمكن أن تصدق.

ويرتبط هذا التغيير بالتضخم المستمر في أسعار السلع والمواد الاستهلاكية والايجارات زيادة على غلائها الرهيب أصلاً. وقد كنت في بداية مجيء لأمريكا أصرف ما يقارب الستين دولاراً لطعامي خلال الشهر وفوجئت في أحد الشهور وبعد مرور سنتين على مجيئي لأمريكا بأنني أدفع أكثر من مائة دولار لنفس الكميات التي كنت أشتريها من قبل. ولكيما يأخذ القاريء الكريم صورة عن الغلاء هنا أقول أن قطعة الليمون الواحدة مثلاً تساوي حوالي التسعة عشر (سنتاً) أي ما يعادل بالتقريب الستة أو السبعة قروش سودانية. كما إن قطعة الطماطم الواحدة تساوي ثلاثين (سنتاً) أي ما يعادل بالتقريب حوالي العشرة قروش سودانية. وقد

تقل هذه الأسعار في بعض المواسم حين تكون الخضروات أقل قليلاً من هذه الأسعار، أما الملابس فأسعارها غالية لحد لا يوصف وفي ارتفاع مستمر وتغيير دائم.

وأما المعدات والأجهزة الألكترونية، فهي في تغيير دائم وتجديد مستمر. ويستخدم المواطن الأمريكي اليوم عدداً كبيراً من الأجهزة الألكترونية تعاونه في حياته مثل أجهزة الطبخ وأجهزة تقشير الخضروات وتقطيعها والأفران الألكترونية المصغرة والتي تعمل أتوماتيكياً لضبط الحرارة لطبخ الأكل وأجهزة الحلاقة وتصفيف الشعر الكهربائية. وهناك آلات يدوية حاسبة وصغيرة يستخدمها الكثيرون في تضريب منصرفاتهم وحساباتهم الأخرى، كما هناك أجهزة لتسجيل البرامج التليفزيونية تعمل أتوماتيكياً يستخدمها الانسان في تسجيل البرامج التي لا يسمح وقته بمشاهدتها حتى يمكنه متابعتها بعد عودته إلى منزله. وقد تم حديثاً في أمريكا تصميم جهاز يمكن الشخص المتابع للبرامج التليفزيونية أن يتحدث رأساً ويدلي بتعليقاته لمقدمي البرامج من منزله خلال متابعته لهذه البرامج. وهذا الجهاز هو أحد الأجهزة التي لم تعمم بعد لكنها في مرحلة التجربة. ويمكن للشخص المستطيع إقتناء كمية من هذه المعدات والأجهزة الألكترونية بمبالغ وأحجام متفاوتة. والعقول الألكترونية المبرمجة هي سمة من سمات عصر اليوم في أمريكا وهي التي تعطي الاجابة عن الكثير من الأسئلة والاستفسارات. ففي جامعة ويسكونسن-ماديسون وفي دار اتحاد الطلاب، هناك عقل إلكتروني (أو آلة حاسبة) مبرمج تابع لبنك ويسكونسن الوطني الأول في ماديسون يمكن الطلاب من سحب مبالغ نقدية متى ما شاؤا وبكميات محددة دونما حاجة بهم إلى الذهاب لمكاتب البنك والمتواجدة على بعد عدة أميال من مباني الجامعة.

فإن أردت سحب مبلغ محدد من حساب توفيرك أو من حسابك الجاري في البنك فكل ما تحتاجه هو أن تدخل الكرت الخاص بحسابك في فتحة معينة في الجهاز فتظهر لك كتابة معينة توجهك إلى ضغط الأزرار التي

تحدد كمية النقود التي تحتاجها. وما عليك سوى إجراء ذلك ليقفز لك المبلغ الذي طلبته من فتحة أخرى في الجهاز، ويضيء لك الجهاز كتابة تطلب منك الانتظار قليلاً حتى تستلم الوصل الخاص بالمبلغ الذي سحبته. وبذلك يكون هذا الجهاز أو العقل الألكتروني أو الآلة الحاسبة قد كفاك عناء المشوار للبنك ومتاعبه.

ويسير المجتمع الأمريكي اليوم نحو التكنولوجيا في حياته وممارساته بصورة مذهلة. فالآلة قد أصبحت كل شيء في أمريكا ودونها يعاني الفرد الأمريكي الأمرين. ولا شك أن الحياة المادية في أمريكا قد طغت بصورة كبيرة على الحياة الاجتماعية فيها. فكثيرون من الأمريكيين يمتلكون الآلات لكنهم يفتقدون حرارة العلاقات الانسانية ويعانون من الخواء الروحي ويشعرون بقلق محسوس يميز حياتهم ويظهر ذلك جلياً في البحث المستمر عن الجديد. فالأغاني والموضات وغيرها سرعان ما تُمَل ليحل محلها غيرها بسرعة جنونية. وقد صدف في جامعة ويسكونسن-ماديسون أن ظهر في صيف عام ١٩٧٦ شخص أمريكي أطلق على نفسه رجل القمر كان يحمل شهادات مطبوعة هي عبارة عن تمليك قطع أرض قمرية مساحة كل منها حوالي الفدان، كان يبيعها بمبلغ دولار لمن يريد. وقد كان ذلك الحدث شيئاً جديداً جذب إليه آلاف المشترين حتى أعلن بأنه كان يبيع شهادات تمليك أراضي في القمر بما يعادل مائتي دولار في اليوم أي ما يعادل بالتقريب الستين جنيهاً سودانياً في اليوم الواحد فقط. وقد ألقى البوليس القبض عليه وأودعه السجن عدة مرات لكنه كان في كل مرة يطبع تلك الشهادات ويبيعها لمن يريد. فالقمر كما قال ليس ملكاً لأحد ولا يوجد قانون في رأيه يحاكمه على ذلك، وقد نعتته بعض الصحف بالخبل كما نعتته أخرى بالاحتيال.

وفي واقع الأمر فإن كل يوم يمر يدفع بالمجتمع الأمريكي نحو المناخ الآلي بعيداً عن إطار العلاقات الاجتماعية والانسانية حتى أنني تخيلت أن يوماً ما سيأتي يتحرك فيه الناس ويعيشون بصورة آلية بحتة، ينزلون من

عرباتهم ويتجهون لمنازلهم يضغطون على أزرار أجهزتهم فتمدهم بأكلهم وحاجياتهم وينامون، ويكون اليوم قد مضى دون حاجة بهم حتى للتفوه بكلمة. وربما يبدو هذا الحديث غريباً ونشازاً في عصرنا هذا، لكنه قد يصح في عصور مقبلة. فلا يوجد اليوم في أمريكا مرفق من المرافق الاقتصادية أو الاجتماعية لم تصله يد التكنولوجيا والآلات. فحتى في مجال التعليم في أمريكا توجد اليوم برامج تعليمية في بعض المؤسسات الأمريكية حلت فيها الآلات محل الأساتذة لتدريس الطلاب.

وليست هذه (نكتة) إنما هي واقع معاش. ففي عام ١٩٥٤ صمم البروفسير ب. ف. سكينر أشهر علماء علم التربية النفسي المعاصرين في أمريكا والمحاضر بجامعة هارفاد آلة يمكن أن تستخدم لتدريس الطلاب في المدارس بدلاً عن الأساتذة وهي مبرمجة بطرق معينة. وقد أجرى البروفسير سكينر تجربة لكيفية إستخدام هذه الآلة في ذلك العام لأعضاء هيئة التدريس بكلية التربية بجامعة بيتسبرج بولاية بنسلفانيا. وخلال العرض إلتفت أحد أعضاء هيئة التدريس الحاضرين إلى الزميل الذي يجلس بجواره وسأله باندهاش: «هل هذا الرجل يمزح؟» ومرت السنين وبدأت فعلاً بعض المرافق الأمريكية في إستخدام هذه الآلات خاصة في مجال التدريب التخصصي في بعض البرامج التدريبية وبصفة خاصة في الجيش (راجع كتاب آرثر م. كرول) «قضايا التعليم الأمريكي»، (مرجع رقم٢٧ صفحة٧٨).

وقد بدأت بعض المدارس فعلاً في إستخدام هذه الآلات لتدريس طلابها بدلاً عن الأساتذة لكنها لم تأخذ بعد صورة التعميم المنتشر، لكنها محصورة في عدد بسيط منها. ويجري اليوم جدل مقنع لامكانية إستخدامها بصورة عامة من قبل الكثيرين من المهتمين بشؤون التعليم في أمريكا (ولتفاصيل برامج التدريس الآلية هذه، راجع كتاب ب. ف. سكينر «آلية التدريس» -مرجع رقم٢٩).

متاعب جديدة

في أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٧٦ سكن في الغرفة الملاصقة لغرفتي بعد أن أخليت من حاجيات ألان هاين شاب أمريكي أبيض إسمه كلينتون وهو يبدو هادئاً من خلال شكله وحديثه. وفي الحقيقة سألت الله سبحانه وتعالى ألا يكون كلينتون مثل ألان الشاب السابق؛ وقد تحادثت معه لفترة قصيرة إستأذن هو بعدها للخروج في المساء. وفي صباح اليـوم التالي فوجئت بمنظر هذا الشاب (كلينتون) بشكل عجيب. فقد بدت في وجهه كدمات وآثار عراك عنيف حيث أن عينه اليسرى كانت متورمة وهناك جروح في وجهه وجبهته مما يدل على أنه قضى ليلة عنيفة بحق. وفي الحقيقة راودني الشك في أن هذا الشاب قد يكون أحد المجرمين في هذه البلدة مما جعلني أجلب عصى غليظة وأضعها في غرفتي إستعداداً لأي تجربة عراك أخرى في أمريكا.

ومن الغريب أن ذلك الشاب كان يتحدث مع نفسه بصوت عال ويصرخ في بعض المرات وكنت أسمعه من داخل غرفتي. ويبدو أنه كان يمارس شعوذة لم أتمكن من معرفتها حتى الآن. وقد أخبرني في أحد الأيام بأنه قلق نفسياً ويمارس بعض الأشياء في الليل تخفف من قلقه النفسي كما أخبرني بأنه يتعاطى الماريقوانا وأنه تعاطى عقار الهيروين عدة مرات. وهو شاب لا يعمل فقد أعفي من العمل في أحد المصانع وهو يتقاضى منحة من المصنع القديم تمكنه من العيش حتى يجد عملاً جديداً.

وفي الحقيقة رغم أننا كنا نسكن في شقة واحدة فقد كنا نادراً

ما نلتقي لكنني كنت دائمًا أسمع صراخه الهيستيري بالليل من داخل غرفتي وهو صراخ ممزوج بالضحكات في بعض الأحايين. وفي يوم ٥ ديسمبر ١٩٧٦، ولإبتهاجي، غادر هذا الشاب مدينة ماديسون متجهاً لولاية نورث داكوتا كما أخبرني ليحادث بعض الناس في شؤونه النفسية، وذكر بأنه ربما عاد وربما لم يعد. وسكن في غرفته بعد فترة شاب أمريكي أبيض إسمه لويد وهو محامي ويتسم بذوق في تصرفاته ومهذب حيث عشنا سوياً حوالي الشهر وبعدها رحلت أنا لأسكن في منطقة أخرى من مدينة ماديسون.

في هذه الفترة ونسبة لإنتهائي من الإمتحان التحرير لدرجة الماجستير في التعليم الزراعي وبقاء فترة دراسية لي قبل إنتهاء بعثتي الرسمية فقد آثرت أن آخذ بعض الكورسات الدراسية لأختتم بها بعثتي في أمريكا. وقد أخذت ثلاث كورسات دراسية منها كورس يسمى الأنثروبولوجيا والتعليم وهو كورس يقدم في إحدى شعب العلوم الإجتماعية بالجامعة وتقدمه أستاذة كندية الأصل ومولودة في إنجلترا كما قالت.

وحقيقة فإن هذا الكورس من أسوأ الكورسات الدراسية التي حضرتها في حياتي. فالمعلومات التي كانت تقدمها هذه الأستاذة كانت معلومات مشوهة للغاية وقديمة خاصة الجزء المتعلق بالأمم الأفريقية. وهي تتحدث عن منطقة غرب أفريقيا نسبة لتجربتها في دولة غانا لفترة من الزمن كأستاذة في مدارس غانا هناك. وكانت هذه الأستاذة تحاول إيجاد التبريرات لتدخل الإستعمار في الدول الأفريقية بحجة أن الإستعمار أتى ليعلم هؤلاء الأفارقة المتخلفين وليخلق منهم أناساً متحضرين ومتمدنين. وقد بلغ بي الغضب منتهاه في إحدى محاضراتها مما جعلني أنفجر في منتصف المحاضرة قائلاً بأن الإستعمار أتى ليسرقنا ويستعبدنا ولم يأت ليعلمنا.

وقد كنت أتحدث بانفعال واضح مما جعل جميع الطلبة ينظرون إليَّ باستغراب. فهم لا يعرفون كثيراً عن طبيعة الإستعمار البريطاني والآلام

التي سببها للشعوب التي كان يحتلها. وبالإضافة لخلقها التبريرات لتدخل الإستعمار - بريطانيا كان أو فرنسيا - في أفريقيا فقد كانت هذه الأستاذة تعرض علينا داخل القاعة بعض الدراسات التي كانت تجري لمعرفة هل الأفارقة يمكن أن يتعلموا أو لا؟ وبالطبع كانت مثل هذه الدراسات التي تلقيناها في ذلك الكورس من أكثر الأشياء ألماً لي.

ولا أبالغ إذا قلت بأنني كنت في بعض الليالي لا أنام من شدة ألمي لما سمعته في ذلك الكورس والذي أعتبره من أكثر الكورسات إساءة للأفارقة. وقد آثرت الصمت في هذا الكورس لأنني كنت أشعر تماماً بأن دخولي في مشاكل في تلك الفترة لا يفيد كثيراً وقررت أن أقرأ أكثر في هذا الجانب إنتظاراً لليوم الذي يمكن أن أرد فيه بمعلومات موثقة على كل الإدعاءات.

نحو المجهول

في ديسمبر عام ١٩٧٦ بدأت تراودني أفكار جادة لمواصلة دراستي لدرجة الدكتوراة في التعليم الزراعي وخاصة وقد أحرزت نتائج طيبة في مجال دراستي لدرجة الماجستير.

وفي الواقع قررت في أحد الأيام مواصلة دراستي للدكتوراه بصورة رسمية حيث اتجهت لأستاذي المشرف على دراستي البروفسير جون ف. ثومبسون وأطلعته على رغبتي في المواصلة. وقد شجعني هو الآخر وأوضح لي كل الخطوات التي يجب عملها قبل التقديم لكلية الدراسات العليا بالجامعة. وقد أرسل هو خطاب توصية في هذا المعنى لكلية الدراسات العليا لمواصلة دراستي للدكتوراة كما أرسل ثلاث بروفسيرات آخرون خطابات توصية تزكيني لهذه الدراسة وهم البروفسير جورج كارتر والبروفسير جيمس دنكان من شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة والبروفسير ميرل إسترونج من شعبة إدارة التعليم ومدير مركز الدراسات الفنية والمهنية بجامعة ويسكونسن - ماديسون.

ونسبة لأنني كنت أتوقع أن تقطع وزارة الزراعة تمويل بعثتي إذا رفضت طلبي لمواصلة دراستي للدكتوراة إذ أن بعثتي الرسمية للماجستير تنتهي في ديسمبر عام ١٩٧٦، فقد قررت أن أهيء نفسي لأسوأ الظروف، وأقلها المعيشة بدون تمويل، لفترة لا تقل عن بضعة أشهر ليصلني قرار وزارة الزراعة من السودان.

وعليه، فقد حزمت أمري بالإعتماد الكلي على نفسي وعلى بعض النقود التي وفرتها منذ مجيئي لأمريكا. ولما كانت الدراسة في أمريكا غالية

للحد الكبير خاصة المصاريف الدراسية للجامعة جانباً عن الأكل والسكن فقد قدمت طلباً لإعفائي من المصروفات الدراسية الكاملة بالجامعة.

ولحسن الطالع وإستناداً على التقديرات الجيدة التي أحرزتها في دراستي فقد أعطتني الجامعة منحة تعفيني من دفع المصروفات الدراسية الكاملة ووافقت على أن تجعلني أدفع ثلث المصروفات وهي خمسمائة دولار للفترة الدراسية الواحدة بدلاً عن ألف وخمسمائة دولار للفترة الدراسية (ما بين ٣-٤ أشهر دراسية) وتسمى منحة المصروفات للطلاب غير القاطنين بولاية ويسكونسن(Non-Resident Tuition Scholarship) - (مرفق رقم ٢). لكن هذه المنحة لا تمد الطالب بنقود لدراسته ومعيشته. بعد ذلك أصبح من الضروري أن أقتصد كثيراً في مسائل الأكل والسكن. وحتى أواكب الأوضاع الجديدة وخاصة الإقتصادية وحتى أريح نفسي من متاعب وآلام ذلك المبنى ومشاكله المتكررة والتي بددت طاقتي العقلية والجسمانية وأنا في أمس الحاجة لها، فقد قررت الرحيل من مبنى الإيسترادفور حيث كنت أدفع مبلغ مائة دولار إيجاراً لغرفتي في الشهر.

وفي يوم الثلاثاء ١٨/١/١٩٧٧ رحلت إلى منزل في شارع أورشارد الجنوبي ورقمه ١٨ (18 s-orchard st.) وهو منزل قديم يتكون من طابقين به غرفتان في الطابق الأول وأربع غرف في الطابق الثاني. وقد سكنت في إحدى الغرفتين في الطابق الأول ويجاورني في الغرفة الأخرى شاب أمريكي أبيض إسمه راندي وهو طالب في سنته النهائية في الجامعة في شعبة الأنثروبولوجيا ويسكن في الطابق الثاني أربعة شبان، إثنان من الأمريكيين البيض هما جون وآرفيد وشاب من هونق كونق إسمه بول وآخر من إريتريا وإسمه هايلي. ويوجد في المنزل غرفتان للإستحمام ومطبخ كبير يسع أربعة أشخاص كما أن هناك مطبخين ملحقين بغرفتين في المنزل. ولحسن الحظ كان كل سكان المنزل طلاباً في الجامعة ومهذبين في تصرفاتهم. كنت أدفع مبلغ خمسة وثمانين دولاراً في الشهر إيجاراً لغرفتي بما فيها كل الخدمات الأخرى مثل الكهرباء والماء والتسخين والغاز للطبخ.

وكانت بالطبع فرصة لكي أوفر بعض النقود وأقلل من مصروفاتي لمواكبة تطلعاتي الدراسية. وفي منتصف فبراير عام ١٩٧٧ رحل أحد الشبان الأمريكيين الذين يسكنون معنا في المنزل وسكن مكانه شاب من هاواي إسمه روبرت وهو شاب هادىء للغاية. وقد ربط بيننا فيما بعد نوع من الصداقة والإحترام المتبادل، وقد أخبرني أنه أصلاً ياباني ومولود في جزيرة هاواي.

سارت الأمور على أهدأ حال حتى اليوم التاسع من مارس عام ١٩٧٧ حيث غادر مدينة ماديسون متجهاً إلى السودان صديقي العزيز الدكتور عابدين محمد على بعد أن نال درجة الدكتوراة في الإرشاد الزراعي من الجامعة. ولقد كان ذلك اليوم من الأيام الكئيبة في حياتي بأمريكا لإرتباطي بالأخ عابدين إرتباطاً وثيقاً لأكثر من سنتين في أمريكا. وبسفره شعرت بفراغ كبير في حياتي هنا إذ أنني كنت كثيراً ما أذهب لغرفته في منزل المسلمين بماديسون - وهو منزل تم شراؤه لصالح إتحاد الطلاب المسلمين ويسكن فيه عدد من المبعوثين المسلمين - حيث نتجاذب أطراف الحديث لفترات طويلة ونشاهد البرامج التليفزيونية ونقضي أوقاتاً طيبة سوياً. وفي أوائل شهر أبريل من نفس العام بدأت تتكالب عليّ الضغوطات من شتى النواحي وأهمها الضغط من قبل وزارة الزراعة في السودان للعودة وعدم مواصلة دراستي للدكتوراة.

وكانت تصلني رسائل بالتهديد والوعيد من سفارة جمهورية السودان الديمقراطية بواشنطون دي. سي*. كما أن بعثتي الرسمية قد قطعت منذ يناير ١٩٧٧ وأوقف معها الجزء الذي كنت أحوله من مرتبي في السودان ليصلني بأمريكا. وكان هذا الضغط يزيد من آلامي النفسية ويضعف من

(*) سأستخدم في هذه المذكرات عبارة واشنطون دي. سي. (Washington, D.C.) للإشارة لمدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية تمييزاً لها عن ولاية واشنطون (Washington State) والتي تقع في أقصى الركن الشمالي الغربي من الولايات المتحدة. وهذا الإسم هو الإسم المستخدم عموماً في أمريكا للإشارة لمدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية. الحروف دي. سي. ترمز إلى ضاحية كولومبيا (Districtof Columbia).

مقدرتي في التركيز على دراستي قبل كل شيء. ولم تجد محاولاتي لطلب إمتداد لمواصلة دراستي من قبل وزارة الزراعة ولم يحظ طلبي بإعطائي إجازة بدون مرتب أيضاً بأي اهتمام.

وكان كل هذا بالإضافة للإرهاق الدراسي والواجبات المنزلية من طبخ ونظافة وغسيل وكي الملابس وعدم وجود أي تمويل مادي لدراستي والعيش وسط مجتمع أشعر بأنني لست جزء منه بأي حال من الأحوال. وقد يمضي أسبوع بالتمام والكمال دون أن أتحدث كلمة عربية واحدة بل أتحدث اللغة الإنجليزية على الدوام. وليس أقل من كل هذه الالآم برودة الجو المرعبة وكآبته خارج الغرفة. وقد وصلت درجة الحرارة في بعض أيام ذلك الشهر ما يقارب الستين درجة فهرنهايت تحت الصفر هذا جانباً عن أعاصير جليدية تأبى إلا أن تزور هذه المنطقة من العالم كل شتاء.

وفي الواقع لم أجلس مكتوف الأيدي أمام الضغوطات التي تكالبت عليّ وأهمها الضغط المادي. فقد بدأت عدة محاولات لإيجاد مصدر لتمويل دراستي حيث إتصلت بمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني ولم أوفق. ولم يكن الرفض غريباً بالنسبة لي لأنني كنت ألاحظ أن هناك نسبة عالية من الخريجين الأمريكيين عاطلة عن العمل كما أن كثيراً من الطلاب لا يجدون مساعدات مالية كبيرة رغم أنهم أمريكيون وينتمون للمجتمع الأمريكي. وهناك عدد كبير من الطلاب في الجامعة يعملون في مهن مختلفة مثل غسل الصحون والأواني والأعمال الأخرى في مطاعم الجامعة وتنظيم حفظ الكتب في المكتبات ليمولوا دراستهم. وكثيراً ما قابلني طلاب يحضرون لدراسات عليا في الجامعة يعملون كسائقين لسيارات الأجرة في المساء ويتجهون لمحاضراتهم في الصباح.

وكنت أستغرب إذا كان هذا هو وضع الفئة المتعلمة في أمريكا فما بالك بالنسبة للفئات الأخرى من المجتمع الأمريكي والتي لم تحظ بالتعليم الجامعي وفوق الجامعي. لذلك لم أستغرب كثيراً حين وصلني الرد

بالإعتذار من مجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني بتقديم أي مساعدة مالية. ولم أستغرق وقتاً طويلاً في التفكير قبل الإتجاه إلى مؤسسات أخرى مثل مركز أبحاث التنمية بالجامعة ومركز الدراسات الفنية والمهنية بالجامعة وباءت كل محاولاتي بالفشل. ولعل السبب الرئيسي هو أنني أجنبي إذ أن تقارير دراستي ودرجاتي تضعني في مصاف الطلاب الجيدين بالجامعة، وهذا ما حدا بكلية الدراسات العليا بالجامعة أن تعطيني المنحة التي ذكرتها سابقاً.

وفي الواقع لم أكن بالطبع ساذجاً بحيث أطلب شيئاً دون مقابل. فمعرفتي للأمريكيين أوضحت لي بأنهم واقعيون وأذكياء لحد كبير. فهم لا يدفعون (سنتاً) أو مليماً واحداً ما لم تكن هناك فائدة مقابلة. ولا أخفي بأنني أشير إلى أن المنح التي تقدمها أمريكا إلى الدول والمجموعات والأفراد ليست بأي حال من الأحوال لوجه الله تعالى، فهم - وأنا أجزم - لا يتحركون في هذا الإطار مطلقاً. وساذج من ظن أن أمريكا تساعد من أجل المساعدة. فمعاملاتي مع الأمريكيين الأفراد ومؤسساتهم هنا أثبتت لي بما لا يدع مجالاً للشك بأنهم لا يتعاملون إلا في حدود منفعتهم سواء أكانت شخصية أو لبلادهم.

وأنا شخصياً لا إعتراض لي مطلقاً على هذه الفلسفة. فالإتجاه المعاصر لكثير من الدول إن لم يكن كلها يميل نحو المنفعة والمعاملات في حدودها وما أحرانا نحن أيضاً بالتعامل في حدود منفعة بلادنا وتمحيص ما يأتينا من مساعدات وهبات من الخارج.

وكما ذكرت سابقاً فأنني لم أطلب مساعدة لوجه الله تعالى بل عرضت خدماتي في إجراء بحث يتعلق بالتعليم الزراعي في ولاية ويسكونسن كما فعلت في درجة الماجستير (راجع خطاب الشكر من رئيس قسم الشؤون الزراعية بالإقليم الرابع لمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني

(مرفق رقم ٣). وقد دفعت حكومة السودان كل تكاليف ذلك البحث(*). ولا يفوتني أن أشير إلى الدعوة التي إستلمتها من شعبة تقييم البرامج بمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني بتقديم بحثي للعاملين في تلك الشعبة وقد قمت بذلك (راجع خطاب الشكر الذي وصلني في هذا الأمر (مرفق رقم ٤).

رغم ذلك فقد وصلني الرد بالإعتذار عن المساعدة يوضح بأن مجلس ولاية ويسكونسن لا يرغب حالياً في إجراء بحوث أساسية لعدم وجود الإعتمادات الكافية لذلك، ولم يشر خطاب الإعتذار إلى أي أمل في تقديم أي مساعدة لمواصلة دراستي. ومن جانبي فلم تكن هذه الإعتذارات سوى حوافز لبحث أكثر جدية لإيجاد مصدر لتمويل دراستي بعد إنقطاع بعثتي الرسمية.

(*) لم تكن في نيتي مطلقاً إجراء بحث في أمريكا لكن أجبرتني الظروف لذلك إذ لم أتمكن من العودة للسودان لجمع الإحصائيات وإجراء بحثي هناك. كما أن قوانين حكومة السودان لا تسمح لمبعوثي درجة الماجستير للعودة لجمع إحصائياتهم أو لإجازاتهم.

ظاهرة التعري

إنتهت فترة الربيع الدراسية في أواسط مايو عام ١٩٧٧ وقد كانت فترة دراسية غاية في التعب والإرهاق الدراسي. ونسبة للإجازة القصيرة لفترة أسبوعين قبل بداية الفترة الصيفية فقد آثرت التوجه إلى مدينة بلومنجتون بولاية إنديانا بعد أن وصلتني دعوة من رئاسة إتحاد الطلاب المسلمين بالولايات المتحدة وكندا لحضور المؤتمر السنوي والذي تقرر عقده بجامعة إنديانا - بلومنجتون.

وفي يوم الجمعة الموافق ١٩٧٧/٥/٢٧ إتجهت مع مجموعة من زملائي الطلاب المسلمين في بص صغير حوالي الساعة السابعة صباحاً متجهين نحو ولاية إنديانا حيث مررنا أولاً بمدينة شيكاغو بولاية إيلينوي ومدينتي لافايت وإنديانابولس بولاية إنديانا ووصلنا مدينة بلومنجتون حوالي الساعة الخامسة مساء حيث مقر المؤتمر. وقد وجدنا أن هناك إستعداداً كبيراً قد أقيم لاستقبال مجموعة من المتحدثين والذين دُعوا من مختلف بلدان الشرق الأوسط. وقد كانت فرحتي عظيمة أن ألتقي بمجموعة من الأخوة والأصدقاء السودانيين الذين أتوا من مختلف الولايات الأمريكية حيث قضينا وقتاً طيباً إستعدنا فيه ماضي ذكريات الدراسة والعمل في السودان.

وكم أعجبني اللبس المحتشم والذي كانت ترتديه الفتيات والنساء في ذلك المؤتمر. فقد طال بي الزمن منذ أن رأيت آخر لبس يمكن أن يطلق عليه لفظ محتشم وهو قبيل مغادرتي لأرض الوطن في ديسمبر عام ١٩٧٤.

فكلمة محتشم يبدو أنها غير واردة إطلاقاً في قاموس المجتمع الأمريكي. فالفتيات والنساء في أمريكا لا يتورعن خاصة في فصلي الصيف والربيع عن لبس الشورتات القصيرة للغاية لدرجة المبالغة مع كشف جميع أجزاء الجسم الأخرى فيما عدا واجهة الصدر. وحتى داخل قاعات المحاضرات لا تتورع الفتيات هنا عن لبس هذه الشورتات القصيرة وحضور المحاضرات بها. وهذا النوع من اللبس أصبح ظاهرة طبيعية ليس في مدينة ماديسون فحسب وإنما في الولايات المتحدة بصفة عامة. فالتعري الشديد للجسد هو ظاهرة طبيعية أو أصبح ظاهرة طبيعية في هذا المجتمع لا تثير الفضول ولا تلفت النظر إطلاقاً في معظم الأحيان. وأصبح عادة سائدة أن تسير الفتيات والنساء في الشوارع وهن لا يرتدين من الملابس سوى ما يستر الأعضاء الحساسة في الجسد(*).

في الماضي لم تكن الفتيات الأمريكيات يلبسن مثل هذا اللبس إذ أن القيم والتقاليد الاجتماعية كانت مختلفة عن قيم وتقاليد المجتمع الأمريكي المعاصر وهذا ما سمعته هنا. لكن التعري أصبح من العادات الطبيعية في هذا المجتمع. وكثيراً ما فكرت بيني وبين نفسي ماذا سيصبح الحال بعد عشرة أو عشرين سنة تأتي؟ هل ستصبح من الظواهر الطبيعية أن تسير الفتيات والرجال في الشوارع وهم عراة تماماً كما ولدتهم أمهاتهم؟ هذه الظاهرة إن لم تأت بعد عشرة أو عشرين سنة فستأتي بعد ذلك وهذا ما يشير به إحساسي، لكن متى؟ الله وحده يعلم. ففي الماضي كانت

(*) في أوائل عام ١٩٧٧ حدثت جريمة إغتصاب في مدينة ماديسون لطالبة في المدرسة الثانوية العليا. وأعلن أحد القضاة هناك ويدعى آرشي سايمنسون أن ما ترتديه الفتيات من لبس مثير يبرر مثل هذه الجرائم وأنزل عقوبة حفيفة على المغتصب. وكان هذا التعليق بمثابة الشرارة التي اندلعت في الحشيش اليابس. فخرجت المدينة في مظاهرات ومواكب ضخمة تطالب بإستقالة أو إقالة ذلك القاضي. وقد تم جمع ما يزيد على اثنين وعشرين ألف توقيع تطالب بإعادة الانتخابات لمنصب ذلك القاضي وهو عدد قانوني يعيد الانتخابات حتى يمكن إبعاد ذلك القاضي والذي لم يقل سوى الحقيقة. وقد تم إبعاده فعلاً في إنتخابات عامة أجريت في ماديسون يوم ١٩٧٧/٩/٧.

العادة السائدة أن تلبس الفتيات ما يستر أجسادهن وفي الحاضر أصبحت العادة أن تلبس الفتيات ما يستر القليل من أجسادهن ومن المنطق التنبؤ في المستقبل بأن تصبح العادة أن تتخلى الفتيات عن لبس أي شيء في أجسادهن. وكل شيء شاذ في البداية يمر عليه زمن قبل أن يدخل في إطار العادات (Norms) السائدة في المجتمع والتي لا تثير التساؤل أو الفضول. فقبل حوالي أربع سنوات أو خمس لا أدري بالتحديد بدأ المجتمع الأمريكي خاصة في محيط الجامعات مشاهدة شخص عار تماماً كما ولدته أمه يهرول إما في الشوارع أو في دور الرياضة أو المسارح ويختفي فجأة عن الأنظار بعد أن يكون قد خلف موجة من الذهول والإستغراب.

وقد شاهدت في بعض الكتب صور هذه الفئة من الشباب الأمريكي منهم من ظهر وهو مهرول ومنهم من كان يركب دراجة بخارية وتركب من خلفه صديقته العارية تماماً كما ولدتها أمها. ورغم أن هذه المجموعة قليلة الأفراد لكنها تؤذن بحلول عادة التعري الشامل مستقبلاً طال الزمن أم قصر. ونحن في السودان لا تغيب عن أذهاننا مطلقاً أمثالنا العربية «النار من مستصغر الشرر» و«أول الغيث قطرة».

وفي تقديري متى ما أصبحت العادة السائدة التجول في الطرقات مع التعري الكامل سيلي هذه العادة في العصور المقبلة ممارسة الجنس الطبيعي والشاذ في الطرقات كشيء طبيعي لا يثير الفضول وكعادة يشاهدها الناس ولا تدهشهم، مثله مثل ظواهر الجنس الأخرى مثل القبل والإحتضان وغيرها والتي تمارس الآن بين الجنسين بصورة علنية في الطرقات والأماكن العامة كشيء طبيعي.

وهذا بالطبع بالإضافة لأفلام الجنس بالأشكال والألوان، وهناك كميات كبيرة من المجلات الجنسية المصورة والتي تباع اليوم حتى في البقالات الأمريكية العامة كشيء أكثر من طبيعي. وجانباً عن مؤسسات الجنس المحترفة وبيوتاته المنتشرة في المجتمع الأمريكي عامة فهناك

كافتيريات حتى في مدينة ماديسون الصغيرة والمتحفظة نسبياً تقدم لروادها في الفترة الصباحية قهوة الصباح في ساعات معينة منه تقدمها فتيات مختارات للزبائن وهن عاريات تماماً من الخصر وما علاه كوسيلة لجذب المزيد منهم على تلك الكافتيريات. وهناك إعلانات يومية في صحف ماديسون السيارة عن خدمات مثل تلك الكافتيريات وساعات عملها. والأمريكيون مشهورون بحبهم وولعهم للقهوة كما أن الإنجليز مشهورون بحبهم وولعهم للشاي. ولو صدق حدسي وبدأ ذلك العهد أي عهد التعري الكامل كشيء طبيعي في الطرقات كما هو الحال بالنسبة للتقبيل الآن فهو الإيذان الرسمي بدخول الإنسان في مرحلة الإنعتاق من أي رباط إلهي وعبادة العلم. أما ما يأتي بعد ذلك فالله وحده يعلمه. وأعتقد أن كثيرين مثلي يؤمنون بأن هناك حدوداً تخول للإنسان العيش في إطارها ومتى ما تعداها متجبراً فالغضب الإلهي وارد، كان ذلك في الزلازل والجفاف والحرائق بكاليفورنيا أو الفيضانات في إيداهو وبنسلفانيا أو أعاصير التورنادو في الولايات المركزية ورياح «الهيروكين أنيتا» في الولايات الجنوبية. ومن يدري ما هي كوارث المستقبل والتي أتنبأ بها ولا أستطيع تحديدها!!

وكما أشرت فهذه المراحل آتية لكن شيء واحد يمكن أن يقنعني بغير ذلك وهو أن تنزل معجزة يطبق بها المجتمع الأمريكي تعاليم ديانته المسيحية وأن يصيغ منها قواعد أخلاقياته. فقبل كل شيء ليس هناك كثيرون خاصة وسط الشباب الأمريكي من يؤمن بأخلاقيات تنبع من أي دين بل هناك من يجادل بأن الأخلاقيات ومقاييسها تختلف من شخص لآخر وربما هناك من يرى عدم الأخلاق في عدم ممارسة الجنس الشاذ. أما مجرد ذكر الدين فربما يثير السخرية عند الكثيرين(*). وهذا بالطبع لا يعني

(*) يشير الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في كتابه «ما وراء الخير والشر» - (مرجع رقم ٢٢) إلى أن مقاييس الخير والشر تعتمد على المنظار الفلسفي الذي يرتديه الإنسان حيث يفسر على ضوئه جوانب الخير والشر. فهناك على سبيل المثال من يرى في الأنانية إحتراماً وضبط للذات عكس =

عدم وجود الأسر المحافظة خاصة في الريف الأمريكي والتي تتمسك بالتقاليد الموروثة للمجتمع الأمريكي. فهناك أسر كثيرة ما زالت في عداد المحافظة وربما تعتبر في عداد المحافظة جداً على قيمها وتقاليدها النابعة من الديانة المسيحية ولا زالت تتمسك بها لكنها مهددة بالتخلي عن هذه القيم خاصة وقد أصبحت كثير من العادات والتقاليد في المجتمع الأمريكي بعيدة كل البعد عن روح ديانته المسيحية. وتتمركز الخطورة في تقديري في ركل الديانة المسيحية من قبل المجتمع الأمريكي كلية وقد بدأ ذلك بالفعل. فالشاهد الآن أن القيم والعادات السائدة الآن مستمدة في الأساس من الفلسفة أولاً ومن طبيعة المؤسسات الإقتصادية للمجتمع الأمريكي ثانياً ولا علاقة لها بالدين كما سأوضح فيما بعد. وتكمن الخطورة - في تقديري - في عدم وجود الإطار الضابط لحفظ المجتمع في مثل هذه الحالة. فالمؤسسات الإقتصادية يمكن أن تعلم الناس أن يكونوا إنسانيين في الحدود التي تضخم ميزانياتها. لكنها لا يمكن أن تعلمهم أن يحبوا لإخوتهم ما يحبون لأنفسهم، وأن يلتزموا أخلاقياً.

ونحن في السودان معجبون غاية الإعجاب بالعالم الغربي وحضارته وتقدمه ونحس آثاره في منازلنا. لكننا قليلاً ما نتأمل في جانبه المظلم وهو الجانب الإجتماعي لمجتمعاته. ولا أظننا نتطلع أبداً لأن تصبح مجتمعاتنا مثل مجتمعاته مهما بلغت من تقدم تكنولوجي ورقي صناعي. فمجتمعاتنا والحمد لله مسلمة. وإن كانت ممارستنا لديننا الحنيف تشوبها بعض الشوائب فهي لا تمس جوهر إيماننا بعظمة ديننا وأهميته في حفظ مجتمعاتنا من المتاعب الإجتماعية.

ولا شك أن الكثير من تقاليدنا وعاداتنا تنبع أساساً من ديننا

= من يرى فيها خصلة رديئة ومدمرة. ويرتدي كثير من الشباب الأمريكي اليوم عدة منظارات فلسفية يفسر بها شؤون الخير والشر وهي بعيدة كل البعد عن الإطارات الدينية كما أشرت في بداية مذكراتي هذه. فالعشرون مليون شاذ جنسياً في أمريكا لا يرون في الشذوذ الجنسي غضاضة وربما يرون فيه حرية الإنسان وتأكيد ذاتيته، وذلك ما جعلهم يخرجون في مظاهراتهم ومواكبهم العلنية. ولا أعتقد أن هناك ديناً نزل على وجه هذه الأرض يدعو للشذوذ الجنسي.

الإسلام. ومتى ما تركناها وسرنا في ركاب الغرب من وجهة النظر الإجتماعية فلن نجلب لمجتمعاتنا سوى القلاقل والآلام. فلنحافظ على هذه التقاليد ولنتمسك بها ولنأخذ من الغرب تكنولوجيته وصناعته وليأخذ هو منا تجربتنا في إستقاء العلاقات الإجتماعية من ديننا إن أراد أن يصحح الطريق الذي يقوده بأسرع مما يتصور نحو الإنهيار. ولعل أقل مثال هو أننا لا نمارس تفرقة في بلادنا على أسس عنصرية لأن إسلامنا لا يؤمن بالعنصريات. ورغم أن مسيحية الغرب لا تؤمن بالعنصريات أيضاً فهناك كنائس للبيض وأخرى للسود في الولايات الجنوبية لأمريكا كما هناك مدارس للبيض ومدارس للسود ومطاعم للبيض ومطاعم للسود وأندية للبيض وأندية للسود.

وكما أن ديننا يؤمن بالتآخي والمساعدة فإننا مترابطون مع بعضنا البعض بشدة نقدم من أموالنا لمساعدة الضعيف والمحتاج ونساهم مع أصدقائنا وأخوتنا في مناسباتهم كالزواج والعزاء وغيره. ورغم أن الديانة المسيحية هي الأخرى تؤمن بالتآخي والمساعدة فالعادة السائدة في المجتمعات الغربية وخاصة أمريكا هي الفردية البحتة (Individualism) كل شخص لمصلحته لا يهمه الآخرون في شيء، إحتاجوا لمساعدة أم لم يحتاجوا. وعلى أساس هذه الفردية يمكن أيضاً تصور مسألة حقوق الوالدين وحقوق الأبناء وغيرها. فهي ليست واردة بصورة أمثل في تقديري. فالعجزة ويطلقون عليهم في أمريكا المواطنين الرئيسيين (Senior citizens) لا يجدون الإهتمام الأسري اللازم سوى مبانٍ نائية تخصصها لهم الحكومة الفيدرالية لوضعهم فيها حتى يحين أجلهم. ويندر أن يرعى الأبناء هناك أباءهم العجزة أو يغدقوا عليهم شيئاً من الإهتمام. فتلك الفئة من المجتمع الأمريكي لم تعد منتجة إقتصادياً وأصبح نصيبها الإبعاد الإجتماعي.

فضائل اجتماعية

في أمريكا فضائل إجتماعية تمارس كعادات طبيعية وهي فضائل تميز العالم الغربي مثل الأمانة الفائقة وعدم الكذب واحترام المواعيد والنظام وعدم التدخل في شؤون الآخرين وغيرها. ورغم أن هذه الفضائل منصوص عليها أساساً في الشرائع الدينية إلا أنها تمارس كعادات إجتماعية رغم إبتعاد العالم الغربي عن الالتزام الديني. وبالنسبة لأمريكا فإن ممارسة هذه الفضائل -في تقديري- يعود أولاً وأخيراً إلى طبيعة النظام الرأسمالي الأمريكي.

وحتى تتضح الصورة ببساطة فلنأخذ كمثال المنزل الذي أسكن فيه وهو المنزل رقم١٨ بشارع أورشارد الجنوبي. في هذا المنزل خدمات الغاز والكهرباء وتقوم بها شركة تسمى شركة ماديسون للغاز والكهرباء وهي ليست شركة حكومية وإنما هي فرع لشركة كبيرة تمد ولاية ويسكونسن بخدمات الغاز والكهرباء، أمّا خدمات التليفون في المنزل فهي تشرف عليها شركة ماديسون للتليفونات وهي شركة مستقلة أيضاً وربما لا توجد صلة بينها وبين الحكومة الأمريكية الفيدرالية سوى أنها تدفع ضرائب للحكومة. وآلات الغسيل والتي توضع في مختلف المباني تتبع لشركات معينة غير حكومية. وكذلك آلات المأكولات والسجائر والمشروبات المعدنية وغيرها تتبع لشركات خاصة تقدم خدماتها في هذا الجانب. الارسال التليفزيوني تقوم به شركات مختلفة كل تملك قناة معينة مثل شركة أل أ. بي. سي. (ABC) وشركة أل أن. بي. سي. (NBC) وشركة أل سي. بي. أس (CBS) وغيرها. ومحطات الاذاعة تتبع لشركات خاصة مثل شركة أل دبليو.

تي. أس. أو (WTSO) وشركة ال دبليو. آي. أس. أم. (WISM) وغيرها على مستوى ولاية ويسكونسن. وهناك محطات إذاعية تبث إرسالها على المستوى القومي الأمريكي. وفي الشارع البصات تتبع لشركات خاصة والتاكسيات لها شركات خاصة تديرها كما أن هناك شركات خاصة للتأمين الكلي والجزئي على الناس والعربات وأثاثات المنازل بالاضافة إلى مؤسسات تصنيع العربات المشهورة والمعروفة جيداً في بلادنا مثل مؤسسة (فورد) و(جنرال موترز) و(كرايسلر) وغيرها ومؤسسات الأدوية والمشروبات المعدنية المختلفة.

ومجمل القول أن معظم مرافق الانتاج والخدمات تتبع لشركات خاصة وتوجه جهودها بصورة مكثفة نحو الربح-والربح فقط. فالصراع دون رحمة نحو (السنت) أو القرش في أمريكا حقيقة معايشة وواقعية لحد كَبير. وعلى ذلك فالمنافسة بين هذه الشركات في قمتها، كل يسعى لكسب المشتري أو الزبون. وعلى هذا الأساس تعمل هذه الشركات كل ما في طاقتها لتحسين خدماتها.

وعلى ذلك فقد أصبحت مسألة الوفاء بالمواعيد وعدم الكذب والأمانة في خدمات هذه الشركات جزء هام ومكمل للغاية وملزم لكل عامل في هذه الشركات. فهذه الشركات تهمها سمعتها أولاً وقبل كل شيء. فهي لذلك تطبق عقوبات قاسية على من ينحرف عن المباديء التي تكفل الأرباح ومن بينها إحترام المواعيد والأمانة وعدم الكذب وغيره. وفي تقديري أن ممارسة هذه الخصائل في العمل خلق منها عادات تمارس على مستوى المجتمع الأمريكي لأنها جزء من فلسفة النظام الرأسمالي الساعي وراء الربح وليس لأنها فضائل إنسانية يمارسها الناس بإيعاز من خلقهم أو إنسانيتهم. وفي الحقيقة أتيح لي في هذه الفترة قراءة كتاب «جاهلية القرن العشرين» للسيد محمد قطب. ولفت نظري في صفحة١٩٥ ما كتبه عن الأخلاق الأوروبية حيث يقول:

«وحين تتعامل التجارة الدولية بأمانة فائقة نادرة المثال، خارج حدود

القومية فهي ليست (الأخلاق) وإنما هي (المنفعة). فالغش يفقد السوق ويفقد الأرباح والحرص الشديد على الربح يستوجب الأمانة الفائقة في المعاملات. والصدق جميل في التعامل لأنه نافع في حدود التنظيم القومي. أنت تصدق وتتوقع من الآخرين أن يكونوا صادقين مثلك لا لأن الصدق في ذاته فضيلة ولكن لأنك وإياهم تكسبون بذلك جميعاً! تكسبون توفير كثير من الجهد وكثير من المال وكثير من الوقت... يمكن أن توجه إلى كسب مزيد من الربح!».

وهـذا الوصف عن الأخلاق الأوروبية كما ورد في كتاب السيد محمد قطب صورة طبق الأصل من واقع الحياة الأمريكية. وإن كان للنظام الرأسمالي في أمريكا حسنة فهو في أمريكا قد ألزم المجتمع بممارسة بعض الفضائل الاجتماعية كالأمانة والصدق والوفاء بالمواعيد وغيره وهي فعلاً حسنات لا تنكر. وعلى كل فخارج حدود العمل هناك من يحتال عليك ومن يكذب عليك ومن ينهبك في طرقات نيويـورك وشيكاغـو ولوس أنجلوس وديترويت وميامي وغيرها. وفي يوم الأربعاء ١٣/٧/١٩٧٧ وفي المساء إنقطع التيار الكهربائي فجأة عن مدينة نيويورك وأصبحت المدينة تغط في ظلام عميق.

وبالطبع أصبح الجو مهيئاً للسرقات والنهب. وحين حُصرت الخسائر في اليوم التالي للسرقات والنهب والحرائق إتضح أنها تعادل البليون (بحرف الباء) دولار. وصادفت تلك الأيـام زيارة المستشـار الألماني هيلمـونت شميدت لأمريكا لاجراء بعض المحادثات مع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر. وفي آخر أيام زيارته وفي حفل أقيم له خلع ساعته التي يبلغ ثمنها خمسمائة دولار ووضعها لفترة على مائدة الحفل وأنشغل عنها في محادثة إختفت أثناءها الساعة والتي غادر أمريكا بدونها. وقد سمعت هذا الخبر في نشرة أل أ. بي. سي. (ABC) التليفزيونية مساء الجمعة ١٥/٧/١٩٧٧ على القناة رقم٢٧. وليس هناك على وجه الأرض قضية تلصص وعدم أمانة أشهر من قضية ووترقيت والتي أطاحت بـالرئيس الأمـريكي ريتشارد

نيكسون شخصياً ورئيس القضاء الأمريكي في عهده المدعي العام جون ميتشل والذي دخل السجن مثله مثل أي مجرم من مجرمي شوارع حي هارلم وأحياء السود الفقيرة في ديترويت. هذا جانباً عن قضايا الارتشاء والكذب التي تحدث حتى في أعلى أجهزة الدولة الأمريكية الرسمية مثل فضيحة الرشاوي لنائب الرئيس الأمريكي سبيرو أقنيو وخليفته في ولاية ماريلاند، حاكم الولاية مارفين مانديل، وما دار من شبهات كبيرة حول بيرت لانس وزير الميزانية الأمريكي لادارة الرئيس جيمي كارتر مما أدى لاستقالته تحت الضغط في ١٩٧٧/٩/٢١. وهناك فضيحة الرشاوي لبعض رجال الكونغرس الأمريكي من قبل رجل أعمال كوري ثري يدعى تونقسون بارك، ويشار إليها في أوساط الرأي العام الأمريكي «بكوريا قيت» وقد هزت هي الأخرى المجتمع الأمريكي كما فعلت به ووترقيت. أما مايك والاس أحد ثلاثة يقدمون برنامج «ستون دقيقة» التلفزيوني والمشهور على المستوى القومي في أمريكا فقد أشار في الحلقة المقدمة يوم الأحد ١٩٧٨/٣/٥ في السادسة مساء إلى أن خدمات الكهرباء في أمريكا تعاني من سرقة تقدر بثلاثة بلايين دولار سنوياً تسرق غالباً من خلال تركيب عدادات مزيفة في المنازل بمختلف الولايات.

وفي تحقيقه عن الأساليب المختلفة التي يمارسها الناس في أمريكا في هذه السرقات، إستضاف مايك والاس في تلك الحلقة شاباً أمريكياً أبيض في منتهى الأناقة كان يرتدي بدلة كاملة عرفه للمشاهدين على أنه يعمل في تصنيع العدادات المزيفة لسرقة الكهرباء وعلى تعليم الناس كيفية استخدامها. وقد كان الجزء الأخير من الحوار بين ذلك الشاب بإجاباته الهادئة ومقدم البرنامج على النحو التالي:

مقدم البرامج: «إنك تعلّم الناس سرقة الكهرباء».
المستضاف: «هذا صحيح!».
مقدم البرنامج: «إنك تعلّم الناس السرقة من منافع الدولة».
المستضاف: «هذا صحيح!».

مقدم البرنامج: «لماذا تقوم بهذا العمل؟».

المستضاف: «لشكوى الناس من أن منافع الدولة ظلت لفترة طويله تسرق أموالهم».

وحتى المجتمعات الطلابية في أمريكا، ممثلة في جامعة ويسكونسن-ماديسون برغم أنها تصنف في عداد المجتمعات النظيفة والمثالية لحد ما بالمقارنة مع قطاعات المجتمع الأمريكي الأخرى فهي لا تخلو من الشوائب. فقد ورد في صحيفة البادجر هيرالد (The Badger Herald) في جامعة ويسكونسن-ماديسون، العدد رقم١٨، مجلد٢٣ الصادر بتاريخ٥ ديسمبر ١٩٧٧ وفي الصفحة الثامنة ما يلي:

«إن متجر الكتب بجامعة ويسكونسن-ماديسون يفقد سنوياً ما يقدر بمائة ألف دولار (١٠٠٠٠٠) نتيجة للنشل (Shop lifting) كما أشار جون إيبل المدير العام للمتجر. وصرح جون إيبل أن النشل في متجر الجامعة يزداد قليلاً في موسم الكريسماس. وكل سرقة تضبط في المتجر يعادلها عدد غير قليل من السرقات التي لا تضبط. ويضيف جون إيبل أن هذا الوضع أحسن حالاً من متاجر مدينة ماديسون الكبيرة خارج الجامعة حيث تعاني خسارات كبيرة نتيجة للنشل (Shop lifting). ولكيما يعوض متجر الكتب بالجامعة هذه الخسارة السنوية في السرقات عمد المتجر إلى رفع أسعار السلع الأخرى غير الكتب. ولولا ذلك لنزلت الأسعار بالنسبة لكثير من السلع داخل ذلك المتجر».

أما بالنسبة لي شخصياً، فقد لمست هذه الأمانة والدقة بصورة فعلية هنا. لكنني للحقيقة كنت دائمًا أتحسس أن وراءها الربح والمنفعة المادية وليس وراءها العلاقات الانسانية. وكثيراً ما جرني تفكيري نحو هذه الخلاصة حتى أنني بدأت أعتقد بأن أي أمريكي يقابلني لا يهمه شخصي وإنما يهمه ما في جيبي فقط. وهذا تفكير متطرف بالتأكيد لكنني أعذر نفسي للكثير من المعاملات التي مررت بها.

ولعل وصفي لهذا التفكير بأنه متطرف يأتي من حقيقة أن بعض أصدقائي الأمريكيين مثل جيف ويقل وستيف فان دايك وروبرت ناكامورا وهم طلاب في الجامعة قللوا من حدة تفكيري بالمادية المطلقة للمجتمع الأمريكي. فقد أدهشني حقاً أن هؤلاء الشباب كأنهم ليسوا جزءاً من هذا المجتمع الذي يؤمن أولاً وأخيراً بالمادة والربح. فالكرم الحاتمي والشهامة واللطف تتسم بها صفاتهم. وأكيد هناك كثيرون مثلهم وليس هناك غرابة في ذلك.

فالمجتمع الأمريكي خليط من البشر من مختلف أقطار الأرض ولا بد أن يوجد بين أفراده من يرجع أصلهم (لبني شهم) -مجازاً- في حقبة من حقب التاريخ. وإن كان طابع المعاملات للمؤسسات الأمريكية المختلفة هو الطابع الاقتصادي البحت فهـذا لا ينفي وجود بعض المعـاملات الانسانية على مستوى الأفراد. ففيهم من يتسم بإنسانية لا توصف خاصة الأساتذة والبروفسيرات بجامعة ويسكونسن بالذات كما أن فيهم من يتسم بالرذالة المتناهية والتي تصل درجة التطرف بالانتماء إلى منظمات مثل المنظمة النازية الأمريكية ومنظمة الكوكلاكس كلان (KKK) وهي منظمة من البيض تعمل ضد الأمريكيين السود بشن الحملات المسلحة ضدهم وخاصة في الولايات الجنوبية لأمريكا واغتيال زعمائهم وأفرادهم على السواء. والمجتمع الأمريكي مثله مثل أي مجتمع آخر في العالم توجد فيه لمسات كثيرة ومحسوسة من الخير المنتشر في شتى قطاعاته. فقد يذهلك أمريكي يصر على دفع حسابك في المطعم ممسكاً بيدك حتى لا تدخلها في جيبك كما نفعل نحن في السودان. وقد تجد من يستضيفك في منزله ويقدم لك ما لذ وطاب من الطعام وربما يتعدى ذلك ليذبح لك شاة لضيافتك.
وهذه حقائق ليست من نسج الخيال ترتبط بأفراد وربما مجموعات في المجتمع الأمريكي. إلا أنني لم أشعر مطلقاً بأن هناك مؤسسة اقتصادية في أمريكا خاصة تلك التي تتعامل على المستويات الدولية تمارس فضائل إنسانية بعيدة عن الاطار الاقتصادي.

ونحن في السودان لا نتطلع لأمانة الغرب وصدقه والتزامه بالمواعيد وغيرها لأن هذه الفضائل هي في الأساس من طبيعة تقاليدنا وتراثنا المستوحاة من ديننا الحنيف الاسلام ونمارسها من أجل كونها فضائل إنسانية. لكننا ومع الأسف بدأنا ننحرف عنها جرياً وراء الكسب المادي. ولو مارسناها كما ينبغي لعادت علينا بالخير المادي والاجتماعي معاً. ورغم أن الغرب يمارسها من أجل المادة فقط كما أعتقد فقد خففت كثيراً من الصورة القاتمة التي كانت ستبدو بها مجتمعاته المليئة بالقلاقل الاجتماعية الأخرى. ولولا هذه الفضائل لقاسى المجتمع الأمريكي الويل من وجهة النظر الاجتماعية.

وما شأن جامعة ويسكونسن نفسها؟ هل هي الأخرى شركة تجارية لدر الأرباح عن طريق التعليم؟ بالطبع لا. فهناك أساتذة وعلماء في هذه الجامعة يقدمون علمهم ليستفيد به الآخرون خاصة أبناءهم، لكنها أيضاً لا تنجو من الدوران في بوتقة المادة وفلسفة الربح والاقتصاد. فالجامعة تقدم لطلابها خدمات جيدة لكنها تمتص جيوبهم بصورة رهيبة. أما الطلاب الأجانب فشأنهم شأن آخر. فهم مصدر غنى لتمويل الجامعة. فالطالب الأجنبي في جامعة ويسكونسن-ماديسون والذي يحضر لدراسات عليا يدفع في الفترة الدراسية الواحدة (حوالي أربعة أشهر في السنة) ما يقارب الألف وخمسمائة دولار مصاريف دراسية فقط، غير قيمة الكتب والسكن والأكل وغيره*.

ولكي يقضي الطالب سنة دراسية في هذه الجامعة عليه أن يدفع قيمة فترتين دراسيتين بالاضافة للفترة الصيفية. وتبلغ الجملة ما يزيد عن الثلاثة ألف وخمسمائة دولار وهي بالتقريب ما يزيد عن الألف جنيه سوداني مصاريف دراسية فقط للسنة. وهناك قوانين واضحة وصريحة تلزم

(*) المصاريف الدراسية بجامعة ويسكونسن-ماديسون مثلها مثل السلع الأخرى في تضخم وارتفاع مستمر ومخيف. فعند حضوري عام ١٩٧٤ كانت المصاريف الدراسية للفترة الواحدة هي ١٣١٧ دولار ظلت في ارتفاع مستمر حتى وصلت في سبتمبر عام ١٩٧٨ إلى ½ ١٧٩٢ دولار لطالب الدراسات العليا الأجنبي.

الطلاب الأجانب وغيرهم بالمكوث فترات مطولة لأخذ الكورسات سواء أكنت أو لم تكن من النابغين، وهي قوانين تتعلق بالبقاء في الجامعة (Residency) وتضمن الجامعة من خلالها تمويلاً مستمراً من طلابها. في بعض الجامعات الأمريكية لا يعترفون بالشهادات فوق الجامعية من جامعات غير أمريكية كالماجستير من جامعة الخرطوم ويلزمون حاملها بتحضير ماجستير أخرى رغم أنهم يعترفون بدرجة البكالوريوس من جامعة الخرطوم. وكثير من الزملاء الذين قابلتهم لا يجدون تفسيراً مقنعاً لذلك وأنا شخصياً لا أود أن أفسر ذلك في الاطار الاقتصادي فقط*.

كثير من زملائي في أمريكا كانوا يجادلونني بأن هذه المصاريف مقبولة إذا قيست بالعلم الذي يستفيد به الطالب. وربما يصح هذا الرأي بالنسبة للكليات العلمية والرأي أولاً وأخيراً لمن درسوا فيها. أما في كليات العلوم الاجتماعية فهناك كورسات يمكن أن توصف بأنها قيمة للغاية لكن هناك كورسات خاصة بالنسبة للطالب الأجنبي لا تعني له الكثير خصوصاً إذا

(*) جامعة ويسكونسن تمارس بعض النشاطات الاقتصادية حيث أنها تملك ودائع تقدر بالملايين في عدة مرافق اقتصادية داخل الولايات المتحدة الأمريكية تدر عليها الأرباح. ففي خارج أمريكا تملك جامعة ويسكونسن ودائع يقارب حجمها العشرين مليون دولار منها ما يزيد قليلاً عن التسعة مليون دولار في جنوب أفريقيا (حسب التصريحات الرسمية لمجلس الجامعة ونشرات المنظمات الطلابية المختلفة). وهو جزء من مبلغ يقارب الأربعة بلايين دولار عبارة عن ودائع تستثمرها المؤسسات الاقتصادية المختلفة للولايات المتحدة الأمريكية في جنوب أفريقيا فقط وتدر عليها الأرباح (راجع نشرة ماكسا بجامعة ويسكونسن-ماديسون، العدد رقم٦٨ -صفحة٣ الصادر في ديسمبر عام ١٩٧٧- مرجع رقم١٥). وقد أثارت ودائع جامعة ويسكونسن في جنوب أفريقيا ثائرة الطلاب بالجامعة وظلت المظاهرات الطلابية الصاخبة تتوالى في كل فترة دراسية مطالبة بسحب هذه الودائع ومنددة بالنظام العنصري الفاشستي في جنوب أفريقيا. وأكثر من مرة اقتحم الطلاب إجتماعات مجلس الجامعة كأسلوب للضغط على ذلك المجلس لسحب هذه الودائع والتي يراها الطلاب كمصدر لبلاء المواطنين الأفارقة في ذلك الجزء من القارة الأفريقية. وقد نجح الطلاب في ذلك حيث قرر مجلس جامعة ويسكونسن التخلص من هذه الودائع وبيعها في اجتماعه المنعقد يوم الجمعة ١٠/٢/١٩٧٨ بعد الضغط المتواصل الذي مارسه الطلاب على ذلك المجلس. تجدر الاشارة إلى أن هذا الأسلوب هو نفس الأسلوب الذي مارسه الطلاب في جامعة كاليفورنيا-بيركلي في تاريخ سابق للضغط على مجلس جامعة بيركلي للتخلص من ودائعه التجارية في جنوب أفريقيا وقد نجحوا أيضاً في ذلك.

كنت طالباً أفريقياً وشاء لك حضور كورس يدرسونك فيه أبحاث تجري لمعرفة هل الأفارقة قابلون للتعليم أم لا؟ وبمعنى آخر هل الأفارقة أناس أم حيوانات؟ وأكيد هناك من الحيوانات ما يتعلم. وربما يصح رأي كثير من أصدقائي بأن خدمات الجامعة مثل المكتبة والاضاءة والمباني والعمال والموظفين وغيره تتطلب هذه المصروفات الباهظة. لكنني كنت أعتقد بأن هذه الأموال والتي تصرف علينا كطلاب سودانيين في جامعات أمريكا عبر السنين كافية لأن تبني لنا جامعة في السودان بأجهزتها ومعداتها بمستوى جامعة ويسكونسن علمًا بأن عدد الطلاب السودانيين في أمريكا في سنة ١٩٧٥ كان يقارب المائتين وخمسين طالباً تدفع حكومة السودان لدراستهم فقط في سنة واحدة ما يقارب ربع المليون جنيه سوداني جانباً عن ربع مليون جنيه أخرى لعلاواتهم الموحدة غير التأمينات الصحية وتحاويل مرتباتهم وأبحاثهم وتذاكر سفرهم وامتيازات أخرى مثل شحن العفش وغيره، لهم ولأسرهم.

وللحق أقول لولا بعض المعاملات المخلصة الطيبة من بعض الأساتذة في جامعة ويسكونسن-ماديسون وآخرين من خارج الجامعة ولولا إحتكاكي بفئة قليلة من الأصدقاء الأمريكيين الطيبين لا نطبع في ذهني أن أمريكا ليست سوى مؤسسة اقتصادية كبيرة توجه جهودها المكثفة نحو الربح-والربح فقط. وإن كنت سودانياً في أمريكا فأنت تتعامل مع تلك المؤسسة الاقتصادية والتي يهمها في المقام الأول أن تكسبك كزبون. فهي توزع لك الابتسامات يميناً وشمالاً وتقدم لك من الخدمات الجيدة والممتازة لكنها لا تتورع عن ركلك متى ما اتضح خواء جيبك حتى لو كنت زبوناً مستديماً لسنوات وشاء حظك العاثر أن تعلن الافلاس.

وبالطبع، لا اعتراض أن يركلك التاجر إذا لم يكن جيبك منتفخاً لكن لا بد أن تُقيِّم التاجر كتاجر وتتعامل معه على هذا الأساس. ولك الحق أن تتساءل هل أرباحه قانونية؟ ومن يدري فربما تكون هناك خسارة في تجارته ليكسبك كصديق وتلك صفة إنسانية تندر حتى في مجتمعاتنا

الشرقية الانسانية ناهيك عن الغرب بطابعه المادي إلى الحد الكبير. وبما أنني لست سياسياً لأخوض في هذا الجانب فإنني لا أود أن أفسر شؤون أمريكا الخارجية بأنها مرتبطة بالمنفعة المادية فقط، وبنفس القدر يجانب رأيي الأمانة لو قلت أن أمريكا دولة تسعى لنشر العدل والانسانية والصداقة. فأنا لم أتحسسها هناك في الكثير من معاملاتي في داخل الجامعة أو خارج الجامعة أو في أي مدينة أخرى، بل كان الطابع الغالب هو علاقة زبون مشتر وبائع بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان. وربما يخالفني الرأي من مارسها هناك.

وهنا يجدر أن أشير لشيء أذهلني تماماً. ففي مطار ماديسون بولاية ويسكونسن وفي الشهور الأولى لمجيئي لأمريكالاحظتأن دورات المياه والتي يقضي فيها الانسان حاجته مغلقة ولا يستطيع الانسان الدخول فيها إلا إذا دفع مبلغ عشرة (سنتات) أي ما يعادل الثلاثة قروش سودانية. وإذا لم يكن في جيبك هذا المبلغ وكنت في حاجة ماسة لاستعمال دورة المياه فلا أمل لك في استعمالها. لكن بعد حوالي سنة من ذلك التاريخ رجعت لنفس المطار لأجد أن هذا النظام قد ألغي، أما لماذا ألغي هذا النظام؟ فهذا ما لم أجد تفسيره*.

(*) في أمريكا اليوم كتاب أمينون وصادقون للحد الكبير خاصة تلك الفئة من الكتاب المرتبطة بالمؤسسات التعليمية العليا كالبروفسيرات والباحثين بالجامعات الأمريكية. وهي فئة يمكن أن يطلق عليها - في تقديري وبدون تحفظ- ضمير المجتمع الأمريكي، يتحسس الانسان وجودها في شتى مجالات البيئة الأمريكية. ففي مجال دراسات سياسة التعليم بصفة خاصة هناك كتاب مثل مايكل كاتز وشارلس سيلبرمان ومارتن كارنوي وغيرهم رفعوا أصواتهم عالية وبشجاعة تطالب برفع الظلم في بعض نواحي المجتمع الأمريكي وإدانة أنظمة التعليم المبنية على الأسس العنصرية وتدعيم المؤسسات التعليمية في الدول النامية لزرع بذور الفكر الرأسمالي الغربي فيها. وقد أسهب مارتن كارنوي خاصة في كتاباته في تدخل أمريكا في دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مشيراً إلى أن المساعدات المادية التي تقدمها أمريكا لهذه الدول ليست سوى نوايا خفية للتغلغل الاقتصادي البحت وتعبيد الطريق للشركات والمؤسسات التجارية لخلق الأسواق وتضخم الأرباح ولا علاقة لها بالنظرة الانسانية على الاطلاق. ويمكن للقاريء الكريم استعراض هذه الأفكار في كتاب كارنوي (مرجع رقم١ -الأبواب ٦و٧ -صفحات ٢٧٠-٣٤١).

وهنا أرجو أن أوضح بأنني لا أعني أن أهاجم أمريكا إطلاقاً. فأنا أحترم هذه الدولة غاية الأحترام وأقدر جهودها المكثفة لاسعاد أبنائها. فهي تعمل ما بوسعها في مساعدتهم سواء أكان ذلك من النواحي الاجتماعية أو التكنولوجية أو الصناعية. لكنني وددت أن أسطر بأمانة ما عايشته بوصفي أجنبياً في هذه الدولة وأرى أن هناك التزاماً أخلاقياً يفرض علي أن أقول الحقيقة كما أراها. فأنا أهتم بأموال بلادي كما يهتم الأمريكيون بأموال بلادهم لدرجة (البسنتات). ونحن في السودان ربما لا نهتم بنفس القدر بالمال إذا كنا نتطلع للانسانيات والصداقات. وربما تقدم لنا دولة -وليس بالضرورة أمريكا- خمسين منحة دراسية فنهلل ونكبر ولا نفطن للعقود التجارية التي تفرضها علينا هذه المنح وتجعلنا نرزح تحت وطأة الأسعار الباهظة دائرين في فلك أسواق الدول الصناعية الديمقراطية وغير الديموقراطية. إن تجربتي في أمريكا أكدت لي بما لا يدع مجالاً للشك أن أمريكا لا تقدم باليمين إلا لتأخذ الأضعاف بالشمال ولا تبتسم إلا لمن ترى فيه منفعتها كما أن قاموسها يخلو تماماً من أشياء تسمى بالمجاملة والمساعدات والانسانيات. وإن كنت من المعجبين بأمريكا فلك أن تسمي ذلك بالواقعية والجدية... و... و... في العمل*.

في رأيي أننا في السودان يجب أن نتعامل مع الغرب وخاصة أمريكا بنفس مفهومه وهو مفهوم الماديات والأرباح. ولنترك جانباً عواطفنا وإنسانياتنا لأنفسنا لأن طبيعة أنظمته الاقتصادية لا تعرف المجاملة والانسانيات والمساعدات وأن نضع في أذهاننا دائماً أن مؤسساته مبنية أساساً على فلسفة الاقتصاد والربح كما أن أسلوب بعض مؤسساته التي

(*) يرى الكاتب الأمريكي مارتن كارنوي أيضاً أن الاستعمار الأمريكي للأمريكيين السود كان له تأثير في بلورة المفاهيم الأمريكية لاستعمار شعوباً ملونة أخرى. فمع بداية هذا القرن عمل الرجل الأبيض الشمالي في أمريكا على تطوير الولايات الجنوبية -مركز تجمع الأمريكيين السود- بهدف خلق أسواق للمنتجات الصناعية بجانب إستغلال الأيدي العاملة الماهرة والرخيصة هناك. وهذه الأهداف -كما يرى كارنوي- هي نفسها أهداف الولايات المتحدة الأمريكية في تقديم المساعدات لمناطق العالم المتخلفة. (راجع كتاب كارنوي «التعليم كإستعمار بيئي»، مرجع رقم٢٩، صفحتي ٢٩٩-٣٠٠).

تتعامل على المستويات الدولية هو أسلوب الطعم والاصطياد حتى لو كانت مؤسسات تعليمية. ولا مانع أن نبعث بأبنائنا للدراسة والتدريب، وأن نستورد المعدات والآلات وأن نوقع العقـودات وغيرهـا لكن لابد أن يتحكم عقلنا في عواطفنا السودانية المتدفقة وأن نتعامل مع التاجر كتاجر وأن نترك بضاعته متى ما اتضح أنها تستنزف أموالنا في حين أنها ترخص وبنفس النوع عند غيره.

ولنترك جانباً شعارات الصداقات والمساعدات والانسانيات وليحل محلها مراعاة مصالح دولتنا وخاصة الاقتصادية مهـما كثرت ابتسـامات المؤسسات والبيوتات الأجنبية خاصة الغربية منها ومهما امتدت أيديهـا لتصافحنا باسم المحبة والصداقة. خلال وجودي في أمريكا كنت كثيراً ما ألتقي بكبار المسؤولين السودانيين الذين يأتون لاجراء بعض المعاملات سواء أكانت اقتصادية أو تعليمية أو غيرها. وكنت كثيراً ما أبدي رأيي بأننا يجب أن نبعد عن أذهاننا فكرة أن أمريكا ستساعدنا كدولة نامية وعلينا أن نتعامل بمفهوم البائع والمشتري ولا داعي لارهاق أنفسنا لاهثين سعياً وراء سراب يستنزفنا ولا ندركه. فلو كانت أمريكا تتعامل بمفهوم المساعدات والانسانيات لما كان هناك أحياء فقر وألم في أماكن تجمعات الأمريكيين السود (أحياء السود الفقيرة Ghettos) وأحياء فقيرة أخرى للمكسيكيين الأمريكيين (Chicanos) ومجمعـات للهنود الأمـريكيين (Reservations) في الولايات المختلفة وهي مجمعات سكنية تضم الملايين لو دخلها الانسان (وخرج سالماً) لخيل إليه أنه قد زار أفقر الأحياء في أفقر أقطار هذه الأرض.

وللتدليل على مشكلة الفقر في الولايات المتحدة أرجو أن يسمح لي القاريء الكريم بأن أستعرض الآتي. ففي عام ١٩٧٣/٧٢ أصدرت هيئة التعليم لحملة تطور الانسان بواشنطون دي.سي. كتيباً بعنوان «الفقر في أمريكا»-(مرجع رقم٢٤) حوى دراسة عن مشكلة الفقر في الولايات المتحدة مدعمة بالأرقام. فقد ورد في هذا الكتيب أن هناك خمسة وعشرين

وستة من عشرة (٢٥,٦) مليون فقير في الولايات المتحدة عام ١٩٧٢. وقد عرف الكتيب الفقر بأنه يعني عدم إمكانية الحصول على طعام ومسكن وملبس وعناية طبية.

أشار الكتيب إلى أن هناك عدداً قليلاً نسبياً من المتسولين في الشوارع أو الأطفال الذين تبدو عليهم مظاهر سوء التغذية في الولايات المتحدة. والفقر في الولايات المتحدة غريب لأنه مغطى (Covered Over) بمعنى أنه غير ظاهر لغير المستوطنين. لكن هناك حقيقة هامة وهي أن أربعة عشر (١٤) مليون أمريكي (رقم يعادل تعداد سكان مدينتي شيكاغو بولاية إيلينوى وفيلادلفيا بولاية بنسلفانيا) يأوون إلى فراشهم كل ليلة وبطونهم خاوية من الجوع، كما أن هناك ثلاثة وعشرين ونصف (٢٣,٥) مليون أمريكي يعانون من سوء التغذية (راجع كتيب «الفقر في أمريكا» -مرجع رقم٢٤- صفحة٧). وأكد الكتيب ثانية أن مشكلة الفقر في أمريكا لا تجد الاهتمام من قبل وسائل الاعلام المختلفة ولذلك فهي مختفية كما أن المجتمع الأمريكي قدم القليل ليساعد الفقراء الأمريكيين وعمل الكثير لاخفائهم. وقد تطرق الكتيب إلى إبراز دخل الفرد الأمريكي الفقير في العام مشيراً إلى أن الحكومة الفيدرالية قد وضعت مبلغ خمسة ألف وخمسمائة (٥٥٠٠) دولار وأقل كمقياس لدخل الأفراد الفقراء في العام وهو مبلغ لا يمكن الفرد من إيفاء حاجياته الضرورية من سكن وملبس وتغذية وعناية طبية مع مراعاة أن الطقس خاصة فصل الشتاء في هذه المنطقة من العالم يتطلب تدفئة معينة ولبساً معيناً وغذاء معيناً وعناية طبية خاصة.

وقد أشار الكتيب إلى برامج الحكومة الفيدرالية لمساعدة الفقراء مثل حملة لجنة الجوع (Hunger Commission) وبرامج الرخاء (Welfare Programs) والعون القانوني (Legal Aid) والحرب على الفقر (War on Poverty) وبرامج المجتمع للعمل (Community Action Programs) وقد خلص الكتيب إلى أنه ورغم كل هذه المنظمات الفيدرالية لمساعدة الفقراء فهي لا تصل سوى لنصف تعداد الفقراء وتبقى حقيقة أن هناك أربعة عشر (١٤) مليون

أمريكي يعانون من الجوع كل يوم في أمريكا وهي مصدر خجل قومي. أما برامج الرخاء الأمريكي فهي لاعطاء مساعدات نقدية للمحتاجين لهذه المساعدات.

وقد اتضح أن تسعة وأربعين وستة من عشرة في المائة (٤٩,٦٪) من الذين يتقاضون منح الرخاء من الأمريكيين البيض كما أن ستة وأربعين وثلاثة من عشرة في المائة (٤٦,٣٪) من الذين يتقاضون هذه المنح هم من الأمريكيين السود وأربعة وواحد من عشرة في المائة (٤,١٪) من أجناس مختلفة. وقد أوضح الكتيب أن الفقراء في أمريكا لا يجدون ما يكفي من الطعام والمسكن والملبس والعناية الطبية. أما المسكن الفقير فهو يزيد من المشاكل الصحية بين الفقراء. فهم يعانون من حرارة الصيف وزمهرير الشتاء ووجود الفئران والازدحام وعدم وجود وسائل التنظيف مما يؤدي إلى ارتفاع أمراض الرئة ومرض الأنفلونزا والدوسنتاريا وأمراض أخرى. كما أن الأطفال يأكلون أحياناً الطلاء المنزوع عن جدران المباني مما يؤدي بهم إلى تسمم الرصاص (Lead Poisoning).

وقد اتضح من إحصاء أجري في الولايات المتحدة عام ١٩٧١، أن هنالك ما بين ٢٠٠٠-٤٠٠٠ طفل فقير في مناطق المدن بالولايات المتحدة يعانون سنوياً من تدمير متوسط إلى عنيف في المخ من جراء تسمم الرصاص (راجع كتيب «الفقر في أمريكا» -مرجع رقم٢٤- صفحة١٨). وقد أضاف الكتيب أن منازل الفقراء في أمريكا تعاني من تسرب المياه من السقوف عند نزول الأمطار. وقد أورد الكتيب إحصائيات عن احتياج الفقراء للمنازل كما أورد إحصائيات عن الفقراء أنفسهم في أمريكا كما يلي:

٦٠٪ من الفقراء في أمريكا من البيض.
٣٠٪ من الفقراء في أمريكا من السود.
٨,٥٪ من الفقراء في أمريكا من المتحدثين بالأسبانية.
١,٥٪ من الفقراء في أمريكا من الهنود الأمريكيين.

وخلال وجودي في مدينة ماديسون قابلني أكثر من أمريكي فيهم

الأبيض وفيهم الأسود يطلبون (شيء لله) بطريقة عصرية كأن يسألونك إعطاءهم مبلغ خمسة وعشرين (سنتاً) أي ربع دولار لشراء ساندوتش من (مرطبات ماكدونالد). وأنت كسوداني طيب لا تشعر إلا ويدك في جيبك لتتصدق على شخص في أمريكا ليشتري ساندوتشاً صغيراً من (مرطبات ماكادونالد).

وفي سياق حديثي عن المساعدات والانسانيات الغربية بصفة عامة هناك شيء هام لا أود أن يفوتني. وهو أننا في السودان كثيراً ما تتعدى حدود مجاملاتنا الأطر الشخصية لتدخل في بعض الأحيان في المعاملات الرسمية على مستوى الدولة. فحينما نجري عقودات رسمية ربما لا نتمسك كثيراً بالشكليات وبأدق التفاصيل في العقودات التي تتم مع المؤسسات الغربية خاصة وأننا واقعون تحت وهم أن الغرب يساعدنا لنتقدم. وفي رأيي أننا يجب أن نتمسك بأدق التفاصيل في هذه العقودات وألا نترك فيها الثغرات التي تمكن المؤسسات أن تنال منا.

فهنا في أمريكا لاحظت أن بعض رجال الأعمال الأمريكيين يتمسكون بأدق تفاصيل العقودات مثل إيجارات المنازل ولا يتورعون مطلقاً عن الجري للمحاكم لاستخلاص الأموال في أبسط الأشياء وفي أصغر البنود ربما لا ينتبه لها الانسان أثناء إجراء هذه العقودات والتي تتم في جو من الظرف واللطف والابتسامات والتي تأسر قلب الانسان خاصة الانسان السوداني الطيب الودود بطبعه. ولحسن الحظ لم تحدث لي تجربة شخصية ذات أهمية في هذا الجانب لكنني عاصرت تجارب في هذا الجانب لزملاء آخرين. وكثيراً ما كنت أتألم حينما أسمع من أحد القادمين من السودان أن مؤسسة أجنبية ما تعمل في السودان قد رفعت قضية بعدة ملايين ضد حكومة بلادنا لأن هناك بنداً صغيراً في صياغة العقد له تفسير آخر غاب عنا في بداية توقيع العقد وفي جو الظرف واللطف والابتسامات. وبالطبع لست في حاجة لأن أعيد قصة قرار مجلس الأمن الشهير رقم٢٤٢ والذي صاغه اللورد كارادون ممثل بريطانيا في الأمم المتحدة إبان حرب عام

١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل. وكان النص خروج إسرائيل من «أراضي عربية احتلتها بعد عام ١٩٦٧» ودارت الأيام ليفسر القرار بخروج إسرائيل من «أراضي» وهي جزء وليس «الأراضي» والتي تشمل الكُل!!.

التحفظ والحذر

في أوائل شهر يونيو عام ١٩٧٧ رحل من الغرفة المجاورة لي الشاب الأمريكي راندي وسكن مكانه شاب أمريكي أبيض إسمه ستيف فان دايك وهو يحضر لدراسات عليا في اللغة الروسية وهو شاب مهذب وهادىء. وقد قضى ستيف حوالي الشهرين في المنزل رحل بعدها ليسكن مكانه شاب مسلم من أندونيسيا يسمى بالاواروكا. كما رحل من المنزل، أيضاً هايلي الشاب الإريتري في نفس هذا التاريخ.

وخلال رحيله من المنزل أوصاني أن أتصل بصاحبة المنزل الذي نسكن فيه وإسمها المسز آقنيس شميد لآخذ منها مال التأمين الذي يدفعه المستأجر قبل سكنه ويأخذه بعد الرحيل وهو مبلغ عشرون دولاراً، أي ما يعادل بالتقريب السبع جنيهات سودانية. وقد أوصاني هايلي بأن أحتفظ بهذا المبلغ إلى حين عودته بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأخذه. وقد أخطرت صاحبة المنزل بهذه الوصية وأبلغتها بأنني لا أمانع في الإحتفاظ بتأمين الصديق هايلي إلى حين عودته، وفوجئت برفضها إعطائي إياه. فهي كما بدا تفتقد الثقة الكافية لتعطيني ذلك المبلغ وتود إعطاء التأمين لهايلي شخصياً. وبعد فترة يومين عرفت بأن هايلي قد إتصل بها تليفونياً وطلب منها إعطائي المبلغ ذاكراً لها بأننا أصدقاء وهو يثق بي. فما كان منها إلا أن أتت وهي تحمل ورقة وتطلب مني التوقيع عليها وهي تشير إلى استلامي المبلغ. وقد ذكرت لي صراحة بأنني سأكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة إذا صرفت هذا المبلغ وإستخدمته وسيكون عليّ إعطاؤه لهايلي.

ورغم أن مثل تلك الألفاظ تحز في نفس الإنسان، وخاصة بالصورة الجافة التي ذكرتها هذه المرأة فقد رفضت بكل تهذيب التوقيع على أي ورقة مشيراً إلى أنني لا أرغب في إستلام أي مبلغ منها. وذكرت لها بأنها ليست مجبرة على إعطائي هذا التأمين إذا لم تكن تثق فيّ رغم أنني عشت في منزلها قرابة السبعة أشهر ولم يبدر مني مطلقاً ما يشير إلى عدم الأمانة. كما ذكرت لها بأنني لست لصاً لأستخدم مبلغ عشرين دولاراً وهو مبلغ أصغر من أن يكون مبعثاً لما أسمعتني إياه من كلمات. وقد غادرت هذه المرأة المنزل وكأنها لم تجرح شعور أي إنسان وكأن شيئاً لم يكن.

وأمثلة العواطف المتحجرة عند بعض الأمريكيين موجودة. فقد قابلت بعضاً منهم وكأنهم آلات لا يثيرهم شيء ولا تحركهم مشاعر إنسانية. وإذا إبتسموا فإبتساماتهم باهتة لا تعدو أن تكون قبضات وتوسعات في عضلات الفم لا علاقة لها بمشاعر القلب. وفي بعض المؤسسات والشركات الأمريكية فالإبتسامة مسألة عرفية يتداولها الأفراد من أجل الربح مثلها مثل تأدية الأعمال الأخرى وليست بالضرورة تعبير عن ترحيب صادق.

أما مسألة الثقة في الحياة العامة للمجتمع الأمريكي فقد كانت موضوع لنقاش كبير في إحدى المحاضرات بشعبة دراسات سياسة التعليم بالجامعة خلص فيه معظم الطلاب (الأمريكيين والأجانب) إلى أن الأمريكيين لا يثقون في بعضهم البعض مطلقاً ويعيشون في حذر ويتحفظون لحد كبير في علاقاتهم مع بعض ناهيك عن ثقتهم بالأجانب والأغراب وهو الشيء الذي سمعته من كثير من الأصدقاء والزملاء الأمريكيين وأشار له أستاذي البروفسير جون ثومبسون في كتابه «أساسيات التعليم المهني: أفكار فلسفية واجتماعية» - (مرجع رقم ٣٢). وعلى ذلك فلا غرابة أن تتحفظ تلك المرأة في إعطائي مبلغاً صغيراً من المال لأعطيه لأحد أصدقائي. فهي لا تثق في أبناء جلدتها من الأمريكيين ناهيك عن

شخصي الغريب وربما الفقير في نظرها. فهي لا تعرف سوى أنني من دولة (متخلفة) لم تسمع بها قبل أن آتي لأستأجر غرفة في منزل لها تملكه.

وقد أخبرني بعض زملائي الأجانب والذين أتيح لهم السفر لولايات مختلفة في أمريكا بأن كثيراً من المدن الأمريكية تعج بالمحتالين والمجرمين مما جعل المواطنين الأمريكيين يعيشون في حذر شديد في حياتهم داخل منازلهم وحتى في سيرهم في الطرقات العامة. وقد أخبرني أحد أصدقائي العرب بأنه كان يبحث عن مبنى معين في إحدى الولايات الشرقية المركزية وبدأ يسأل في الطريق. وفوجيء ببعض الناس يتحاشون الوقوف معه ويفضلون الإبتعاد مسرعين في سيرهم.

وفي الواقع لا غرابة أن يعيش المواطنون الأمريكيون في ذلك الحذر. فخلال وجودي في أمريكا عايشت عدة أحداث حدثت في ولايات أمريكية مختلفة جذبت الرأي العام الأمريكي على المستوى القومي وكان لها وقع مؤلم على المواطنين الأمريكيين بمختلف هويتهم. فقد ظهر في مدينة نيويورك قاتل يطلق عليه «إبن سام Son of Sam» كان يستخدم مسدس عيار ٤٤ حيث إشتهر به وأصبح إسمه «قاتل المسدس عيار ٤٤». كان هذا القاتل يقتنص ضحاياه في المنتزهات العامة مساء حيث تمكن من قتل سبع فتيات كانت كل واحدة منهن ترافق صديقها في نزهة أو لقاء عاطفي. وفي مدينة لوس أنجلوس بكاليفورنيا وفي ضاحية هوليوود ظهر قاتل يدعى «خناق جانب التل Hill Side Strangler» كان يقتل ضحاياه بالخنق. وقد تمكن هذا القاتل من قتل ثلاثة عشر ضحية كلهن فتيات أو نساء. وفي إحدى ضواحي مدينة ديترويت بولاية ميتشجان ظهر قاتل قتل أربعة أطفال، ولدان وبنتان. وقد كشفت التحليلات الطبية بأنه قد تعدى جنسياً على الولدين ولم يتعد على البنتين.

وفي بلدة كولومبس بولاية جيورجيا ظهر قاتل قتل سبع نساء عواجيز في سن السبعينات والثمانينات يعشن لوحدهن بالخنق. وفي بلدة أوكلاهوما

بـولاية أوكـلاهومـا أقامت إحـدى مدارس البنـات الثـانـويـة العـامـة معسكراً صيفياً لمجموعة من أفراد الكشافة بتلك المدرسة. وفي إحدى الليالي تعدى مجهول على إحدى خيام ذلك المعسكر وانهال ضرباً حتى الموت على ثلاث بنات صغار أكبرهن في سن الثالثة عشرة وأوسطهن في سن الحادية عشرة وأصغرهن في سن الثامنة. وقد اكتشفت جثثهن صباح اليوم التالي على بعد عدة أمتار من خيمتهن.

وكما ذكرت سابقاً فإن جميع مصادر تمويل دراستي قد انقطعت منذ يناير ١٩٧٧ عدا توفيري الخاص والذي بدأ يتناقص بشدة خاصة بعد أن دفعت مصاريف دراستي لفترة الربيع الدراسية لعام ١٩٧٧ وهو مبلغ يقارب الخمسمائة دولار جانباً عن المبالغ التي كنت أصرفها شهرياً لطعامي وسكني واحتياجاتي الأخرى والتي تقارب الثلاثمائة دولار في الشهر. وفي شهر يوليو عام ١٩٧٧ حصرت المبالغ التي صرفتها منذ إنقطاع تمويل دراستي منذ يناير عام ١٩٧٧ فوجدتها قد زادت عن الألفي دولار بعد تقشف شديد وأنا لم أكمل دراستي بعد. وشعرت بأن دراستي قد إمتصت كل ما أملك من مال بعد أن أخذت من حكومة بلادي أضعاف هذا المبلغ إبان تمويل بعثتي لدرجة الماجستير عن طريق الحكومة(*). وكان ينتابني أمل بأنني سأتلقى مساعدة مالية في يوم ما لأواصل دراستي، والتي لم يتبق لها الكثير لتنتهي. خاصة وأن درجاتي تضعني في مصاف الطلاب الجيدين في الجامعة.

ولمرة أخرى طرقت أبواب المؤسسات الأمريكية المختلفة آملاً أن أجد مساعدة. وكان الرفض مؤلماً في كل مرة لكنه كان أكثر إيلاماً لحظة إستلامي خطاب الرفض من كلية الدراسات العليا بجامعة ويسكونسن - ماديسون والتي ظللت بها فترة السنتين ونصف دفعت فيها

(*) مبلغ الألفي دولار يعادل بالعملة السودانية في ذلك الوقت حوالي السبعمائة جنيه سوداني يمكن للمبعوث أن يوفرها خلال سنين دراسته وتساعده عند نهاية البعثة في شراء عربة أو معدات منزلية أخرى وهدايا لأهله في السودان.

حكومة السودان الأموال الطائلة لدراستي ولم أقصر أنا الآخر في دفع الأموال الطائلة لأواصل دراستي. كان خطاب الرفض مهذباً للغاية ويشير إلى شيئين:

الشيء الأول هو أنني لا شك أعتبر في عداد الطلاب الجيدين في الجامعة والمستحقين للمنح الدراسية.

الشيء الثاني هو أن جامعة وسيسكونسن لا تملك أي أموال حالياً لتصرفها عليّ لأواصل دراستي.

ورغم أنه لم يتبق لي سوى فترة دراسية واحدة لأجلس للإمتحان التحريري الأولى للدكتوراة قبل أن أبدأ بحثي النهائي فقد قررت عدم دفع أي مليم أخرى لجامعة ويسكونسن من توفيري الخاص والذي هو الأخر لم يتبق فيه الكثير بعد إستنزافه. وقررت التقديم لجامعات أخرى في الولايات المتحدة طالباً منحة دراسية تمكنني من مواصلة دراستي للدكتوراة، وقد طالبتني معظم الجامعات التي قدمت لها بمصاريف التقديم قبل أن تدخل في مجرد نقاش معي. ومصاريف التقديم كانت تتراوح ما بين ١٠-١٥ دولاراً (حوالي ٣-٥ جنيهات سودانية).

بعض الجامعات إبتلعت مصاريف التقديم وطالبتني بالجلوس لإمتحانات خاصة قبل أن تواصل النظر في شهاداتي وطلبي. بعض الجامعات أشارت لي بصورة غير مباشرة بأنني أرنو لشيء شبه مستحيل وهو أن تدفع الجامعة أموالاً لطالب أجنبي ليدرس فيها. أما تلك الجامعات التي فكرت في أن تدخلني مع المتنافسين للمنح الدراسية فقد إشترطت على الجلوس لإمتحان يسمى(ميلر أنلوقيس تيست -Miller Analo gies Test) وهو إمتحان لا أجد وصفاً له سوى أنه تعجيز بالحرف الواضح للطالب الأجنبي إذا فكر في طلب منحة دراسية. وبالطبع تحت الضغط وكالغريق المتشبث بقشة فقد قررت الجلوس لهذا الإمتحان وهو إمتحان يعقد على المستوى القومي للولايات المتحدة الأمريكية في تواريخ مختلفة.

وقد إتصلت بالمركز الرئيسي لإدارة هذا الامتحان في نيويـورك ووجهت للجلوس له في المركز الفرعي بجامعة ويسكونسن - ماديسون وقد طلب مني مبلغ سبع دولارات أي ما يعادل جنيهين أو ثلاثة لمجرد الجلوس لهذا الإمتحان وأخطرت بأن درجاتي في هذا الإمتحان سترسل إلى ثلاث جامعات فقط. أما إذا رغبت أن أرسل درجاتي إلى جامعات أخرى فعلى دفع مبلغ دولارين (حوالي الستين قرشاً سودانياً) عن كل عنوان أقدمه لترسل له الدرجات - مع ملاحظة أن طابع البوستة لإرسال الدرجات في أمريكا لا يزيد ثمنه (في تلك الفترة) عن ١٣ (سنت) أي ما يعادل بالتمام والكمال أربعة قروش وستة ملاليم ونصف سودانية.

ورغم أنني جلست لإمتحانات مختلفة في جوهرها خـلال حياتي الدراسية، منها إمتحانات تحريرية وشفوية على مستوى الماجستير وتحريرية وشفوية على مستوى القبول للدكتوراة بجامعة ويسكونسن - ماديسون، إلا أنني لم أجلس لإمتحان بقساوة إمتحان (الميلر أنالوقيس تيست) وذلك لمجرد أنني طلبت إعانة مالية. أما عندما كانت حكومة السودان هي التي تدفع مصاريف دراستي فلم أسمع بهذا الإمتحان من قبل خلال تقديمي لأي جامعة من جامعات أمريكا. وأي جامعة طلبت مني الجلوس لهذا الإمتحان لم يراودني الشك لحظة بأنها لا ترغب في إعطائي أي إعانة مالية. وعلى العموم لم يقابلني في أمريكا حتى ذلك الوقت وخلال السنتين ونصف السنة التي قضيتها طالب أجنبي نجح في هذا الإمتحان وهذا لا ينفي وجود من نجح. ولماذا جلست لهذا الإمتحان؟ فلا أدري. فقد كنت أدرك مسبقاً الغرض الذكي من وضعه. فهو أولاً مصدر لبعض المال وثانياً تعجيز لمن تراوده نفسه بطلب إعانة مالية خاصة وإن كان الطالب أجنبياً. وأنا على إستعداد أن أقسم بأن هذا الإمتحان لا يستطيع بعض أساتذة وبروفسيرات الجامعات الأمريكية النجاح فيه.

وإنتهت فترة الصيف الدراسية في أواخر أغسطس عام ١٩٧٧ وبدأ الطلاب العودة من إجازاتهم لمواصلة فترة الخريف الدراسية. ولأول مرة

منذ مجيئي لأمريكا أقضي فترة الصيف الدراسية بدون دراسة ومسترخياً في غرفتي أطالع الكتب وأتابع البرامج التليفزيونية. وقد كان يلازمني أمل قوي بأنني سأتلقى فجأة مساعدة في يوم ما لأواصل دراستي حتى ولو من قبل وزارة الزراعة في السودان والتي قطعت تمويل بعثتي لأشهر مضت. وهو شعور يوازي لحد ما تلك الحالة التي يسميها علماء النفس بوهم الخلاص (Delusion of reprieve) كما وردت في كتاب فيكتور فرانكيل (بحث الإنسان عن معنى - مرجع رقم ٧) يتخيل فيها السجين المحكوم عليه بالإعدام قبل تنفيذ الحكم عليه بلحظات أن يأتي خلاصه في آخر لحظة قبل التنفيذ. وكنت لذلك أنتظر وصول البريد في كل يوم بفارغ الصبر لفتح الخطابات من الجامعات التي قدمت لها، وقد كانت كلها تشير إلى عدم إمكانية تقديم أي مساعدة لأواصل دراستي رغم أن بعضها يشير إلى أن شهاداتي تضعني في مصاف الطلاب الممتازين.

وكم كان ألمي شديداً حينما إنتهت فترة الصيف وأنا حائر في منتصف طريق دراستي، لا أستطيع تركها والعودة لبلادي في هذه المرحلة ولا أستطيع المواصلة لعدم وجود تمويل مادي لذلك. وامتزج وهم خلاصي بتصميم حاد بعدم الإنهيار سريعاً والعودة. وآثرت مواصلة جهودي بصبر لإيجاد مصدر لتمويل دراستي وفتحت جبهات جديدة لذلك.

باحث مساعد

في أواخر أغسطس عام ١٩٧٧ بدأ التسجيل لفترة الخريف الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٨/٧٧، وبدأ الطلاب يردون من مناطقهم المختلفة للدراسة. وقد استمر التسجيل لفترة أسبوع حتى اليوم السادس من سبتمبر عام ١٩٧٧. فعدد الطلاب في جامعة ويسكونسن-ماديسون حوالي الأربعين ألف طالب وطالبة يتسجلون في العادة خلال أسبوع قبل بداية الفترة الدراسية. وجامعة ويسكونسن هي في الواقع جامعة ضخمة رئاستها في مدينة ماديسون حيث يقارب عدد الطلاب فيها هناك الأربعين ألف طالب وطالبة لكنها في الواقع تضم بالإضافة لفرع ماديسون إثنتي عشرة جامعة فرعية أخرى تابعة لها في مختلف المناطق بولاية ويسكونسن(*).

وقد إنتهى أسبوع التسجيل للدراسة دون أن أتمكن من تسجيل إسمي كطالب لمواصلة دراستي. ولقد كان حزني كبيراً حين بدأت الدراسة في الأسبوع الثاني من سبتمبر في ذلك العام وبدأ الطلاب يتجهون إلى القاعات المختلفة للمحاضرات وأنا أراقبهم -والحسرة تملأ فؤادي- من زجاج نافذة غرفتي في المنزل رقم ١٨ بشارع أورشارد الجنوبي. وقد كانت تلك من الأيام القاسية حقاً في حياتي ومصدر ذلك أن دراستي والتي تؤهلني للجلوس للامتحان التحريري الأول للدكتوراه لم يتبق لها سوى فترة دراسية واحدة أي ما يعادل ثلاثة إلى أربعة أشهر دراسية

(*) الجامعات الفرعية التابعة لجامعة ويسكونسن موجودة في : هوايت ووتر- أوشكاش- قرين باي- ستيفنس بوينت- ميلواكي- إيبوكلير- لاكروس- باركسايد (كنوشا)- بلا تفيل- ريفرفولز- ستاوت (مينوموني)- سيوبيرير.

فقط. لكنني لا أملك النقود التي تجعلني أواصل دراستي حيث إستنزفتها تقريباً كلها خلال فترة الثمانية أشهر التي انقطعت فيها بعثتي عن طريق حكومة السودان في دفع المصروفات الدراسية وفي المعيشة بأمريكا وبغلائها الرهيب.

ورغم تصميمي الحاد لمواصلة دراستي فقد آثرت أن أتفادى بقدر الامكان العمل في مهن مثل غسل الصحون في المطاعم وفي الطبخ وغيره لأواصل دراستي كما يفعل كثير من الطلاب، وقد فضلت أن أستخدم توفيري الخاص للصرف على نفسي. ولا أنكر أنني وفي أكثر من مرة راودتني الأفكار في العودة للسودان إذا لم أجد منحة دراسية وإذا انتهى هذا التوفير.

وسببي الرئيسي في تجنب العمل في غسل الصحون في المطاعم الأمريكية ليس هو كبرياء زائفاً وعزوفاً عن مواجهة ظروف قاسية تتطلب تشمير السواعد والخوض في معاناة جسمانية لا مفر منها لنيل المطالب خاصة في مجتمع كالمجتمع الأمريكي. إنما السبب هو التزام مبدئي لمفاهيم متحفظة وربما تميل نحو السلبية تجاه المؤسسات الاقتصادية للمجتمع الأمريكي حيث لا يدفع لك دولاراً واحداً في مثل تلك المهن إلا بعد أن تستنزف طاقتك تماماً وربما يستنزف معها جزء من ذاتيتك. وعلى كل لا يملك الانسان إلا التقدير والاعجاب بهؤلاء الاخوة السودانيين الذين تعدوا حواجز الزيف الاجتماعي بتصميم متناه بالعمل في مهن شريفة نختشي نحن في السودان العمل فيها مما مكّنهم من مواصلة دراستهم تحت أقسى الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

وبالنسبة لي، فقد كان هناك سبب آخر أهم من الانغماس السريع في العمل في المطاعم الأمريكية وكافتيريات الجامعة وهو أن دراستي في تلك المرحلة.لم تكن لتحتمل سوى شبه التفرغ الكامل؛ فأنا في مرحلة هامة من مراحل حياتي الدراسية وعلى أعتاب جلوس لامتحان ليس سهلاً بأي حال

من الأحوال على شخص لا يملك له الوقت الكافي والتحضير المطلوب. ورغم ذلك فقد استقر رأيي على تشمير سواعدي والتضحية بفترة دراسية كاملة إذا استدعى الأمر للعمل في مزرعة أو متجر من المتاجر الأمريكية أو غيره لاقتناء بعض المال لمواصلة دراستي «وما ليس يقتلني يجعلني أقوى» كما يقول الفيلسوف الألماني نيتشة والمشهور بقوله: «من لديه إجابة عن سؤال لماذا هو حيّ؟. يمكنه احتمال كيف يحيا» وهو سؤال فلسفي سألته لنفسي أكثر من مرة قبل مجيىء لأمريكا وخلال وجودي بها. لكن سرعان ما كانت تقفز إلى ذهني إجابة فلسفية أيضاً أطارها قول نبينا «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وعلى ذلك فلا غضاضة من الكفاح الشريف لنيل المطالب والأهداف النبيلة. وبالاضافة لذلك، فقد قررت أيضاً عدم الاستسلام حتى آخر لحظة في البحث عن إيجاد مصدر لتمويل دراستي من المؤسسات الأمريكية المختلفة ومواصلة مكاتباتي مع وزارة الزراعة في السودان عساها تفيد في إعادة النظر في تقويم موقفي خاصة وأن بعض زملائي المبعوثين للدراسة في أمريكا من المؤسسات الرسمية الأخرى بل ومن وزارة الزراعة نفسها مروا بنفس التجربة وحظوا بعد صبر طال أو قصر بامتداد لمواصلة دراستهم.

ورغم أن أسبوعاً دراسياً كاملاً قد مضى منذ بداية الدراسة لفترة الخريف، إلا أن «وهم الخلاص» ظل يلازمني باستمرار أتخيل في كل لحظة تلغرافاً يصلني فجأة من سفارة جمهورية السودان الديمقراطية بواشنطن دي. سي. يشير إلى أن وزارة الزراعة قد وافقت أخيراً على مواصلة دراستي لينقذني مما أنا فيه من معاناة إقتصادية ونفسية. وكنت في كل لحظة أفق من تخيلاتي لأواجه بالتخطيط ظروفي الواقعية بالاقتصاد الشديد في العيش وبالبحث عن مصدر لتمويل دراستي. وصادفت تلك الأيام شهر رمضان الكريم ليجدني في ظروف إقتصادية قاسية لحد ما لكنه ساعدني في المزيد من الضبط الاقتصادي وتقليل مصارفاتي الاستهلاكية وقد إستلمت في أواخره رسالة يشير ظرفها من الخارج بأنها من سفارة جمهورية السودان

الديمقراطية بواشنطن دي.سي. وبلهفة فتحتها لأرى محتوياتها فإذا بها تهنئة بعيد الفطر السعيد من السيد السفير. ويا لها من تعابير رقيقة وجميلة كان لها وقع طيب في نفسي المتعبة؛ فالكلمات الرقيقة في مثل تلك الظروف لا يعادلها شيء. وقد كانت تلك الرسالة الصغيرة ذات معنى كبير في فترة كنت أرنو فيها لأي كلمة طيبة ناهيك عن الأماني بالصحة والعافية وتحقيق المرامي.

وفي الواقع كانت تلك الرسالة بالنسبة لي كبديل لرسائل التهنئة التي إعتدت إستلامها من السيد المستشار الثقافي في مناسباتنا القومية والدينية والتي انقطعت بانقطاع تمويل بعثتي الحكومية. ولا ذنب للسيد المستشار الثقافي في ذلك فقد بعث لي بتذكرة عودتي مع نهاية بعثتي الرسمية في يناير عام ١٩٧٧ واعتبرني في عداد الذين عادوا أو المفروض فيهم أن يعودوا للوطن، فنحن الآن في شهر سبتمبر عام ١٩٧٧.

لكنني، في الواقع، لم أعد وآثرت مواصلة دراستي. فقد كنت أرى فيها فائدة كبيرة لبلادي ولي إن لم ترها وزارة الزراعة كما أنها من الزوايا العملية والمبنية على التجارب فرصة ليس من الحكمة إهدارها للتأهيل لخدمة بلادي أكثر. وفي الواقع لم يكن الدخول في تجربة مثل هذه بالأمر السهل-وأكرر بأنها ليست بالأمر السهل ولا تقل مرارتها من الزوايا التطبيقية عن الحنظل.

لكنها، وبنفس القدر، لم تكن لتخلو من عبر ودروس ذات قيمة كبيرة لي. فقد تعلمت ماذا يعني أن تحافظ على (السنتات) البسيطة أو الملاليم وماذا يعني أن تقتصد في حياتك وتعيش على الكفاف وقبل كل شيء ماذا يعني أن تعتمد على نفسك وأن تواجه بشجاعة الظروف القاسية. وإن كان الدرب الذي سلكته غير الدرب العادي الذي يسلكه المبعوثون السودانيون وحكومة السودان هي السند المادي والمعنوي الكامل وهي طريق الأمان ودرب السلامة فإن اصطدامي الاجتماعي والاقتصادي بواقع

الحياة الأمريكية هيأ لي بعض التعميق في هذه الجوانب. فلولا ظروفي الاقتصادية لما سكنت في ذلك المنزل القديم عازباً أو متعذباً لا يمكنني الزواج بفتاتي في السودان لأجد من يشاركني الطبخ والنظافة وغيرها من هموم الدنيا حتى أجد قليلاً من الزمن لأقضيه في دراستي المرهقة نفسها، وحتى أرتاح من التفكير المستمر والشرود الذهني مرات داخل المحاضرات في تخطيط وجباتي المسائية وتضريب منصرفاتي الإستهلاكية وغير الاستهلاكية. ولولا ذلك لما اختلطت بفئات من المجتمع الأمريكي تعاني إقتصادياً مثلي ومحرومة من الاستمتاع بخيرات التكنولوجيا والصناعة الأمريكية. ولقد صدق حقاً مكتشف جهاز التليفون الاكساندر جراهام بيل حين قال قبيل وفاته في أغسطس عام ١٩٢٢:

«لا تظل للأبد سائراً في الطريق العام ذاهباً فقط حيث ذهب الآخرون. أترك الطريق المطروق أحياناً واغطس في الغابات. وكن متأكداً بأنك ستجد شيئاً لم تره من قبل إطلاقاً». وقد وجدت أشياء هي عبر ودروس إنتزعتها من براثن الضيق الأقتصادي والاجتماعي أقلها العيش في فردية متناهية وغربة لم أعرفها في بلادي من قبل. وقد يسألني سائل من قبيل الاستطلاع كيف يشعر الانسان بالغربة لسنين بعيداً عن وطنه وأهله وأصدقائه حتى في الظروف العادية جانباً عن الظروف القاسية ومعايشات الضغوط الاقتصادية والأكاديمية والآلام النفسية؟.

حقيقة إن ذكرى الوطن لا تفارق الانسان لحظة أينما كان بعيداً عنه. وبالنسبة لي فقد ظل يلازمني الشعور بالشوق للوطن منذ أن وطأت قدماي ظهر أمريكا. لكن كان هذا الشعور يختفي في لحظات العمل الشديد ليعاودني مرة ثانية ومرات فيما بعد. وكثيراً ما كنت أرى في منامي أنني في وطني وسط أهلي وأصدقائي نتجاذب الأحاديث ونتسامر وأفق من النوم على صوت الماكينات الأمريكية خارج غرفتي وهي تزمجر في إصلاح شيء في المباني أو الطرق وتغيير المعالم وهو شيء يكاد يتكرر يومياً تقريباً خلال فصلي الصيف والخريف. ورغم أن سنيناً قد مضت منذ أن غادرت وطني ومنزل

أسرتي في السودان، فقد كنت في بعض المرات أصحو تدريجياً من منامي على صوت شخصين يتحدثان في الغرفة المجاورة لي ويأتيني صدى صوتهما تماماً كصدى صوت والدي في السودان وهو يحادث أحد إخوتي في المنزل. وإن كان الصوت عالياً يخيل لي تماماً بأن ذلك والدي يناديني كعادته لتناول وجبة الغداء والتي لم تعد وجبتي الرئيسية منذ أن غادرت وطني وأهلي وأسرتي. فقد كانت عادتي في السودان أن أعود لمنزل أسرتي بعد انتهاء عملي في الثانية ظهراً وأغفو لدقائق قبل أن أصحو على صوت والدي وهو ينادي عليّ بأن آتي لأتناول وجبة الغداء مشاركاً بقية أفراد أسرتنا في ذلك.

وبالطبع هنا في أمريكا لا تأخذ هذه الحالة سوى بضع ثوان لأكتشف أن الحقيقة الدرامية لواقع حياتي هي أن آلاف الأميال تفصلني الآن عن سماع ذلك الصوت الذي اعتدت سماعه كل سنين حياتي قبل مجيئي لأمريكا. والعودة للوراء للتأمل من ذكريات الماضي في السودان كانت إحدى معايري للتخفيف من آلام الغربة ومقاساتها المرة. فكما أشار فيكتور فرانكيل في كتابه «بحث الانسان عن معنى» لميول الانسان في لحظات المعاناة للتأمل في الماضي كوسيلة لجعل الحاضر بآلامه ومقاساته أقل واقعية وحقيقة، فقد كنت كثيراً ما أجلس في غرفتي وأمامي كوب من الشاي الساخن أستعيد أثناء إرتشافه شريطاً من ذكريات الأنس في وطني وبين أهلي وأصدقائي.

ولا ريب فقد كانت تتخلل ذلك الشريط مختلف تعابير وجهي من بسمات لا شعورية تذوب تدريجياً وعقلي ينتقل إلى مشاهد ومواقف درامية مختلفة. وفي الواقع كانت هناك لحظات سعيدة للغاية بالنسبة لي وهي اللحظات التي كنت أستلم فيها خطابات من أهلي وأصدقائي في السودان وخاصة من خطيبتي إعتدال. فقد كانت تلك الخطابات تملأني نشوة لا تحد لأيام وتريح أعصابي كثيراً. أما الأغاني السودانية فلم تكن عندي منها تسجيلات في غرفتي حتى ذلك الوقت ويصدف أن تمضي أشهر دون أن أستمع إليها. وقد كان يعاودني حنين وشوق كبير للسودان حينما كنت أزور أصدقائي السودانيين المتزوجين في مساكنهم (بمرتفعات الصقر) ويسمعوني

تسجيلات لأغاني جديدة ظهرت حديثاً خلال وجودي في أمريكا. وقد كانت تلك التسجيلات لمختلف أغانينا السودانية الحديثة منها والشعبية (بما فيها أغاني الحقيبة المعروفة عندنا) وكان يعجبني الاستماع لكليهما. فكل منهما له طابعه المميز الخاص بالبيئة السودانية وجمال الوصف لمختلف المشاعر الانسانية لمجتمعنا. أما الوحدة في حد ذاتها فقد كانت قاسية بالنسبة لي، لكنني بدأت التعود عليها بمرور الزمن. وقد أقلقني هذا الشعور بالوحدة منذ الأيام الأولى التي وصلت فيها إلى هنا.

ومضت السنين وأنا أعيش في نفس الوضع وحيداً سوى من بعض الصداقات المرحلية وأغلبها لا يتعدى حدود السطحية لتنتهي بانتهاء الفترات الدراسية أو رحيل أحد الطرفين من الشقق السكنية وهي صداقات جمعتني ببعض الشبان الأمريكيين والأجانب لم تكن عندي الرغبة الأكيدة في تعميقها أكثر واكتفيت بصداقاتي العميقة مع أبناء بلادي في السودان وفي أمريكا. فلم تكن عندي عائلة أمريكية مضيفة أو أي شيء من هذا القبيل. ولم يراودني شعور مطلقاً في أي لحظة من اللحظات بأنني جزء من هذا المجتمع الأمريكي الذي أعيش في وسطه بل كان دائماً يلازمني شعور بأن هناك حاجزاً كبيراً يحول بيني وبين بيئته المادية.

وتحت تأثير هذا المفهوم يمكن تخيل حياتي في غرفتي في المنزل القديم رقم١٨ بشارع أورشارد الجنوبي. فقد كانت تمر بي أيام أعيشها في وحدة قاتلة تماماً. فزملائي في المنزل كل في شغله الشاغل داخل غرفته أو خارج المنزل. والصمت في بعض الأمسيات كامل لا أسمع فيه سوى أزيز الأجهزة الكهربائية كالثلاجة وأجهزة التسخين يأتيني أثناء استذكاري لدروسي في مكتبتي الصغيرة داخل غرفتي. وتلك سمة الحياة الرئيسية في أمريكا، الفردية البحتة (Individualism) كل شخص في شغله لا يهمه كثيراً ما يحدث خارج إطار بيئته الذاتية إلا في حدود ما يتأثر به شخصياً. فيما عدا ذلك فكل شخص مهرول في اتجاه يسعى لمصلحته... المادية للحد الكبير.

وللحقيقة أقول أنني رغم محاولاتي العيش في مناخي السوداني المصغر داخل وخارج مسكني في أمريكا مثل لبس الجلباب السوداني (الجلابية) في غرفتي وطبخ وجباتي بالطريقة السودانية والاعتدال في ملبسي ومظهري العام وغيره فقد كان لا بد أن تصلني لمسة من البيئة الأمريكية عبر هذه السنين. فقد أصبحت مغرماً بتناول بعض المأكـولات الأمريكيـة مثل ساندوتشات (الهانبرقر) و(البق ماك) في (مرطبات ماكدونالـد) وتذوق الموسيقى الأمريكية لبعض المغنين السود والبيض.

وفي بعض الأحيان متابعة المباريات الرياضية مثل مباريات الانزلاق على الجليد ومباريات الهوكي الجليدي جانباً عن كرة السلة وكرة القدم الأمريكية. أما الأخيرة فهي لا تمت لكرة القدم المعروفة عندنا بأي صلة وتختلف جذرياً عنها إذ أن الكرة نفسها بيضاوية وليست مستديرة كما أنها تلعب بالأيدي ويتقاذفها اللاعبون على امتداد الملعب وتسمى بكرة القدم. وقد سميت بذلك لمجرد أن الكرة تركل بالقدم لمرات عددها أقل من عدد أصابع كفة اليد الواحدة خلال الفترة الزمنية للمباراة. أمـا اللاعبون فهم يرتدون ملابس وقائية خاصة تقيهم من الكسر والحوادث ويقفزون في رقاب بعضهم البعض أثناء اللعب بعنف غريب هو من صميم فنون اللعبة.

وفي العطلات الأسبوعية كنت أتابع مباريات كرة القدم الأمريكية هذه، وأستمتع بها جداً مثل عامة الأمريكيين. فهم يعشقون كرة القدم هذه بصورة عجيبة ويتوافدون للاستادات زرافات ووحدانا لتشجيع الفرق وقضاء الساعات الطوال تحت المطر والصقيع لمتابعتها. وقد لفت نظري في مباريات كرة القدم الأمريكية أن كثيراً من الأمريكيين يتخذون من مناسبة كرة القدم الأمريكية مناسبة لاحتساء الخمور بكميات كبيرة للغاية. فقد كنت أراهم يتجهون للاستادات وهم يحملون زجاجات الخمور بأنواعها يحتسونها أثناء المباريات وهي مباريات تقام دائماً ظهراً وخلال العطلات الأسبوعية.

وعنـد انتهاء المبـاريات تخـرج أعداد خيـالية من المتفـرجين من الاستادات الرياضية وهم يترنحون في الطرقات من تأثيرها. ويتكرر هذا المنظر في كل مباريات كرة القدم تقريباً. وبالنسبة للجو وبرودته لأكثر من نصف أشهر السنة فقد صرت كالأمريكيين أهلل وأكبر حينما يكون الجو صافياً والشمس ساطعة تماماً. وقد أدهشت أحد الأصدقاء السودانيين الجدد حينما وصل ليومين أو أكثر في جو مليء بالغيوم والنسيم الرطب حين وصفته بأنه جو رديء يخلو من الشمس ودفئها.

ففي أشهر الخريف والشتاء كنت أهلل دون رياء حينما تدخـل الشمس غرفتي من النوافذ الصغيرة على جدرانها وكان يملأني شعور غامر بالفرح. ولعل السبب في ذلك أن الجو وحينما تكون الشمس ساطعة فيه يذكرني بالوطن -السودان- ويثير فيّ الاشجان والكوامن. أما الأمريكيون البيض منهم والسود من كلا الجنسين فهم يهللون للشمس ويأخذون من دفئها وأشعتها كل ما تسمح به الامكانيات -في فصل الصيف بالذات- من إنبطاح للساعات الطوال على البطن والظهر في البلاجات والعشب الأخضر أمام المنازل والمنتزهات وهم عراة تماماً إلا مما يستر الأعضاء الحساسة في الجسد. ويصفون الجو المليء بالغيوم والممطر بالرداءة والتعاسة ويلعنونه كثيراً فجوهم مليء بالغيوم معظم أشهر السنة. ولا ينجو الجو المليء بالغيوم من اللعن حتى في أجهزة الاذاعة والتليفزيون حيث يبدو وجه مـذيع التليفزيون ممتعضاً وهو يعلن بأن الجو «من المتوقع-ومع الأسف الشديد!!! أن يكون مليئاً بالسحب وغائمًا ولن نتمكن من رؤ ية الشمس إلا لفترة قصيرة للغاية في الظهر، لكننا نأمل في غضون اليومين القادمين أن تنتهي موجة السحب هذه والمتجهة نحو الشمال الشرقي لتأتينا الشمس مرة أخرى، وعليه فلا نملك سوى الصبر ليومين قبل أن يعتدل الجو ونرى الشمس ساطعة».

وسبحان الله... فقد طافت بذهني ذكرى الجو في السودان خاصة في أشهر الصيف الملتهبة والصراع المقرون بالشجار أحياناً في أكشاك بيع

الثلج في أسواق وأحياء العاصمة المثلثة ومصائب قوم عند قوم فوائد. أما الجو في أمريكا بصفة عامة فهو فعلاً رديء خاصة في الولايات الشمالية ومن بينها ولاية ويسكونسن. فالجليد والبرودة في الشتاء لا تطاق لولا أجهزة التدفئة المنتشرة في المنازل كما أن الجو متقلب بصورة لا تصدق. فقد يصدف في يوم واحد أن تكون الشمس ساطعة في الصباح والجو دافئاً وتعقبهما في الظهر أمطار وزوابع رعدية رهيبة وينتهي في المساء ببرودة درجة حرارتها تسقط الجليد. وفي لقاءاتنا وحفلاتنا السودانية أيام الشتاء كثيراً ما كنا نضع زجاجات الكوكاكولا والمشروبات المعدنية الأخرى خارج الشقق لفترة قصيرة تجعلها باردة تماماً دون حاجة بنا لوضعها في الثلاجات وأجهزة التبريد.

ونسبة لأن المنزل الذي كنت أسكن فيه في شارع أورشارد الجنوبي من الطراز القديم بأجهزة تسخينه المصممة على طراز أجهزة التسخين من القرن الماضي فقد مرت علينا أيام في الشتاء كنت أدخل فيها للاستحمام وأفاجأ بأن الماء لا يتدفق لأنه متجمد في المواسير الرئيسية خارج غرفة الاستحمام من شدة البرد. وتلك مناسبات نادرة الحدوث خلال فترة الشتاء وحينما تكون درجة الحرارة تحت الصفر بأكثر من خمسين درجة فهرنهايت وفي منزل قديم مثل المنزل الذي كنت أسكن فيه، وشر البلية ما يضحك.

وفيما يختص بصورة الجو عامة في أمريكا فالعادة السائدة عند الأمريكيين متابعة تقلبات الجو من أجهزة الاذاعة والتليفزيون يومياً قبل الخروج من المنازل وهي مسألة اعتدت عليها بمرور الزمن. فقد صرت لا أخرج من منزلي قبل متابعة نشرة الجو وتوقعاته حتى أهيء نفسي له بحمل شمسيتي لاتقاء المطر أو لبس الملابس الثقيلة للغاية إتقاء للبرد أو استعداداً للقاء الأثنين معاً.

وكما ذكرت قبلاً فإن الدراسة قد بدأت منذ أسبوع لفترة الخريف

الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٨/٧٧ دون أن أتمكن من تسجيل إسمي كطالب في جامعة ويسكونسن-ماديسون لمواصلة دراستي. لكنني لم أستسلم وواصلت بحثي الجاد لأيجاد مصدر لتمويل دراستي. وقد شهد ذلك الأسبوع تحركات واسعة أجريتها ومقابلات مع مختلف العاملين بالمؤسسات الأمريكية وشعب الجامعة المختلفة. ولن أنسى يوم الخميس الموافق ١٩٧٧/٩/٨. فقد عدت حوالي الساعة الثانية والنصف ظهراً إلى غرفتي بعد مشاوير عديدة قمت بها بحثاً عن عمل يمكنني من دفع مصروفاتي الدراسية وإعاشتي في أمريكا. وقد كنت ساعتها في غاية الارهاق مما جعلني أستلقي على سريري في غفوة صحوت أثناءها على جرس التليفون في ردهة المنزل وهو يرن بشدة وتكرار.

ورغم أن هناك خمسة زملاء آخرين في المنزل يتلقون محادثاتهم عبر ذلك التليفون فقد نهضت سريعاً من سريري وحاستي السادسة تشير إلى أن هناك شيئاً يخصني. واتجهت نحو السماعة ورفعتها لأعرف من المتحدث، فإذا بصوت شخص أمريكي على الجانب الآخر من الخط يأتيني وهو يردد: «هالو-هل يمكنني أن أحدث المستر إلتيقاني شابور» يا إلهي! إنه صوت أستاذي البروفسير جون ثومبسون فهو يناديني بإلتيقاني بدلاً عن التجاني وهي اللكنة الأمريكية لاسمي في ماديسون. وقد رديت عليه مرحباً وبأنني «أنا التجاني الذي يتحدث».

وبعبارات ملؤها الفرح ذكر لي البروفسير ثومبسون بأن لديه أخباراً سارة لي. فقد ظهرت منحة دراسية في شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل في مجال التعليم الزراعي بالجامعة وقد أعطتني الشعبة هذه المنحة لمواصلة دراستي للدكتوراه في مجال التعليم الزراعي. وقد طلب مني البروفسير ثومبسون الحضور للقائه في اليوم التالي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً لاجراء خطوات تسجيلي لفترة الخريف الدراسية لمواصلة دراستي. وبالطبع لم أنم بسهولة ليلتها في انتظار اليوم التالي لاكمال شؤون

تسجيلي بالجامعة لأواصل دراستي بعد أن فاتني أسبوع دراسي كامل.

وفي مكتب البروفسير ثومبسون صباح اليوم التالي أطلعني البروفسير ثومبسون على تفاصيل المنحة وكيف تمت وما هي طبيعتها، وقد عرفت بأنه قد بذل جهداً مقدراً لتزكيتي لهذه المنحة حتى أتمكن من مواصلة دراستي للدكتوراه. والبروفسير جون فرانسيس ثومبسون من الشخصيات الفريدة في أمريكا والتي تتمتع بطيبة قلب متناهية وحنية كحنية أهلنا الطيبين في السودان جانباً عن غزارة علمه وشهرته كأحد العلماء في مجال التعليم الزراعي في أمريكا. وهو في الواقع أحد فئات المجتمع الأمريكي النادرة الحية الضمير والتي تتسم بالانسانية واللطف. فأمريكا الأفراد هي عالم وأمريكا النظام هي عالم آخر إذا شاء لك الاحتكاك بتلك الفئة الطيبة من الأمريكيين وعلى رأسها عدد كبير من الأساتذة والبروفسيرات بالجامعات الأمريكية والتي أطلقت عليها قبلاً ضمير المجتمع الأمريكي. ويبدو أن السنين التي عشتها مع البروفسير ثومبسون في الجامعة وكأحد طلبته ربطت بيني وبينه بعلاقة إحترام متبادل أثمرت المنحة الدراسية التي خصصت لي.

ورغم الفرح الغامر الذي انتابني بهذه المنحة الدراسية والتي أراحتني من الاتجاه للعمل في المؤسسات الأمريكية الأخرى حيث الدولار الأمريكي لا يعطي إلا بعد أن تزهق روحك، فإنني شمرت سواعدي أيضاً لعملي الأكاديمي في الجامعة. فهذه المنحة الدراسية هي في الواقع ليست لوجه الله تعالى، والأمريكيون لا يعرفون شيئاً لوجه الله تعالى (ولا يوجد شيء يسمى وجبة غداء مجانية وهو قول مأثور يردده حتى الصغار في أمريكا) إنما هي وظيفة باحث مساعد ضمن هيئة العاملين بشعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بجامعة ويسكونسن-ماديسون. وتتطلب هذه الوظيفة أن أعمل ما لا يقل عن عشرين ساعة في الأسبوع لتعطيني الجامعة مبلغاً لا يزيد

كثيراً عن منحة حكومة السودان والتي انقطعت منذ تسعة أو عشرة أشهر مضت(*).

ولحسن الحظ فقد عرفت أن البروفسير المسؤول عن البحث هو أستاذي البروفسير ثومبسون شخصياً وسأعمل معه كباحث مساعد بصورة مباشرة. ويا لطيبة هذا الرجل، فقد ذكر لي بأنه يقدر ظروف دراستي وهو يعطيني الاختيار الكامل لساعات عملي ولا يمانع حتى في أن أقضي بعضها في منزلي وأنا أعمل في البحث. ولقد عدت بذاكرتي للوراء قليلاً إبان برنامجي للتحضير لدرجة الماجستير معه ومرونته في تخطيط برنامجي الدراسي حتى لا يتعارض مع كثير من نشاطاتي خاصة الدينية منها، واستعدت اللحظات التي كان يسألني فيها دائمًا عن مناسباتنا الدينية حتى يخطط برنامجي الدراسي بحيث لا يتعارض بقدر الامكان مع الأعياد الاسلامية ومناسباتنا الدينية الأخرى. وقد كان موضوع التوفيق بين الدراسة والمناسبات والنشاطات الدينية بالنسبة لي مجالاً لريبورتاج صحفي أجرته معي صحفية أمريكية خلال حضوري المؤتمر السنوي لاتحاد الطلاب المسلمين بالولايات المتحدة وكندا في مدينة بلومنجتون بولاية إنديانا في شهر مايو عام ١٩٧٧. ولقد وجهت شكراً خاصاً لأستاذي المشرف على دراستي البروفسير جون ثومبسون في هذا الريبورتاج الصحفي لمعاملته الكريمة لي وتخطيط نشاطي الدراسي بحيث لا يتعارض مع مناسباتي الدينية الاسلامية خاصة.

ورغم التحفظ الذي أبداه بعض أصدقائي السودانيين في الحديث

(*) مدة الساعات اليومية لعملي في البحث أثناء المنحة الدراسية هي حوالي أربع ساعات يومياً لمدة خمسة أيام في الأسبوع. فالأمريكيون كما ذكرت من قبل يأخذون عطلة يومين في الأسبوع هما يوما السبت والأحد ويعوضون هذه العطلة بالعمل خلال الخمسة أيام الباقية من الأسبوع منذ السابعة والنصف صباحاً وحتى الرابعة والنصف ظهراً، تتخللها ساعة لتناول غداء سريع ما بين الثانية عشرة والواحدة ظهراً. وبالنسبة لي فقد كانت ساعات عملي هذه بالاضافة لساعات محاضراتي واستذكار دروسي وغيرها كافية لأن تجعلني في عداد المشغولين تماماً لا أستطيع حتى تلبية دعوة عشاء من صديق سوداني يوجهها لي كعادة أصدقائي السودانيين هنا.

مع تلك الصحفية الأمريكية فإنني لم أمانع في إجراء ذلك الريبورتاج الصحفي حينما عرفت بأنها فعلاً مندوبة إحدى الصحف الأمريكية بواشنطون دي.سي. جاءت لتغطية مؤتمر إتحاد الطلاب المسلمين بالولايات المتحدة وكندا. وقد سعدت كثيراً فيما بعد حينما علمت بأن ذلك الريبورتاج قد ظهر فعلاً في إحدى الصحف الأمريكية بواشنطون دي.سي. كما أنه قد ترجم للغة العربية وظهر في أحد أعداد صحيفة الطليعة الكويتية في صيف عام ١٩٧٧.

ومضت الأيام... وأنا صامد، أعمل نهاراً في وظيفتي كباحث مساعد بالجامعة أذهب أثناءها لحضور محاضراتي في قاعات الجامعة المختلفة، واتجه مساء لمنزلي لأبدأ في إعداد وجبة عشائي الرئيسية ولأبدأ بعدها في استذكار دروسي إلى أن يهدني الارهاق فأرتمي على سريري لأصحو اليوم التالي في نفس الدوامة. ولقد كانت أكثر الأيام إرهاقاً لي هي الأيام التي كانت تلتقي فيها واجباتي الدراسية مع مواعيد غسل وكي ملابسي وطبخ طعامي وتنظيف وتنظيم غرفتي بعد أن يكون الجزء الأكبر من طاقتي قد انتهى في عملي الرسمي وحضور محاضراتي في الجامعة. لكنني لم أكن أشعر كثيراً بذلك الأرهاق إلا بعد أن أنتهي تقريباً من أداء كل أو معظم واجباتي الدراسية والمنزلية. فقد كان هناك معنى في تلك المعاناة، وقد كان هناك معنى في تصميمي على مواصلة دراستي. هذا «ومن لديه إجابة عن سؤال لماذا هو حي يمكنه احتمال كيف يحيا». لكنني وللأمانة أقول أنني كنت في لحظات الهبوط المعنوي أعاتب نفسي أحياناً وألومها على خطأ مواصلتي لدراستي-الذي اكتشفته بعد فوات الأوان- في مثل تلك الظروف. فقد كانت هناك لحظات عمل أحسبها فوق طاقتي كبشر. ويهد من ثباتي وتصميمي ضغط نفسي يعاودني كلما استلمت خطاباً رسمياً لا يشير من قريب أو من بعيد لأمل في موافقة لمواصلة دراستي من الوزارة التي بعثتني في السودان.

وكنت ألتقي بأصدقاء ومعارف من مختلف بقاع الأرض يتحادثون

معي لفترات منها المطولة ومنها القصيرة مستفسرين عن أحوالي وظروفي. ومنهم من عبر عن إعجابه بعزمي وتصميمي لمواصلة دراستي معتمداً على نفسي. ومنهم من رمقني بنظرة عطف ملؤها الشك في ضمان تماسكي لمواصلة دراستي، ومنهم من شد على يدي مشجعاً ومتمنياً التوفيق والنجاح، ومنهم من لامني وعاتبني صراحة على كل ذلك. وبين هذا وذاك يرقد قدر أراه قد نسج خيوط هذه الدراما وقادني راضياً أم كارهاً عبر دروب سلكتها وأسلكها حاضراً ومستقبلاً في هذه الحياة. وهل هذه الدنيا سوى مسرح عريض كما صورها أنطونيو في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير يلعب فيها كل إنسان دوراً مرسوماً ومحدداً ودوره هو دور التعاسة والشقاء؟ ومن يدري. . . فربما يكون كل ذلك هو لخير ينفعني ووطني مستقبلاً.

وقد استمر هذا الوضع حتى أواخر ديسمبر عام ١٩٧٧ حيث أعطاني أستاذي البروفسير ثومبسون إجازة عشرة أيام للتحضير لامتحان الدكتوراة التحريري الأولى في التعليم الزراعي والذي تقرر أن أجلس له في الرابع من يناير عام ١٩٧٨. وفي الميعاد المحدد جلست لهذا الامتحان، وكم كانت فرحتي عظيمة حينما أخطرت في منتصف يناير عام ١٩٧٨ بأنني قد نجحت في هذا الامتحان ولم يتبق لي سوى رسالة بحثي للدكتوراة لإتمامها خلال عام والجلوس للامتحان الشفوي النهائي حتى يمكنني نيل درجتي رسمياً. وبالطبع فقد نزل عن كاهلي عبء ثقيل بعد نجاحي. فهذا الامتحان من أقسى الخطوات وأكبر العقبات التي تواجه المبعوثين للتحضير لهذه الدرجة. ولقد شاركني أصدقائي السودانيون وزملائي الأمريكيون والأجانب الفرحة بهذه المناسبة وتواردت عليّ تهنآتهم أفراداً وجماعات وقد كان لها وقع طيب في نفسي بعد ذلك المشوار القاسي أكاديمياً واقتصادياً واجتماعياً.

هرولة الاعلام

بدأت فترة الربيع الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٨/٧٧ في الرابع والعشرين من يناير عام ١٩٧٨. وقد صحبت بداية الدراسة في تلك الأيام موجة من البرد القارص بالإضافة لعاصفة جليدية عنيفة أتت في الأسبوع الأخير من ذلك الشهر. وقد شملت تلك العاصفة عدة ولايات في شمال ووسط أمريكا من بينها ولاية ويسكونسن وأدت لمقتل أكثر من سبعين شخصاً في تلك المناطق. وكان لما أنزلته تلك العاصفة من جليد كالتلال سبباً في تشغيل بعض العاطلين عن العمل هناك لإزاحة الجليد عن ممرات المشاة والطرق العامة.

ومن الطريف أن أحد مندوبي أجهزة التليفزيون الأمريكي أجرى مقابلة سريعة مع أحد الشبان العاطلين والذين أتيح لهم العمل نتيجة لتلك العاصفة حيث سأله رأيه عن عمله ذاك. وبرغم الوضع المأساوي الذي سببته تلك العاصفة آنذاك فقد كان رد ذلك الشاب: «لقد ظللت لأشهر عديدة عاطلاً دون عمل.. وها أنا الآن أجده.. فليرحمني الإله ولينزل المزيد من ذلك الجليد». ولقد كانت رياح تلك العاصفة تسير بسرعة مائة ميل في الساعة في بعض الولايات وبسرعة خمسين ميلاً في الساعة في ولاية ويسكونسن بالذات؛ وقد أنزلت تلك العاصفة معها أكواماً من الجليد في تلك الولاية والذي ظل يتساقط للساعات الطوال خلال تلك الأيام. كانت تلك العاصفة من الظواهر الطبيعية العنيفة والتي لم أشاهدها من قبل منذ مجيئي لأمريكا تسببت في قلق بعض الزملاء السودانيين الجدد الذين أتوا للدراسة بهذه الجامعة.

وبعد هدوء العاصفة هبطت درجة الحرارة إلى أكثر من أربعين درجة فهرنهايت تحت الصفر مما جعل بعض الزملاء السودانيين الجدد يصرحون برغبتهم في التقديم لجامعات أخرى في أمريكا يكون جو ولاياتها في الشتاء على الأقل مقبولاً. وقد مازحني أحد الزملاء الجدد في تلك الأيام قائلاً:

«لو كنا عارفين بيقروّنا في ثلاجة ما كنا جينا هنا».

وفعلاً، فولاية ويسكونسن في الشتاء أكثر برودة من جهاز الثلج في الثلاجة (فريزر). أما في الصيف فويسكونسن من أجمل الولايات في أمريكا بطبيعتها الخضراء وتلالها النضرة وأزاهيرها المتفتحة ووديانها المخضرة. وهو الفصل الذي تجتمع فيه الجالية السودانية بأسرها وأطفالها في لقاءات إجتماعية وترفيهية في المنتزهات والحدائق العامة داخل وخارج مدينة ماديسون حيث تعد زوجات المبعوثين ما لذ وطاب من أطايب الطعام الأمريكي المطبوخ على الطريقة السودانية. فإن كان دجاجاً فهو محلى بالبهارات المستعملة في السودان وإن كان (فولاً) من متجر الإيطالي بماديسون فهو يعد كما يعد في مطاعم وأكشاك (الفول) بعاصمتنا المثلثة. وإن كان (دقيقاً) طرح (كِسرة) إنتشلتها الأصابع من (صحن) (ملاح) (التقلية) أو (المفروكة) - كما تشاء - لحظة إعدادها فيه.

و(الكسرة) السودانية لا ولم ولن تفارق السودانيين في ماديسون. فقد شاءت الصدف أن تكتشف إحدى السودانيات في الماضي طريقة سهلة لإعدادها توارثتها منها زوجات المبعوثين والمتعاقبات على ماديسون عبر السنين. وتلك بحق كانت لحظات السمر السوداني نشتم فيها رائحة بلادنا وتستجم فيها أرواحنا قليلاً من الهرولة المتواصلة في الدراسة ليل نهار ومن الهرولة مع مقدمي البرامج الإذاعية والتليفزيونية وأجهزة الإعلام الأمريكية المختلفة. فكل شيء هنا محسوب بالثواني وكل شيء يسير بسرعة خاطفة. ففي جهاز التلفزيون وقبل أن تسعفك عيناك في قراءة إعلان أو متابعة خبر تليفزيوني يختفي ذلك الإعلان كلمح البصر ليختطف بصرك إعلان آخر يختفي هو الآخر في لحظتها ليدلي المذيع بحديث من عدة جمل تلتقط أذناك

منه ثلاث كلمات أو أقل؛ وربما يسعفك الحظ لتلتقط حديثه كله لو كنت من السودانيين الموهوبين. لكن الحياة هنا محسوبة بالثواني والزمن هو كل شيء. فقد تساوي الثانية الزمنية في الإعلانات التليفزيون آلاف الدولارات في مناسبات معينة مثل منافسات كرة القدم القومية في أمريكا. وربما لتوفير الزمن وتمشياً مع عصر السرعة فقد إختصر الأمريكيون كثيراً من الأسماء والعناوين لتصبح مجرد أحرف رمزية. فشركات التليفيزيون هي شركات ال سي. بي. اس (CBS) وال أي. بي. سي. (ABC) وال ان. بي. سي. (NBC) وغيرها ولا يهم ما ترمز إليه هذه الأحرف طالما هي تمثل شركات إرسال تليفزيوني معروفة. وال اتش. إي. دبليو (HEW) هي وزارة التعليم والصحة والرخاء وال ان. اف. ال(NFL) هي رابطة كرة القدم القومية لأمريكا وال يو. سي ال. أي (UCLA) هي جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس وال يو. دبليو (UW) هي جامعة ويسكونسن وج. ل كارتر (G.L Carter) هو البروفسير جورج كارتر أحد أساتذتي في الجامعة وغير ذلك من مئات الرموز التي ترمز للمؤسسات والبرامج والقوانين الأمريكية المختلفة.

أما إن أردت إصلاح شيء في منزلك فليس الأمر (بالمقاولة بالعمل) كما نقول نحن في السودان لكن غالباً ما تكون بعدد ساعات العمل. فقد (يقاولك) العامل بأجر معين من الدولارات عن كل ساعة يعملها. وحتى أجري الذي كنت أتقاضاه كباحث مساعد في شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة محسوب بالساعات. ويتطابق الإهتمام بالزمن في أمريكا بالإهتمام بالأعمار. فللعمر أهمية كبيرة في أمريكا. ولا أذكر أنني ملأت فورماً في الجامعة أو خارج الجامعة لم أكتب فيه عمري.

وبالطبع، في المجتمع الرأسمالي تهتم المؤسسات خاصة الإقتصادية منها بالفترة المنتجة من عمر الإنسان قبل كل شيء حتى يمكن التخطيط للإستفادة الإقتصادية القصوى من كل ساعة في عمر الإنسان. وعلى ذلك يتضاعف الإهتمام بالأطفال بشكل كبير وبإعدادهم لمهن المستقبل حيث

تمتلىء المتاجر باللعب التي تهيء الأطفال لإحتلال أماكنهم سريعاً في المجتمع الأمريكي ونظامه الإقتصادي.

وقد لاحظت أن الأمريكيين يعدون أطفالهم منذ سن مبكرة للقيام بأعباء كبيرة مستقبلاً. فقد تجد فتاة صغيرة في سن الرابعة عشر أعدت قبل سنين لتنافس في مباريات التنس على المستوى القومي في أمريكا. كما يمكنك مشاهدة صبيان وصبيات في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة يقودون عربات الفورد والكاديلاك والشيفروليه الضخمة والفارهة عبر الطرقات بمهارة فائقة. وهناك طلبة وطالبات في سن مبكرة يعملون في المتاجر المختلفة بأمريكا. وربما يكون إقحام الصبية في أعمال أكبر من أعمارهم ليس بغرض إعدادهم للمستقبل فقط وإنما لندرة الأيدي العاملة في أمريكا والحاجة للإستفادة من أي قدر من الطاقة الجسمانية يمكن أن تتوفر حتى ولو إستدعى إستخدام الصبية الصغار في ذلك، وربما يكون للأجور الرخيصة التي يتقاضونها رغم أن القانون الأمريكي لا يبيح إستخدام الصبية.

أما هذه الفترة الدراسية فقد كانت خفيفة للحد الكبير بالنسبة لي بالمقارنة مع الفترات الدراسية التي سبقتها. فمعظم جهدي قد أصبح مركزاً في البحث الذي سأقدمه لنيل درجتي، ولم يكن عليّ سوى أخذ كورس دراسي واحد (سمنار) لتقديم دراسة صغيرة فيه مع مجموعة من طلاب الدراسات العليا في مختلف جوانب التعليم الفني والمهني بما فيها التعليم الزراعي. ورغم أنني إعتدت على حضور الكورسات بأشكالها المختلفة إلا أن الضغط الإقتصادي والنفسي بعد قطع بعثتي الرسمية صارت ظلاله تتابعني داخل وخارج قاعات المحاضرات. فعند بداية ذلك الكورس الدراسي طلب المحاضر من كل الطلاب وكلهم يحضرون لدراسات عليا أو موظفون بدرجات عالية في مختلف أجهزة الدولة الأمريكية، طلب أن يقف كل واحد ليعرف نفسه وماذا يعمل وخططه للمستقبل. ولما أتى دوري لذلك لأوّل مرة أشعر بحسرة تنتابني وبعرق

قليل يتصبب من وجهي وأنا أردد العبارات التي إعتدت ترديدها في بداية كل كورس دراسي أحضره.. «إسمي التجاني الشيخ شبور وأنا من السودان في أفريقيا وأحضر لدراسات عليا في هذه الجامعة في مجال التعليم الزراعي و... و... تخرجت من كلية الزراعة بجامعة الخرطوم في السودان وانخرطت للعمل... و... وآمل عند عودتي لبلادي أن أنخرط في مجال التخطيط القومي للتعليم الزراعي هناك »... وجلست لكن لا تزال صدى قطع بعثتي الرسمية يرمي بظلاله على نفسيتي. فتلك من المرات القليلة التي حذفت فيها جملة« وأنا مبعوث من قبل حكومة السودان» والتي كنت أرددها منذ مجيئي لأمريكا عند تعريف نفسي في بداية الكورسات الدراسية. وكانت هذه الجملة ببساطتها تملأني ثقة في نفسي وكانت ترمز لأمني الاقتصادي والنفسي والذي لم أعد أحظى به بعد إنقطاع بعثتي الرسمية.

وهذا صحيح، فقد شاءت المقادير أن تكون الوزارة التي أنتمي لها هي إحدى الوحدات التي ترى بكل الصلابة أن يذهب مبعوثوها في بعثات دراسية ويعودوا كما خطط لهم. وهي لا تعرف سوى أن على مبعوثيها تنفيذ العقد الذي بعثوا على ضوئه للدراسة خارج البلاد والعودة (فوراً) بعد إنتهاء بعثاتهم التي أرسلوا لها. ولا لوم على وزارة الزراعة في ذلك. فهي تنهج النهج العرفي الرسمي في التعامل مع المبعوثين وغيرهم من موظفي الدولة بقوانين محددة حتى تضمن الضبط المهني في أعمالها.

وبالطبع هناك وحدات أخرى تتوسم الخير في مبعوثيها لتدعمهم بالسند المادي أو المعنوي أو الإثنين معاً إذا لاحت لهم بوارق أمل لنيل درجات عليا لا يرى فيها عاقل أذى لدولة نامية. ولما كانت صلتي بوزارة الزراعة لحظتها هي عقد بعثة رسمي تحكم على ضوئه مثل حالتي فقد حزمت أمري على إعادة المبلغ الذي دفعته لي هذه الوزارة خلال بعثتي لدرجة الماجستير والإبتعاد عنها وهذا ما قررت أن أفعله محتفظاً بحبي لبلادي وتصميمي على مواصلة دراستي والعودة لوطني لخدمته في أي وحدة

تستوعبني بعد عودتي. ولا أحد معصوم من الخلاف مع وحدته والذي قد يحدث في الداخل أو في الخارج، ولا تستحق التجربة أن تحمل أكثر مما تستحق من كونها خلاف في المفاهيم بين فرد عامل ووحدته ولا تتعدى ذلك الإطار لتشمل الوطنية والإلتزام القومي وما شابهها وهي محاور أكبر بكثير في تقديري من مثل تلك الخلافات. أما ظلال الالآم النفسية والإقتصادية فهي عابرة عبور هذه الدنيا نفسها لكنها ومع الأسف الشديد قد أخذت من وقتي ومن تفكيري ومن طاقتي ما كان يمكن أن أوجهه لتنمية مواردي الفكرية والإستفادة العلمية والتي لم أتهاون فيها قيد أنملة حينما كنت أعمل في السودان بعد تخرجي من كلية الزراعة بجامعة الخرطوم ولآخر لحظة قبل سفري لأمريكا. أما الضغط الإقتصادي والنفسي على المبعوثين ليعودوا للسودان فهو قاسي حقاً كما عايشته وهو أسلوب مؤلم ورادع وقد قاومته لإقتناعي بما أعمل فيه ولإستعدادي لتحمل أي نتائج تنشأ عن إيماني بأهمية مواصلة دراستي. وهو بكل الصدق لم يؤثرٌ ذرة في التزامي الوطني وحبي لبلادي ولأهلها ورغبتي في العودة للعمل على تنميتها ودفعها للأمام.

وهنا أرجو ألا أغلظ على وزارة الزراعة، فبما لديها من خبرات مع المبعوثين بمختلف مشاكلهم عبر السنين فقد كانت الخطابات الرسمية التي تصلني من تلك الوزارة في غاية التهذيب والإحترام تخلو من أي كلمات مؤذية أو جارحة بل كان أسلوبها أسلوب العارف بظروف المبعوث الذي يعاني إقتصادياً ونفسياً مع إختلاف مفاهيمها وإستراتيجيتها معه. وأني إذ أشير لذلك يدفعني سبب قد لا يتراءى للفرد العادي أبعاده. ففي مثل تلك الظروف ينفصم عقل الإنسان بين جانب يدفعه إلى الإنهيار والعودة من حيث أتى وبين جانب يدفعه إلى الصمود حتى آخر زفرة من نفسه. وبين الإثنين يرقد جانب يناوشه بهجرة لا عودة فيها يرعاها ويغذيها الضغط النفسي أولاً قبل الإغراء المادي أو المسرة الدنيوية وبحث عن منابع لثراء هو في النهاية زائل.

وبرغم العطف الذي كنت أحظى به من زملائي وأصدقائي المبعوثين السودانيين في ماديسون في تلك الفترة وبرغم تماسكي وأنا أواصل دراستي هناك، فقد كان يلازمني في بعض الأحيان شعور ما بالألم حينما نلتقي كجالية سودانية في مناسبات مختلفة وأكون أنا الوحيد من بين عشرين مبعوثاً سودانياً أو أكثر يحمل عبئاً نفسياً وإقتصادياً وجسمانياً كالذي كنت أحمله. وتنتهي اللقاءات ويعود الكل إلى مساكنهم. ويتبارى الزملاء والأصدقاء السودانيون في توصيل العازبين الذين لا يملكون عربات وأنا بينهم لأعود لحياة الوحدة والمقاساة بعد أن تكون مثل تلك اللقاءات قد أزالت عني جزءاً من الهم بجوها الأخوي ومرحها وضحكاتها المتواصلة. ولا ريب فقد كان سكني في ذلك المنزل القديم بكآبته وقدم أجهزته وتآكل جدرانه يذكرني بإستمرار بتعاسة تلك الأيام وقساوتها.

وقد صدف في مساء أحد أيام شهر مارس عام ١٩٧٨ وبالتحديد في منتصف ذلك الشهر أن تعطل جهاز التسخين والذي كان يمد المنزل بحرارة تقي ساكنيه وأنا بينهم زمهرير شتاء ويسكونسن والذي لا يفارق تلك الولاية منذ أوائل نوفمبر من كل عام وحتى شهر مايو العام الذي يليه. وقد كانت درجة الحرارة في تلك الأيام ثماني عشرة درجة فهرنهايت فوق الصفر أي ما يعادل بالتقريب حوالي الثمانية درجات تحت الصفر بالمقياس المئوي (سنتقريد) المستعمل لدينا في السودان. وقد كانت البرودة بصورة يستحيل معها النوم بهدوء ناهيك عن إستذكار الواجبات الدراسية.

وبالطبع، لم أكن في حاجة لإستخدام أي عبقريات لإلغاء إستذكار دروسي وتجميد مواصلة بحثي تلك الأمسية ولبس فانيلة صوف ومعطفي الثقيل فوق بيجامتي والنوم بهذه الصورة تحت غطاء بطانيتي السميكة. وحتى تلك الحالة لم تكن لتنعم عليّ بنوم مريح، فقد كنت أشعر بالبرودة تسري في عظامي في ذلك الليل الطويل. وكان كل همي آنذاك تحمل تلك السويعات حتى ينجلي الصبح ليتم إصلاح جهاز التسخين.

وبالفعل فقد صحوت صباح اليوم التالي وكل مفصل في جسدي يئن على صوت عمال شركة أجهزة التسخين يستفسرون عن رقم المنزل الذي تعطل جهاز تسخينه لإصلاحه بعد أن إتصلت بهم صاحبة المنزل ليقوموا بذلك. وقد كانت تلك بحق ليلة قاسية كانت لها آثارها من إرهاق وتعب فيما تلاها من أيام. فيما عدا ذلك فقد سارت الأيام بهدوء وكنت خلالها أخطط إقتصادياتي بهدوء أيضاً. وقد وصلت مرحلة كنت أتابع فيها الأخبار الإذاعية والتليفزيونية الإقتصادية وتنبآت إرتفاع السلع الإستهلاكية حتى أخطط لوضع أي مليم في موضعها. فلم يعد هناك مجال لإستمتاع بوجبات دسمة، أو صرف في غير ما تحكمه الضرورة. فما زالت أمامي فترات دراسية تتطلب مبالغ باهظة كمصروفات وما زالت أمامي إلتزامات السكن والمعيشة وشراء ضروريات الدراسة من كتب ومواد دراسية أخرى.

وقد صدف أن توقف عمال مناجم الفحم الأمريكيين عن العمل في إضراب عام في أواخر ديسمبر عام ١٩٧٧ مطالبين بزيادة أجورهم وبعض المطالب الأخرى. وكان لإضرابهم ذلك أثر كبير مباشر وغير مباشر على الإقتصاد الأمريكي حيث تأثرت بعض شركات الغاز والكهرباء والتي كانت تستعمل كميات من الفحم في إدارة أجهزتها ونشأ عن ذلك أن إرتفعت قيمة فواتير الكهرباء والغاز في بعض الولايات الأمريكية كما استغنت بعض الشركات الأخرى عن جزء من مخدميها. ولقد تأثرت كثير من الولايات بذلك الإضراب إلا أن ولاية ويسكونسن ولحسن الطالع لم تتأثر كثيراً به. لكنني وكأحد المستهلكين كنت أتابع المفاوضات لإنهاء ذلك الخلاف بقلق لأنني كنت أعلم أن أي زيادة في الفواتير الكهربائية أو أي سلع أخرى تأثرت بذلك الإضراب بصورة غير مباشرة هو إرهاق لميزانيتي الضعيفة أصلاً. ولقد إنتهى ذلك الإضراب والذي دام قرابة الثلاثة أشهر دون أن يؤثر إقتصادياً على ولاية ويسكونسن حيث تنفست الصعداء بعده.

وفي شهر مارس من عام ١٩٧٨ بدأت إطلالات الربيع وبدأ الجو يتحسن قليلاً. وكانت فرصة جميلة أن أحرث مساحة أرض صغيرة خلف

المنزل الذي كنا نسكن فيه لأزرع فيها بعض الخضروات آملاً أن أخفف الضغط على ميزانيتي التي أرهقها التضخم المستمر حتى في السلع الإستهلاكية. ولقد كانت تلك المساحة الصغيرة من الأرض جزءاً من حديقة المنزل الذي تملكه صاحبته. وقد تفضلت مشكورة بإعطائي والزملاء الآخرين قطع أرض صغيرة لنزرع فيها بعض الخضروات كما أخذت هي نصيب الأسد من مساحة تلك الحديقة الصغيرة زرعت فيها مختلف الخضروات.

أما في النواحي الأكاديمية فقد واصلت في تلك الفترة الدراسية بحثي بهمة ونشاط بصورة متواصلة حتى الأسبوع الأخير من شهر مايو عام ١٩٧٨ حيث بدأت الإمتحانات في الجامعة إيذاناً بنهاية فترة الربيع الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٨/٧٧ وبدأ الحرم الجامعي بعدها يخلو من حركة الطلاب الذين اتجهوا إلى مدنهم ومناطقهم المختلفة. وقد أتيح لي أن أودع بعض أصدقائي الأجانب وهم يتأهبون للسفر إلى أوطانهم لقضاء إجازة الصيف بين أهلهم وأصدقائهم. كما كانت هناك لحظات مفرحة إستقبلنا فيها كجالية سودانية بعض الزوار السودانيين الذين أتوا إلى ماديسون من السودان في زيارات قصيرة أتحفونا خلالها بالأخبار والتطورات التي حدثت في وطننا.

توثيق شهادة

في صيف عام ١٩٧٨ بدأتُ تجميـع إحصائيـاتي لمواصلة بحثي الدراسي والخاص بتقييم بعض برامج التعليم الزراعي بولاية ويسكونسن. وقد إضطررت لصرف مبالغ نقدية باهظة لتجميع هذه الإحصائيـات وطباعة مواده الأولية خاصة وأن وحدات البحوث الأمريكية التي قدمت لها للمساعدة في تكاليف ذلك البحث إعتذرت عن وجود إعتمادات يمكن تخصيصها له. وزاد من سوء الوضع إنتهاء منحتي الدراسية في الجامعة في أوائل شهر يوليو عام ١٩٧٨ حيث إنقطعت مرة أخرى مواردي النقدية وأصبحت في عداد الباحثين عن العمل. وقد تكرم، مشكوراً، أستاذي المشرف على دراستي البروفسير جون ثومبسون بإرسال خطاب لرئاسة إدارة الهجرة والإقامة فرع مدينة ميلواكي بولاية ويسكونسن طالباً لي إذن عمل حتى يمكنني التقديم للإلتحاق بإحدى وحدات العمل الأمريكية خارج الجامعة للعمل أثناء الدراسة للفترة ما بين شهر سبتمبر ١٩٧٨ وأواخر ديسمبر ١٩٧٨.

وكأي مؤسسة بيروقراطية في إحدى دول العالم النامية تأخر ذلك الخطاب في تلك الإدارة الفيدرالية لشهور وشهور تحت النظر وهي سمة تلك الإدارة. فقد تكون من المحظوظين إذا قدمت طلبك السنوي لتجديد إقامتك بأمريكا لتلك الإدارة وجاءك الإذن في أقل من ثلاثة أشهر. فالبيروقراطية في أمريكا وخاصة في مؤسساتها الفيدرالية هي مصدر تندر للأمريكيين أنفسهم خاصة في وحدات مثل إدارة الهجرة والإقامة حيث يسير العمل فيها بسلحفائية واضحة. ولا يرجع ذلك في تقديري إلا لأنها

لا تدخل على الدولة أرباحاً وعوائد مباشرة وإلا (لنلت تأشيرتك في لمح البصر). وعلى كل فقد ساعدتني في مواصلة دراستي بعض الدولارات التي وفرتها خلال عملي كباحث مساعد بشعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة مما مكنني من دفع مصروفاتي الدراسية لفترة الصيف الدراسية لعام ١٩٧٨ وفيما بعد لفترة الخريف الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٩/٧٨.

وقد بدأت مرة أخرى في البحث عن عمل خاصة وأن بحثي الدراسي يتطلب مبالغ نقدية باهظة لإكماله. ورغم الساعات الطوال التي كنت أقضيها في إجراء بحثي الدراسي فقد إلتحقت بالعمل في وظيفة بمكتب التدريس بواسطة الوسائل السمعية والبصرية التابع لشعبة الإرشاد بالجامعة. كان العمل يتعلق بالمجال التعليمي داخل وخارج الجامعة إلا أنه قد أخذ من وقتي ومن طاقتي مما تعارض كثيراً مع مواصلة جهودي في بحثي الدراسي. ولم يمض أسبوع على إلتحاقي بتلك الوظيفة حتى قررت تركها والتفرغ الكامل لبحثي لإنهائه في أقرب وقت آملاً في عودتي لوطني سريعاً. ففي خلال كل هذا التغيير من عمل مهني ودراسة ومتاعب منزلية بدأت أشعر بالإرهاق يدب في جسدي حقاً إلا أنه والحمد لله لم يُثنِن عن تصميمي على مواصلة دراستي حتى النهاية.

وفي سبتمبر من عام ١٩٧٨ بدأت فترة الخريف الدراسية للعام الدراسي ١٩٧٩/٧٨ وفتحت الجامعة أبوابها للطلاب الذين عادوا من مناطقهم المختلفة بروح جديدة، أما أنا فقد كنت غارقاً وسط المراجع والأرقام لا أرفع رأسي إلا لراحة قصيرة أعود بعدها مواصلاً الدراسة. وكنت وأنا في هذه الحالة كثيراً ما أصف حياتي بأنها حياة البؤس والتعاسة خاصة حينما أرى زملائي المبعوثين السودانيين الآخرين في راحة نسبية وبسطة من الحال. أما في النواحي المنزلية فقد رحل أحد الشبان الأمريكيين من المنزل كما رحل الشاب المسلم الاندونيسي من المنزل أيضاً وسكن مكانيهما إثنان من الشبان الأمريكيين البيض أحدهما يسمى ستيف والآخر

يسمى رون وقد غادر المنزل بعد شهر وسكن مكانه شاب أمريكي أبيض يدعى أيضاً ستيف. وستيف هو تصغير لإسم إستيفنس كما أن رون هو تصغير لإسم رونالد.

فالأمريكيون يستعملون الأسماء المصغرة والألقاب بكثرة. فريتشارد يرمز إليه ب (دِك) وروبرت يرمز إليه ب (بوب) وتيموثي يرمز إليه ب (تِم) وكيموثي يرمز إليه ب (كِم) و(جودي) هو تصغير لجوديث و(جيم) هو تصغير لجيمس و(بارب) هو تصغير لباربرا وغيرها. وقد سألوني أكثر من مرة ما هو إسمي المصغر حتى يمكن أن يستعملوه ولم أستطيع تصغيراً أكثر من (تيجاني) ينطقها بعضهم (تيقاني). وكم من مرة سألني بعض الزملاء الأمريكيين عن تاريخ ميلادي وكيف أحتفل به. وكانت دهشتهم كبيرة حينما أخبرتهم بأنني لم يحدث في حياتي أن تذكرت تاريخاً لميلادي أو أن إحتفلت به في يوم ما.

لكن تاريخ الميلاد أو يوم الميلاد من الأشياء الهامة عند الأمريكيين يتبادلون في مناسباته الهدايا كما يتبادلونها في عيد الكريسماس. وقد أخبرني أحد الزملاء الأمريكيين بأن شقيقه قد أهدى له قارباً في عيد ميلاده للتنزه به في مياه بحيرة (مندوتا) في فصل الصيف فهي تتجمد شتاءاً وأصبحت ممتلكاته عربة وقارباً ودراجة لنزهته ومواصلاته. وهناك مئات من الأمريكيين يملكون جميع وسائل الترفيه من قوارب نهرية إلى عربات مجهزة بغرف مطبخ وغرف نوم وغرف إستحمام للرحلات خلال العطلات والمناسبات السنوية المنتشرة. ففي أمريكا مناسبة لكل شيء تقريباً. فهناك إحتفالات عيد الإستقلال في يوليو من كل عام وهناك يوم العلم ويوم المحاربين المتقاعدين ويوم الأمهات ويوم الآباء ويوم جورج واشنطون ويوم أبراهام لينكولن ويوم كولمبس ويوم سانت باتريك حيث يلبس فيه الأمريكيون ملابس خضراء ويحتسون الجعة المصبوغة باللون الأخضر. وهناك أيضاً مناسبة الكريسماس وعودة الربيع وذكرى بعث السيد المسيح (لو بعث حقيقة، ونسميه نحن في السودان شم النسيم) وأعياد الشكر

وتؤكل فيها الديوك الرومية ويحتسى فيها النبيذ بمختلف أنواعه، ومناسبة (الهالووين) وتأتي في نهاية أكتوبر من كل عام يقيمون فيها الحفلات التنكرية المختلفة ويرتدون فيها الأزياء المخيفة وغير المخيفة.

وفي أواخر أكتوبر عام ١٩٧٨ إنتهيت من إجراء بحثي الدراسي حيث أصبحت في حاجة لمبلغ ثلاثمائة دولار لطباعته وإعداد النسخ اللازمة لخمسة من البروفسيرات المختارين في الجامعة يشكلون لجنة إمتحاني الشفوي النهائي حتى يمكن أن أجلس لذلك الإمتحان والذي تقرر له اليوم العشرين من نوفمبر عام ١٩٧٨. ولما كان المبلغ الذي تبقى في حوزتي يكفي فقط لدفع إيجار سكني ومعيشتي حتى أواخر نوفمبر عام ١٩٧٨ فقد كان لابد من إيجاد مورد مادي لتغطية إلتزاماتي السكنية والمعيشية حتى أواخر ديسمبر ١٩٧٨ - وهو الموعد الذي حددته مبدئياً لعودتي للسودان - وبالطبع هذا بالإضافة لطباعة بحثي الدراسي والإنتهاء على الأقل من هذه الدوامة الأكاديمية المرهقة.

ولانعدام أي شهية حقيقية لي في الإنتماء للعمل بأي مؤسسة إقتصادية أمريكية، ولانعدام أي رغبة لي في تقديم أي طلب آخر لمنحة مالية حتى لبحث أجريه في أمريكا في أي مؤسسة بحثية أو أكاديمية أمريكية؛ فقد فكرت ولأول مرة منذ إنقطاع بعثتي الرسمية في يناير عام ١٩٧٧ في الإتجاه لتحويل مبالغ نقدية خاصة من السودان لتصلني في أمريكا. ولا أخفي بأنني حاولت بقدر الإمكان الإبتعاد عن الخوض في تجربة مثل تلك وبعثتي الرسمية قد إنقطعت. ولإجراء ذلك التحويل كان لا بد من توثيق إحدى الشهادات اللازمة في سفارة السودان بواشنطون دي. سي. الشيء الذي تحاشيته في السنتين الأخيرتين حتى لا أدخل نفسي أو المسؤولين بالسفارة في حرج. لكن للضرورة أحكام، وأي ملجأ أخير للإنسان في غربة مثل تلك سوى سفارة الوطن.

وتحت ذلك الضغط النفسي المرير فقد حزمت أمري لإستخدام حقي كمواطن سوداني وبعثت بشهادة تثبت أنني طالب بجامعة ويسكونسن

- ماديسون لمكتب القنصل بسفارة السودان، آملاً أن يتم توثيقها سريعاً لأبعثها للسودان لتحويل مبالغ تساعدني في الأكل والشرب أولاً قبل إنهاء بحثي الدراسي وتهيئة نفسي للعودة لوطني. وقد كانت فكرة تهيئة نفسي للعودة لوطني تشغل الحيز الأكبر من ذهني وقد تبقى لها أشهر قليلة. ولم تزحزحني كل الإغراءات المادية والعروض المهنية والتي بدأت تتكالب عليّ مؤخراً للعمل بأمريكا وخارج أمريكا خاصة في الدول العربية الشقيقة عن التفكير في العودة للوطن لخدمته أولاً فور إنتهائي من دراستي بأمريكا. وكان ما كان. فقد بعثت بتلك الشهادة في ١٩ سبتمبر ١٩٧٨ لمكتب القنصل بالسفارة، ولم أكن أدري بأن نصيباً آخر من القلق كان ينتظرني ألخصه دون إسهاب في التعليق، في المكاتبات التالية والتي بعثت بها لكل من مكتب القنصل ومكتب السيد السفير.

ELTIGANI E. SHABBOUR

18 S. ORCHARD St.

MADISON, Wis. 53715

٤/١٠/١٩٧٨.

السيد/القنصل لسفارة جمهورية السودان الديمقراطية.

واشنطون دي. سي.

تحية طيبة

إلحاقاً لخطابي المرسل لسيادتكم قبل أسبوعين من تاريخه والخاص بتوثيق شهادة تثبت أنني طالب بجامعة ويسكونسن - ماديسون. أرجو أن أفيد سيادتكم بأنني لم أتسلم بعد هذه الشهادة ولا زلت في إنتظارها بفارغ الصبر. وبما أنني في حاجة ماسة وعاجلة لهذه الشهادة أرجو لو تكرمتم

سيادتكم القيام بتوثيقها وإرسالها في أقرب فرصة تسمح بها ظروفكم. كما أرجو أن أفيد سيادتكم بأنني قد أرفقت الرسوم اللازمة لتوثيقها.

ولكم خالص الشكر والتقدير

التجاني الشيخ شبور

طالب دراسات عليا/جامعة ويسكونسن - ماديسون

ELTIGANI E. SHABBOUR

18 s. ORCHARD St.

MADISON, Wis 53715

١٩٧٨/١٠/٢٣

السيد/ السفير لجمهورية السودان الديمقراطية - واشنطون دي. سي.

تحية طيبة عطرة،

أنا التجاني الشيخ شبور أحضر لدراسات عليا بجامعة ويسكونسن - ماديسون بالولايات المتحدة الأمريكية.

بتاريخ ١٩٧٨/٩/١٩ بعثت لمكتب السيد القنصل بسفارة جمهورية السودان الديمقراطية بواشنطون دي. سي. شهادة تثبت أنني طالب بجامعة ويسكونسن - ماديسون مرفقاً الرسوم اللازمة آملاً أن يتكرم سيادته بتوثيقها لإستخدامها في شؤون أكاديمية هامة وعاجلة. وقد أعقبت خطابي المرسل لمكتب السيد القنصل بخطاب آخر بتاريخ ١٩٧٨/١٠/٤ مشيراً إلى أنني لم أتسلم بعد هذه الشهادة وموضحاً حاجتي الماسة والعاجلة لهذه الشهادة. وبتاريخ ١٩٧٨/١٠/٥ دعمت هذين الخطابين بإشارة تليفونية من ماديسون بولاية ويسكونسن لمكتب السيد القنصل بواشنطون حيث أطلعني المسؤولون بأن شهادتي قد أرسلت لمكتب السيد المستشار الثقافي بالسفارة لتوثيقها أولاً. وقد اتصلت تليفونياً بمكتب السيد المستشار الثقافي في نفس اليوم مستفسراً عن شهادتي حيث أطلعني المسؤولون بأن ظروفاً

أدت لتأخير توقيع هذه الشهادة لكنها قد ُوقعت وسترسل فوراً لمكتب القنصل بالسفارة.

وبتاريخ ١٩٧٨/١٠/١١ وصلتني صورة خطاب مرسل من السيد المستشار الثقافي بالسفارة للسيد القنصل راجياً فيه أن يتكرم السيد القنصل بتوقيع هذه الشهادة وإرسالها لي. وبتاريخ ١٩٧٨/١٠/١٩ - وقد بلغ الألم منتهاه - إتصلت بمكتب السيد القنصل مستفسراً عن شهادتي حيث أشار لي المسؤولون بأن شهادتي سترسل بعد أن تسلموا الإخطار من مكتب المستشار الثقافي. وحتى اليوم ١٩٧٨/١٠/٢٣ لم أتسلم بعد هذه الشهادة والتي إنتهي عملياً الغرض الأساسي الذي من أجلها أرسلت حيث أن نشاطاتي الأكاديمية تحددها جداول زمنية محددة تضعها الجامعة ولجان الدراسات العليا فيها لطلابها.

السيد السفير، ليست هذه الرسالة بشكوى إنما هي فقط إقتراح لسيادتكم بتوحيد شؤون توثيق الشهادات للمواطنين السودانيين (مبعوثين أو غير مبعوثين) على أن تصبح مسألة توثيق الشهادات الأكاديمية إما من اختصاص السيد القنصل كلية أو من إختصاص مكتب السيد المستشار الثقافي حتى يمكن أن يتعامل المواطنون السودانيون بأمريكا مع جهة واحدة ورأساً. فحق توثيق الشهادات هو لكل المواطنين السودانيين لا يسلبهم ذلك الحق صفاتهم كمبعوثين أو غير مبعوثين. وقد عودنا مكتب السيد المستشار الثقافي أن ينجز أعمالنا بسرعة وبكفاءة عالية متى ما تعاملنا معه رأساً دون الرجوع لجهة ثالثة. وبهذا الأسلوب كما أعتقد يمكن الحفاظ على سمعة أقسام سفارتنا خاصة في بلاد تحسب فيها الحركة بالثواني.

ولكم خالص الشكر والتقدير

مخلصكم

التجاني الشيخ شبور

طالب دراسات عليا/ جامعة ويسكونسن - ماديسون

الولايات المتحدة الأمريكية

- صورة للسيد/القنصل لسفارة جمهورية السودان الديمقراطية - واشنطون دي. سي.
- صورة للسيد المستشار الثقافي لسفارة جمهورية السودان الديمقراطية واشنطون دي. سي.
- صورة للسيد/وكيل وزارة الخارجية
- صورة للسيد وكيل وزارة الزراعة والأغذية والموارد الطبيعية.

ELTIGANI E. SHABBOUR

18 S. ORCHARD St.

MADISON, Wis. 53715

١٩٧٨/١٠/٣٠

السيد/ القنصل لسفارة جمهورية السودان الديمقراطية - واشنطون دي. سي.

تحية طيبة

بالإشارة للمكاتبات المتكررة والإشارات التليفونية العديدة منذ ١٩ سبتمبر ١٩٧٨ فيما يختص بشهادة بعثتها لمكتبكم لتوثيقها والتي لم أتسلمها حتى اليوم. أرجو أن تسمحوا لي بأن أعبر عن قلقي أزاء حجز هذه الشهادة طوال هذه الفترة دون سند قانوني يبرر ذلك. ولا أخفي عنكم - السيد القنصل - بأن شعوراً قد بدأ يراودني بأن سيادتكم تحتجزون هذه الشهادة عمداً لسبب أو لآخر. ورغمًا عن أن مكتب سيادتكم لا يملك حق عقاب أو ثواب المبعوثين كما أرى فإن إحتجاز شهادتي طوال هذه المدة هو عقاب قد فرض عليّ من قبل مكتب سيادتكم لا تسنده أي نصوص قانونية. وإن كان هناك نص قانوني يحرمني توثيق شهادتي فلا أعتقد أن هناك نصاً قانونياً يبيح لسيادتكم إحتجاز شهادتي طوال هذه المدة. وعليه فأنني أرجو أن تعيدوا لي شهادتي التي بعثتها لكم (موثقة كانت أو غير موثقة)

حتى لا أجد نفسي مقحمًا في مزيد من المكاتبات والمجادلات مما لا يشرفني ولا يشرف سمعة مكتبكم.

وشكراً

التجاني الشيخ شبور

«طالب دراسات عليا/ جامعة ويسكونسن - ماديسون

- صورة للسيد/السفير لجمهورية السودان الديمقراطية.
- صورة للسيد/المستشار الثقافي لسفارة جمهورية السودان الديمقراطية - واشنطون دي. سي.
- صورة للسيد/وكيل وزارة الخارجية.
- صورة للسيد/وكيل وزارة الزراعة والأغذية والموارد الطبيعية.

ويا لها من تجربة. ففي يوم ١٩٧٨/١١/٣ أي بعد مضي شهر وأربعة عشر يوماً من تاريخ إرسال هذه الشهادة للتوثيق تسلمتها موثقة من قبل السيد القنصل. وقد أرسلتها بدوري للسودان في محاولة لتدعيم إجراء كنت قد إتخذته قبلاً لتحويل مبلغ مالي من السودان عن طريق أجراءات التحويل العادية(*). أما فيما يختص بالنواحي الأكاديمية فقد إضطررت أزاء تأخير توثيق هذه الشهادة لإستدانة كمية من الدولارات من أحد الأصدقاء ساعدتني على طبع رسالة بحثي وإعداد النسخ اللازمة وتوزيعها على الأساتذة في الوقت المحدد إستعداداً لإمتحاني الشفوي في العشرين من نوفمبر عام ١٩٧٨. ولا شك فقد كان الضرر بليغاً ومراً وكان أمرّ منه الشعور بإنعدام أي مرفق أو تنظيم يمكن أن يشكل لي الحماية النفسية على الأقل إن لم يدعمني بغيرها حتى يبث فّي الشعور بأنني مواطن سوداني وإن إختلفت إستراتيجياتي المهنية مع وحدة أرسلتني من السودان. وإني من هذا

(*) كان أقل أثر لتجربة توثيق هذه الشهادة هو عدم إرسالي لشهادة الماجستير وشهاداتي الأكاديمية الأخرى فيما بعد لتوثيقها من قبل مكتب السيد القنصل بالسفارة بواشنطون. وقد فضلت أن أعود بها للسودان دون توثيق.

المنطلق أناشد إخوتي المبعوثين في الولايات المتحدة الأمريكية تكوين إتحاد للدارسين السودانيين بأمريكا (كشيمة الجاليات الطلابية الأخرى هناك) يكون عوناً وسنداً للمبعوثين منهم وغير المبعوثين فقد يبعث الشعور بالحماية لمن يحتاجونها - وما أكثرهم في غربة مثل تلك.

وجاء اليوم العشرون من نوفمبر عام ١٩٧٨ موعد إمتحاني الشفوي النهائي لنيل درجة الدكتوراة في مجال التعليم الزراعي. وكما ذكرت فقد تقرر أن أجلس لذلك الإمتحان الشفوي أمام تلك اللجنة المختارة والمكونة من خمسة من البروفسيرات العاملين بالجامعة في الساعة الثانية ظهراً في إحدى قاعات كلية علوم الزراعة والحياة بالجامعة. وقد صحوت مبكراً صباح ذلك اليوم وأطليت من نافذة غرفتي الزجاجية متأملاً في ذلك اليوم الذي سيشهد بداية النهاية لكل متاعبي الأكاديمية والإقتصادية والنفسية. ولم يكن ذلك اليوم عادياً حتى في طبيعته. فقد بدأ الجليد ينهمر بغزارة على الشوارع وأسقف المنازل تذكيراً للناس بأن موسمًا من الشتاء قد بدأ يطل على الأبواب فقد كان ذلك اليوم هو أول يوم ينزل فيه الجليد لشتاء عام ١٩٧٩/٧٨. كانت كل دعواتي لحظتها أن يوفقني الله سبحانه وتعالى في ذلك الإمتحان لأختتم بسلام برنامجي الدراسي والذي قاسيت الكثير من أجله طوال هذه السنين ولأغادر هذه البلاد قبل حلول شتائها المرعب.

وكانت كلمات رقيقة تلك التي بدأ بها أستاذي البروفسير ثومبسون الإمتحان في الساعة الثانية ظهر ذلك اليوم مشيداً بي كطالب من طلبته خلال أربعة أعوام دراسية ومشيراً إلى منحي فترة زمنية محددة لأتحدث عن أساسي الأكاديمي والمهني ومتعرضاً في إختصار لأبعاد رسالة بحثي وما توصلت إليه فيها. وبكلمات ملؤها الشكر لأستاذي البروفسير ثومبسون ولشعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بالجامعة للمعاملة الكريمة التي وجدتها خلال تلك الأعوام الأربعة التي قضيتها بتلك الشعبة بدأت ذلك التقديم والذي أعقبته مختلف الأسئلة من تلك اللجنة خاصة عن خطوات إنجاز بحثي وما توصلت إليه فيه. وقد طلب مني في نهاية

ذلك الإمتحان في الساعة الرابعة ظهراً الإتجاه لخارج القاعة لإعطاء فترة عشر دقائق لأعضاء اللجنة كفرصة للتداول فيما بينهم فيما يختص بتقييمهم النهائي.

وبعد إنتهاء ذلك التداول تم إستدعائي لداخل القاعة مرة أخرى حيث أخطرت رسمياً وعلى لسان أستاذي البروفسير ثومبسون بأنني قد نجحت في ذلك الإمتحان وقد نلت درجتي للدكتوراة. ويا لها من لحظات مفرحة وسعيدة. فقد كانت تلك اللحظات هي حقاً إيذاناً بنهاية المتاعب الأكاديمية والإقتصادية والنفسية والتي صاحبتني لسنوات عديدة. وكانت أجمل اللحظات التي مرت عليَّ بأمريكا بحق هي تلك اللحظات التي عشتها صباح اليوم التالي حيث أقامت لي الشعبة حفلاً تكريمياً صغيراً حضره البروفسيرات وأعضاء هيئة التدريس الآخرون والسكرتارية بالشعبة بالإضافة لبعض العاملين فيها ومجموعة صغيرة من زملائي طلاب الدراسات العليا. وقد تخلل ذلك الحفل الصغير جو من المرح مع مختلف الأسئلة عن برامجي للمستقبل وما أنوي إنجازه في المجال المهني والإجتماعي. وكان ضمن إجاباتي بأنني أرغب العودة لوطني لخدمته في أي وحدة من وحداته المهنية كما أشرت لهم بأننا نحب بلادنا ونسعى لتطويرها بكل إمكانياتنا الفكرية والجسمانية المتاحة كما يحبون هم بلادهم أمريكا ويفخرون بها لدرجة التعصب.

وعدت أدراجي بعد ذلك الحفل الصغير لأحظى بقسط من الهدوء والراحة في غرفتي ذات الجدران الكئيبة ولأبدأ بعدها حزم أمتعتي وتخطيط مراحل سفري إستعداداً للعودة لوطني في النصف الأخير من شهر ديسمبر عام ١٩٧٨. ويشاء حسن الصدف أن أستلم في نفس ذلك الأسبوع رسالة حوت التحويل المالي الذي كنت في إنتظاره بفارغ الصبر حل كل ما تبقى لي من أزمات إقتصادية وأزاح عن كاهلي عبء ديون كانت ضرورية لطباعة بحثي الدراسي. والحمد لله فقد أصبحت على المدى القريب من بر الأمان

فكلها أيام لتنطوي فترة تاريخية عشتها بكل أفراحها وأتراحها تاركاً تقييمها لمقبل الأيام والأجيال. وأية كانت صفة قراري بمواصلة دراستي أصواب هي أم خطأ فأنا لا أدري وهل إختياري لذلك الطريق هو بمحض إرادتي أم أن قدراً دفعني إليه فأنا أيضاً لا أدري. لكنني أدرك شيئاً واحداً هو أنني مشيتها خطى كتبت عليّ. . . ومن كتبت عليه خطى مشاها.

ولقد قضيت الأيام التي أعقبت إمتحاني النهائي في راحة نسبية متنقلاً بين دعوات الأصدقاء والزملاء والتي انهالت عليّ من كل صوب وجانب. وفي العاشر من ديسمبر عام ١٩٧٨ أجريت في الجامعة المراسيم الرسمية لتخريج الطلاب بمختلف درجاتهم حيث صحبني أستاذي البروفسير ثومبسون في موكب التخريج وهو تقليد يسري في الجامعة لخريجي الدرجات العليا فيها. كما أقامت لي الجالية السودانية في ماديسون حفل وداع فاخر في الخامس عشر من ديسمبر حضره كل زملائي وأصدقائي السودانيين في الوقت الذي حزمت فيه كل أمتعتي وأجريت فيه استعداداتي الكاملة للعودة لوطني السودان في العشرين من ديسمبر عام ١٩٧٨.

العودة للوطن

وفي يوم الأربعاء الموافق العشرين من ديسمبر عام ١٩٧٨ وفي السادسة مساءاً اتجهت الى مطار مدينة ماديسون يصحبني أصدقائي السودانيون ليودعوا فيّ زميلاً صامداً عبر السنين في رحلة العودة الأخيرة إلى أرض الوطن ومتطلعاً للقاء الأهل والأصدقاء بعد غيبة هذه السنين. وكانت لحظات مؤثرة تلك التي بدأت فيها ماكينات طائرة خطوط (النورث سنترال) المحلية تدوي إستعداداً للاتجاه إلى مدينة شيكاغو التي وصلناها تمام الساعة الثامنة مساء نفس اليوم بعد طيران استغرق الثماني عشرة دقيقة في جو مليء بالغيوم والجليد المنهمر. وفي مطار (أوهير) بشيكاغو اجريت تأشيراتي اللازمة حيث علمت بأن رحلة طائرة الخطوط الجوية البريطانية إلى إنجلترا والمقرر لي أن أستقلها قد تأخر موعد قيامها من الثامنة والنصف مساء ذلك اليوم وحتى الثالثة والنصف صباح اليوم التالي. قضيت تلك السويعات في مطالعة بعض الصحف والتجول في ردهات المطار حتى ذلك الموعد - وبينما الطائرة ترتفع في أجواء مدينة شيكاغو إستعدت حديثاً لأحد اصدقائي السودانيين مرة وكان قد قضى بضع سنوات في أمريكا يدرس في إحدى جامعاتها حيث ذكر لي بأنه وبينما كان يعبر الأطلنطي على متن الطائرة التي كان يستقلها عائداً للسودان كان يخيل إليه كأنما قد كان في حلم جميل أفاق منه كان يداعب أجفانه الحالمة.

وبالنسبة لي فلم تكن تلك الفترة التي قضيتها في أمريكا حلمًا جميلاً كان يداعب أجفاني وأفقت منه وأنا أعبر الأطلنطي داخل طائرة الخطوط الجوية البريطانية عائداً للسودان، كما أنها لم تكن كابوساً مخيفاً أقلق نومي

وأرعد أطرافي رعباً وذعراً. بل كانت واقعاً عشته لأربع سنوات متتالية بكل خيره وشره، وقد عشته بكامل وعي بكل لحظاته الجميلة أحياناً والقاسية أحياناً أخرى. ولقد كان أدفأها تلك اللحظات التي كان يستقبلني فيها استاذي البروفسير جون فرانسيس ثومبسون على باب مكتبه في الطابق الثاني من مبنى كلية علوم الزراعة والحياة بالجامعة بابتسامة معهودة محيياً: «هاي إلتيقاني... كيف حالك اليوم؟»ولهذا العالم الانسان أشعر بأنني مدان .

وبينما فكري يسترسل في كل ذلك وأضواء عمارات شيكاغو العالية تبتعد عن ناظري رويداً رويداً وأنا أستقل طائرة الخطوط الجوية البريطانية عائداً للسودان بدأت أفق تدريجياً من تلك الدوامة على صوت كابتن الطائرة يردد لمرة ثانية عبارات ترحيب روتينية للركاب ومشيراً إلى أننا نطير في إتجاه الشمال الشرقي نحو لندن عاصمة «دولة الانجليز المستعمرة». وما أن إنتهى الكابتن من تقريره الصغير حتى عاد فكري مرة أخرى مردداً أسئلة ما انفك يرددها باستمرار خلال الأشهر الأخيرة من وجودي في أمريكا عن وطني السودان وما قد طرأت عليه من تغييرات خلال هذه الغيبة وكيف أصبح؟ ولم أفق هذه المرة الثانية على صوت كابتن الطائرة مردداً عباراته الروتينية وارتفاع طيرانه عبر الأطلنطي، بل على صوت المضيفة البريطانية الرقيقة بابتسامة روتينية عريضة وهي تردد عباراتها الروتينية: «هل ترغب أيها السيد في تناول هذا الطبق الخفيف من العشاء؟».

خاتِمَة

كواحد من أبناء السودان الذين اتيحت لهم الفرص الغالية لينهلوا من العلم خارج أرض الوطن أرى أن هناك إلتزاماً يفرض عليّ أن أعرض تجربتي بأمانة لأبناء وطني. ورغم أنها قد لا تتعدى حدود شخصي والمدينة التي عشت بها بل ربما الجامعة التي درست فيها فربما تفيد الدارسين والمنظرين الاجتماعيين يوماً ما . وبالطبع لن يفوت على القاريء الكريم أن يدرك أن هناك نقطتين هامتين وأساسيتين خرجت بهما نتيجة إحتكاكي بالمجتمع الأمريكي.

أولهما - في رأيي، أن إبتعاد المجتمع الأمريكي عن الدين أدى لخلق مشاكل إجتماعية خطيرة لهذا المجتمع كافية لأن تطيح بحضارته التكنولوجية التي بناها. فأمريكا - ولا جدال في ذلك - تملك ثراء الدنيا ونعيمها وتكنولوجيتها، لكنها تفتقد شيئاً واحداً هو في رأيي مصدر قلقها وآلامها الإجتماعية المتشعبة. وذلك الشيء هو إطار ديني يمكن أن يحفظ مجتمعها من كثير من الأمراض الاجتماعية القاتلة. وينتج عن ركل هذا المجتمع للتعاليم الدينية غياب ذلك الإطار الاجتماعي الحافظ لتحل محله قيم وعادات ومقاييس أخلاق مستمدة أساساً من طبيعة نظامه الرأسمالي ومؤسساته الإقتصادية ولا علاقة لها بالدين.

ثانياً - وفي رأيي أيضاً، أن أمريكا من الناحية الاقتصادية هي لحد ما مؤسسة إقتصادية كبيرة توجه جهودها المكثفة نحو الربح، والربح فقط ولا يوجد في قاموسها أشياء تسمى بمساعدات وإنسانيات وروحانيات لأن المصلحة الذاتية والعامل الإقتصادي هما المحك لأيديولوجيتها. وهذه

الحقيقة مرتبطة أيضاً لحد كبير بغياب الإطار الديني في مجتمعها. فالمساعدات والإنسانيات هي خصال تدعو لها الأديان فقط ولا تمارسها المؤسسات الإقتصادية المسيطرة على أمريكا والتي تهتم أول ما تهتم بتضخم أرباحها وتنظيف جيوب المستهلكين لسلعها. وتضحى هناك حقيقة واضحة للعيان وهي أن الباحث عن المساعدات والإنسانيات والصداقات لا يمكن أن يجدها فيمن لا يعرف الروحانيات أساساً.

وإستناداً على ذلك يجب أن يفرق الانسان بين أمريكا النظام وأمريكا الأفراد. فأمريكا النظام هي عالم محوره الاقتصاد ويخلو من القيم الإنسانية وأخلاقياتنا الشرقية وأمريكا الأفراد هي عالم توجد فيه إشراقات إنسانية تعجز الكلمات عن وصفها خاصة بين فئات الأساتذة والمحاضرين بالجامعات الأمريكية وخاصة الجامعات العريقة كجامعة ويسكونسن وهي فئة تمثل ضمير الامة الأمريكية ونبضه الانساني الحي.

وليسمح لي القاريء الكريم وفي نهاية هذه الذكريات أن ألخص فيما يلي من كلمات حصيلة تجربتي خلال أربعة أعوام من المعيشة في الولايات المتحدة الأمريكية: خير لبلادنا واقتصادها أن تحذر التورط (وليس التعامل) مع المؤسسات الاقتصادية للدول الغربية بما فيها أمريكا. فأفقر أقطار الله على الأرض اليوم هي أقطار كانت أو لا زالت مرتبطة إقتصادياً بالغرب وقد عرفت بعض أقطاره مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والمانيا والبرتغال وغيرها بتاريخ حافل في شؤون الإستعمار والاستغلال. وخير لمجتمعنا ولأخلاقياته أن يوقف التشبه بالمجتمعات الغربية بما فيها أمريكا. ولنعد إلى إسلامنا فهو وحده المنجي - كما أرى - في مرحلة يسير فيها العالم وزعيمته أمريكا بخطى حثيثة نحو المجهول.

Bibliography

1 — Carnoy, Martin **Education as Cultural Imperialism**. David McKay Company, Inc. New York, N.Y. 1974.

2 — Csida, June B. and Joseph Csida **Rape: How To Aviod It And What To Do About It If You Can't.** Books for Better Living. Chatsworth, California. 1974.

3 — Debenham, Jerry and Howard Wakefield «The Future of Schools and Families: A Look at Trends and Policy Alternatives». A paper. 1977. (Unpublished material).

4 — dieckvoss, W. and W. Kruse **The Stars**. Ann Arbor. The University of Michigan Press.

5 — Etzioni , Amitai **Social Problems**. Prentice-Hall, Inc. Englewood Cliffs, New Jersey. 1976.

6 — Farwell, Byron **Prisoners of the Mahdi**. Harper and Row, Publishers. New York, N.Y. 1967.

7 — Frankl, Viktor E. **Man's Search For Meaning**. Pocket Books. New York, N.Y. 1963.

8 — Fromm, Erich **The Revolution of Hope: Toward a Humanized Technology**. Harper and Row, Publishers. New York, N.Y., 1968.

9 — Griffin, J.H. **Black Like Me.** A signet Book. Published by the New American Library, 1962.

10 — «Harvard Educational Review». Volume 43, No.1, Februrary 1973.

11 — «How to Stop Smoking». A pamphlet issued by the American Heart Association. Forty-four East 23rd Street, New York, N.Y. 10010.

12 — Ivins, Ann **Stars and Constellations**. A Rutledge Book, 1969.

13 — Jordan, Winthrop D. **White Over Black** Penguin Books, Inc. Baltimore, Maryland, 1968.

14 — Louis, Debbie **And We Are Not Saved: A History of the Movement As People.** Doubleday and Company, Inc. Garden City, New York, 1970.

15 —«MacsaNews». Issue No.68, December 1977. Issued by Madison Area Committee on Southern Africa. 731 State Street, Madison, Wisconsin 53703.

16 —**Malcolm X on Afro-American History.** Written by Malcolm X. Merit Publishers. 1967.

17 — **Malcolm X Speaks.** Selected speeches and statements, edited by George Breitman. Grove Press, Inc. New York, N.Y. 1965.

18 — May, Rollo **Power and Innocence.** W.W. Norton and Company, Inc. New York, N.Y. 1972.

19 — McElroy, W.D. et al. **Foundations of Biology.** Prentice-Hall, Inc. Englewood Cliffs, New Jersey, 1968.

20 — Miller, Ruth (ed.) **Black American Literature: 1760- Present.** Glencoe Press. Beverly Hills, California, 1971.

21 — Morel, E.D. **The Black Man's Burden.** M.R. New York, N.Y. 1920.

22 — Nietzsche, Friedrich **Beyond Good and Evil.** Translated by Marianne Cowan. A Gateway Edition. Henry Regnery Company. Chicago, I11. 1955.

23 — Payne-Gaposchkin, Cecilia **Stars in The Making.** Harvard University Press. Cambridge, Mass. 1952.

24 — «Poverty Profile: An in-depth study of Poverty in America». NC Publications, Inc. Campaign for Human Development. U.S. Catholic Conference. Washington, D.C. 1972.

25 — Ross, Floyd H. and Tynette Hills. **The Great Religions by Which Men Live.** A Fawcett Premier Book. Fawcett Publications, Inc., Greenwich, Conn. 1956.

26 — Rublowsky, John **Life and Death of the Sun.** Basic Books, Inc., Publishers. New York, N.Y. 1965.

27 — Schmandt, Juergen. «Technology and Education» In **Issues in American Education: Commentary On the Current Scene.** By Arthur M. Kroll (ed.) Oxford University Press. New York, N.Y. 1970.

28 — Sixth Report of the National Advisory Council On Vocational Educa-

tion: Presented to the Secretary of Health, Education and Welfare, U.S.A.

29 — Skinner, B.F. **The Technology of Teaching.** Prentice-Hall, Inc. Englewood Cliffs, New Jersey. 1968.

30 — Slatin, R.C. **Fire and Sword in the Sudan.** Translated by Major F.R. Wingate. Edward Arnold. New York, N.Y. 1896.

31 — **The Autobiography of Malcolm X.** Written by Malcolm X. Grove Press, Inc. New York, N.Y. 1965.

32 — Thompson, J.F. **Foundations of Vocational Education: Social and Philosophical Concepts.** Prentice-Hall. Englewood Cliffs, New Jersey. 1973.

33 — Van Til, W. (ed.) **Issues in Secondary Education: The Seventy-fifth Yearbook of the National Society for the Study of Education.** Part II. University of Chicago Press. Chicago, I11. 1976.

34— Wakefield, D. **The Addict.** A Premier Book. Fawcett Publications, Inc. Greenwich, Conn. 1963.

35 — Woodward, L.T. **Sex and The Divorced Woman.** Lancer Books. New York, N.Y. 1964.

مــرفقــات

مرفق رقم (١)

النسخة المصورة للمقال الذي ظهر في صحيفة «الديلي كاردينال» بجامعة ويسكونسن - ماديسون، العدد رقم ١١١، مجلد ل ٣٧ الصادر بتاريخ ١٥ مارس (آذار) ١٩٧٧، والترجمة العربية له:

Forum WE DIDN'T RETURN TO THE SAND

Eltigani E. Shabbour

«The land that doesn't have Gordon will return to the sand».

This was the closing comment of the movie Khartoum by Charles Heston and Laurence Oliver, which I happened to see for the first time as a TV movie a few days ago. Before coming to the United States I heard a lot about this movie in my home land, Sudan, which is supposed to deal with a very important part of the Sudanese history. It is just now that I understand why the government of Sudan is prohibiting the entrance of this movie to the country. This movie is very distortive and full of historical mistakes and lies, and represents nothing but a collection of forgeries to Sudanese history. Gordon Pasha, who is symbolized as the English hero for all English generations represents nothing to us (Sudanese) more than a tool of the English colonization and ensalvement.

THE MOVIE STARTS with a fomous battle in the western part of Sudan, Sheikan, where ten thousand foreign soldiers led by an English commander were annihilated or captured in their attempt to suppress an uprising movement against colonizers. From a historic point of view, the land that appeared in the movie is not a true reflection of the site of the true battle. A famous tribal leader is seen in the movie kissing Gordon's feet: a

sight that no one would see in Sudan if he or she lived a million years to come. Slatin Pasha, the Austrian spy who was supposed to be a soldier and who lost his manhood under captivity of the «Mahdi», has never appeared in the movie and he is almost a basic element in that part of history. The reason may be to cover a shameful role he played to save his life. History never recorded Gordon meeting the «Mahdi» in Sudan an event that appeared twice in the movie with prolonged and fabricated dialogue between the two (obviously in favor of Gordon). The movement of the English army to reconquer Sudan appeared at the same time when the «Mahdi» was advancing to liberate Khartoum. True history records that the English reconquering army started moving to Sudan thirteen years or more after the liberation of Khartoum from Gordon and his goverment.

The movie justifies the English invasion to prevent slave trading in Sudan, which is basically initiated and practiced by the English people (at least in Sudan), since they claimed themselves masters of this earth and messed up the nations under their colonialism. They and their mates in slave trading (Spanish an Portugese) are the sole and fully responible agents of this shameful trade.

The English slave traders learned and manipulated the art of this trade shortly after the Spanish and Portugese had the honor of its inauguration. The book WHITE OVER BLACK by Professor Winthrop D. Jordan, and many other books, clearly delineate the dirty role of the English people in enslaving the Africans.

Time and space wouldn't allow me to expand on the basic notions with which the English people allowed themselves to enslave others and at the same time clain the concepts of freedom and democracy for themselves. The Africans didn't enslave their brothers and they didn't know the routes to the Americas and West Indies, except as slaves themselves. We don't and we didn't sell ourselves, but we were enslaved by force.

We believe that it is time that we raise our voices against, and condemn, any creature that hurts us; and above all, the parts of our history that we pride and respect. We are no longer those primitive and naive people to accept anything that the master says. We are now independent and a nation with its identity that seeks respect from other nations while at the same time we are aware of our duty to respect other nations. We didn't return to Gordon and we didn't return to the sand as the big liar shouted in the movie. Yes, as a young aspiring nation, we are moving ahead and we are doing very fine with the ultimate belief that returning to Gordon would have kept us to date under enslavment.

I would close by saying that the movie is nothing but a big insult to Sudan and the Sudanese history; and it doesn't honor any one around here because honesty is what you Truly feel in this part of the world and the movie proves just exactly the opposite. What I have pointed out are a very few examples out of many in the movie which I am sure is very boring and disinteresting to any one who doesn't know thoroughly the Sudanese history. Several books could serve as a reference to prove my position; of which I point out two written by westerners, one of whom had actual experience in thepartof Sudanese history which is dostorted by the movie:

☆ «Prisoners of the Mahdi» by Byron Farwell. Harper and Row, Publishers, New York, 1967.

☆ «Fire and Sword in the Sudan» by Rudolph C. Slatin, translated by Major F. R. Wingate. Edward Arnold, Laondon, 1896

Eltigani E. Shabbour
Graduate student
University of Wisconsin-Madison

«لم نعد للرمال»(*)

«الأرض الخالية من غردون ستعود إلى الرمال».

هذا هو التعليق الختامي لفيلم الخرطوم، تمثيل شارلس هيستون ولورنس أوليفر والذي شاهدته لأول مرة كفيلم تليفزيوني منذ بضع أيام مضت. قبل مجييء للولايات المتحدة سمعت الكثير عن هذا الفيلم في وطني السودان وهو في الواقع يعالج جزءاً هاماً في تاريخ بلادي السودان. الآن فقط أدركت لماذا منعت حكومة السودان دخول هذا الفيلم لبلادنا. إن هذا الفيلم مشوه لتاريخنا للغاية ومليء بالأخطاء التاريخية والأكاذيب ولا يمثل سوى مجموعة من التزييفات للتاريخ السوداني. إن غردون باشا والذي يرمز له كالبطل الإنجليزي الكبير لكل الأجيال الإنجليزية لا يمثل لنا نحن السودانيين سوى أداة من أدوات الإستعمار والاستعباد الانجليزي.

يبتديء الفيلم بمعركة مشهورة وقعت في غرب السودان وهي معركة (شيكان) حيث تم فيها تدمير أو أسر عشرة آلاف جندي أجنبي يقودهم قائد إنجليزي في محاولة لضرب إنتفاضة وطنية ضد المستعمرين. من النواحي التاريخية نجد أن طبيعة أرض المعركة كما ظهرت في الفيلم لا تمثل الموقع التاريخي الحقيقي للمعركة. يظهر أيضاً في الفيلم أحد زعماء القبائل في السودان وهو يقبل قدم غردون وهو منظر لن يراه أحد في السودان حتى لو قدر له أن يعيش لمليون سنة تأتي. سلاطين باشا الجاسوس النمسوي والمفترض فيه أن يكون جندياً والذي فقد شجاعته وكبرياءه تحت الأسر المهدي لم يظهر إطلاقاً في الفيلم وهو عنصر أساسي في تلك الفترة من التاريخ السوداني. ربما يكون السبب لذلك هو إخفاء دور مخجل لعبه لينقذ به حياته.

(*) هذه ترجمة للمقال الذي ظهر في صحيفة الديلي كاردينال اليومية بجامعة ويسكونسن - ماديسون في العدد رقم١١١ مجلد ل٣٧ بتاريخ ١٥مارس ١٩٧٧. ويجد القارىء الكريم المقال باللغة الانجليزية كما نشر في الصحيفة.

لم يسجل التاريخ إطلاقاً في صفحاته أن المهدي إلتقى بغردون وتحادث معه، الشيء الذي ظهر مرتين في الفيلم وبمحادثات مطولة ومصنوعة بين الاثنين (بالطبع هي في صالح غردون). يظهر تحرك الجيش الانجليزي لاعادة فتح السودان في الفيلم في نفس الوقت الذي ظهر فيه المهدي متحركاً بجيشه نحو الخرطوم لتحريرها. يسجل التاريخ الحقيقي في صفحاته أن جيش الفتح الانجليزي بدأ تحركه نحو السودان بعد ثلاث عشرة سنة أو أكثر من تحرير الخرطوم من غردون وحكومته بواسطة المهدي.

هذا الفيلم يبرر الغزو الانجليزي الاستعماري لمنع تجارة الرقيق في السودان والتي بدأها ومارسها أساساً الانجليز (على الأقل في السودان) منذ أن إدّعوا سيادة هذه الأرض وسحقوا الأمم تحت إستعمارهم. إنهم هم ورفقاؤهم في تجارة الرقيق (الإسبانيون والبرتغاليون) العملاء الوحيدون والمسؤولون مسؤولية كاملة عن هذه التجارة بعد أن حاز البرتغاليون والاسبانيون شرف إفتتاحها. يوضح كتاب «أبيض فوق أسود» للكاتب وينثروب د. قوردان وكتب أخرى كثيرة الدور الذي مارسه الإنجليز في إستعباد الأفارقة. إن الوقت والزمن لا يسمحان لي بالاسهاب في تسطير الأفكار الأساسية التي سمح بها الانجليز لأنفسهم إستعباد الآخرين في الوقت الذي ادعوا فيه الديمقراطية والحرية لأنفسهم. لم يستعبد الأفارقة إخوانهم ولم يعرفوا الطريق للأمريكتين وجزر الإنديز الغربية قبل ذلك. إننا لم نبع أنفسنا ولكننا أُستعبدنا بالقوة.

إننا نرى بأن الوقت قد حان لنرفع أصواتنا عالية لندين أي مخلوق يؤذينا ويؤذي فوق كل شيء تاريخنا الذي نفخر به ونحترمه. إننا لم نعد تلك الأمم الساذجة المتخلفة لنقبل ما يقوله لنا السادة. إننا الآن أمة مستقلة لها كيانها ووزنها تطلب الإحترام من الامم الاخرى وفي نفس الوقت تعي. تماماً واجبها في إحترام الامم الاخرى. إننا لم نعد لغردون ولم نعد للرمال كما صاح ذلك الكذوب في الفيلم. ولكننا وكأمة متطلعة

للمستقبل سائرون للأمام وبأجمل صورة ونؤمن تمام الإيمان بأن عودتنا لغردون كانت ستجعلنا نرزح إلى اليوم تحت ظل الإستعباد.

إنني أختتم مقالي بقولي أن هذا الفيلم ليس سوى إساءة كبرى للسودان وللتاريخ السوداني ولا يشرف إطلاقاً أي فرد هنا لأن الأمانة من الأشياء التي يحسها الإنسان هنا وهذا الفيلم أبعد ما يكون عن الأمانة. أما ما أشرت له من أخطاء في هذا الفيلم فهي ليست سوى أمثلة قليلة من عدد كبير من الأخطاء فيه. ولا يراودني الشك مطلقاً بأن هذا الفيلم ممل وعديم الأهمية لأي شخص لا يعرف التاريخ السوداني معرفة تامة. هناك عدة مراجع يمكن أن تؤيد كلامي أشير لإثنين منها كتبا بواسطة غربيين أحدهما لديه التجربة الحقيقية في معرفة جزء من التاريخ السوداني المشوه بواسطة الفيلم والكتابان هما:

* «أسرى المهدي» لبيرون فيرويل. طباعة هاربر وراو بنيويورك ١٩٦٧.
* «السيف والنار في السودان» لرودلف سلاطين . ترجمة الميجور ف.د. وينجت. طباعة إدوارد آرنولد، لندن، ١٨٩٦.

التجاني الشيخ شبور
طالب دراسات عليا/جامعة ويسكونسن - ماديسون

ملحوظة : في هذا المقال أشرت لأخطاء أخرى مثل تأدية الصلاة بطريقة مضحكة وخاطئة للغاية وبعض أشياء أخرى حذفتها الصحيفة عند النشر خاصة حينما أشرت بأن تعداد المسلمين اليوم في العالم يقارب السبعمائة مليون مسلم (حوالي ثلث سكان العالم) حسب تقديرات إتحاد الطلاب المسلمين بالولايات المتحدة وكندا.

مرفق رقم (٢)

نسخة مصورة من خطاب الاخطار بمنحة المصروفات للطلاب غير القاطنين بولاية ويسكونسن والترجمة العربية له.

THE GRADUATE SCHOOL
UNIVERSITY OF WISCONSIN-MADISON
BASCOM HALL
MADISON, WISCONSIN 53706

January 11, 1977

Mr. Eltigani E. Shabbour
433w. Gilman, # 315
Madison, WI 53703

Dear Mr. Shabbour:

The Graduate School Fellowships Committee of the University of Winsconsin-Madison is pleased to offer you a Nonresident Tuition Scholarship for Semester II, 1976-77.

This scholarship exempts the recipient from payment of the Out-of-state tuition. You Will be required to pay the in-state fees, $479.50 for one semester for a full program. It is understood that you Will register for a full load of nine to twelve graduate credits while holding this fellowship. This appointment will automatically cover the summer following the second semester scholarship. Nonresident Scholarships are not auto-matically renewable; you must re-apply each year to your department for consideration.

Please inform the Followships Office, 217Bascom **as soon as possible** whether or not you will be able to accept this scholarship. After your acceptance has been received, the Registrar will be authorized to charge you at the resident rate.

If you receive another appointment or if for any reason you will not need this award, please notify the Fellowships Office, 217 Bascom Hall, at once. This will make it possible to reassign the scholarship to an alternate.

Sincerely,
Robert M. Bock
Dean
RMB: jmc
cc: Continuing and Vocational Education
Enclosure

كلية الدراسات العليا
جامعة ويسكونسن-ماديسون

عزيزي السيد/شبور؛

يسر لجنة المنح لكلية الدراسات العليا بجامعة ويسكونسن-ماديسون أن تمنحك منحة المصروفات للطلاب غير القاطنين بولاية ويسكونسن، وذلك للفترة الدراسية الثانية للعام الدراسي ١٩٧٧/٧٦.

هذه المنحة تعفى حاملها من دفع المصروفات الكاملة التي يدفعها الطالب الأجنبي. وعلى ذلك سيكون عليك دفع المصروفات التي يدفعها الطالب القاطن بولاية ويسكونسن وهي مبلغ ½ ٤٧٩ دولار للفترة الدراسية الواحدة للبرنامج الكامل*. ويفهم من ذلك بأنك ستتسجل لمجموعة دراسية كاملة تعادل ما بين ٩-١٢ وحدة دراسية خلال فترة المنحة. هذه المنحة تغطي أتوماتيكياً فترة الصيف الدراسية التي تتبع الفترة التي أعطيت فيها المنحة. منح الطلاب غير القاطنين بولاية ويسكونسن لا تتجدد أتوماتيكياً وعليك أن تقدم طلباً كل عام للشعبة التي تنتمي لها في الجامعة لينظر فيه.

الرجاء إخطار مكتب المنح في الغرفة رقم٢١٧ بمبنى باسكوم في أسرع فرصة ممكنة إذا رغبت في قبول هذه المنحة. بعد إستلام قبولك لهذه المنحة سيخطر مسجل الجامعة لتدفع المبلغ الذي يدفعه الطالب القاطن بولاية ويسكونسن.

في حالة إستلامك لمنحة أخرى أو لأي سبب من الأسباب لا ترغب

(*) يدفع طالب الدراسات العليا الأجنبي (حتى القاطن في ولاية أمريكية أخرى غير ولاية ويسكونسن) مبلغ ١٣٣٦ دولار للفترة الدراسية الواحدة (حوالي أربعة أشهر في السنة).

في قبول هذه المنحة أرجو إخطار مكتب المنح حالاً حتى يمكن أعطاؤها لطالب آخر.

المخلص
روبرت م. بوك
عميد

صورة لشعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل.

مرفق رقم (٣)

صورة من خطاب الشكر من رئيس قسم الشؤون الزراعية بالإقليم الرابع لمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني والترجمة العربية له .

Septembre 3, 1976
Mr. Eltigani Elsheikh Shabbour
433 West Gilman, # 315
Madison, Wis. 53703

Dear Mr. Shabbour:

Thank you for presenting our Area Vocational, Technical and Adult Education District No. 4 Farm Training Instructors and myself with a copy of your Master of Science Degree thesis done with graduates of our Farm Training Program. I Have read your entire thesis and find that it will be of great help to evaluate our program. It is well organized and presented. Your summary and findings in our district will be shared with other VTAE districts in Wisconsin and our instructors. Also, your summary will be discussed with our four Farm Training Instructors at their next staff meeting on September 23.

We were very pleased to cooperate with you in this study and know we have mutually benefited from this study.

My best wishes go to you towards a continued successful career in vocational agricultural education. Do not hesitate to let me know whenever I may be of any future help.

Sincerely,
Daniel W. Scheid
Chairman
Agribusiness Division

DWS/jw

cc: Dr. John F. Thompson
Mr. Norman P. Mitby
Fram Trainining Instructors

الإقليم الرابع لمجلس ولاية ويسكونسن
للتعليم الفني والمهني

٣ سبتمبر ١٩٧٦

عزيزي السيد شبور

شكراً على إهدائك لي ولأساتذة برنامج التدريب الحقلي نسخة من رسالة البحث لدرجة الماجستير والتي أجريتها على خريجي برنامج التدريب الحقلي بالإقليم الرابع لمنطقة التعليم الفني والمهني بولاية ويسكونسن. لقد قرأت الرسالة كلها ووجدت أنها ذات قيمة كبيرة في تقييم برنامجنا. إنها غاية في النظام والتقديم. سيشاركني الأساتذة بهذا البرنامج الإستفادة منها كما ستشاركنا في الإستفادة الأقاليم الأخرى للتعليم الفني والمهني بولاية ويسكونسن. سيطرح ملخص هذه الرسالة في إجتماع هيئة الأساتذة لبرنامج التدريب الحقلي والمقرر عقده في الثالث والعشرين من سبتمبر.

لقد سعدنا حقاً بأن نتعاون معك في هذه الدراسة وسعدنا أيضاً أن نعلم بأننا أيضاً إستفدنا منها.

أرجو أن تتقبل أجمل أمنياتي لك بالنجاح المستمر في مجال التعليم الزراعي. كما أرجو ألا تتردد في الإتصال بي مستقبلاً متى ما شعرت بأنك في حاجة إلى مساعدة.

مخلصك
دانيل و. شايد
رئيس قسم الأعمال الزراعية

صورة للدكتور جون ف. ثومبسون
صورة للسيد نورمان ب. ميتبي
صورة لأساتذة التدريب الحقلي.

مرفق رقم (٤)

صورة من خطاب الشكر من شعبة تقويم البرامج بمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني والترجمة العربية له.

State of Wisconsin
BOAED OF VOCATIONAL
TECHNICAL & ADULT EDUCATION

October 5, 1976

Mr. E.E. Shabbour
433 West Gilman Street
Madison, Wisconsin 53703

Dear Eltigani:

Thank you for sharing both yourself and thesis with our bureau last Monday morning. Your follow-up study on graduates from the VTAE District 4 Farm Training program appeared technically complete and academically fulfilling.

I am hastily persuing through your manuscript and will forward highlights to Mr. Cletus Fontaine, our consultant for the Farm Training program. He is particularly interested in learning about your conclusions and recommendations.

Again, thank you for your personal time and best wishes in your governmental employment in Sudan and any future educational endeavors you might persue.

Sincerely,
William h. Woods
Educational Services Assistant
Bureau of Program Accountability
jd
cc: Jack Smythe
P.S. I will return your thesis within two weeks

مجلس ولاية ويسكونسن
للتعليم الفني والمهنى

٥أكتوبر ١٩٧٦

عزيزي التجاني،

شكراً لك على حضورك شخصياً برسالة بحثك لتشارك بها العاملين بإدارتنا صباح الاثنين الماضي. رسالتك عن خريجي برنامج التدريب الحقلي بالاقليم الرابع لمجلس ولاية ويسكونسن للتعليم الفني والمهني تبدو مكتملة فنياً وقيمة أكاديمياً.

إنني في مرحلة متابعة سريعة لهذه الرسالة وسأبعث بأضواء منها للمستر كليتس فونتين خبيرنا لبرنامج التدريب الحقلي. إنه مهتم خصيصاً بمعرفة ملخصاتك وتوصياتك.

أكرر شكري لك ولوقتك الشخصي وتقبل مني أجمل الأمنيات في وظيفتك الحكومية بالسودان وفي أي تطلعات تعليمية ترنو لها مستقبلاً.

مخلصك

وليام هـ. وودز

مساعد الخدمات التعليمية

إدارة تقويم البرامج

صورة للسيد: جاك سمايث.

سأعيد لك الرسالة في خلال أسبوعين.

نبذة عن المؤلف

* تخرج من كلية الزراعة / جامعة الخرطوم،
بيكالوريوس زراعة مرتبة الشرف الثانية عام ١٩٧٠.

* إلتحق عقب تخرجه بمصلحة التعليم والارشاد الزراعي، سابقاً بوزارة الزراعة حيث عمل في أقسامها الثلاثة، التعليم الزراعي، الارشاد الزراعي والاعلام الزراعي.

* عمل لفترة مساعداً مباشراً لمدير مصلحة التعليم والارشاد الزراعي بوزارة الزراعة.

* عمل لفترة مساعداً لأحد خبراء منظمة الأغذية والزراعة العالمية في التعليم الزراعي.

* لديه عدة مقالات مهنية في صحيفة الصحافة ونشرة وكالة السودان للأنباء ومقالات غير مهنية في المجلة الزراعية لطلاب كلية الزراعة/ جامعة الخرطوم وصحيفة «الديلي كاردينال» بجامعة ويسكونسن-ماديسون.

* بعثته حكومة السودان للولايات المتحدة الأمريكية للتحضير لدرجة الماجستير في التعليم الزراعي في ديسمبر عام ١٩٧٤ ونال الدرجة من كلية علوم الزراعة والحياة بجامعة ويسكونسن-ماديسون في ديسمبر عام ١٩٧٦.

* واصل دراسته لدرجة الدكتوراة في تخطيط وتقويم برامج التعليم الزراعي ونالها من نفس الجامعة في ديسمبر عام ١٩٧٨ بتخصص فرعي في دراسات سياسة التعليم.

* في أواخر برنامجه الدراسي بأمريكا منحته كلية الدراسات العليا بجامعة ويسكونسن-ماديسون منحة المصروفات للطلاب غير القاطنين بالولاية لفترة الربيع الدراسية للعام الدراسي ٧٦/ ١٩٧٧ كما منحته شعبة دراسات التعليم المهني والمتواصل بكلية علوم الزراعة والحياة بالجامعة منحة الباحث المساعد للعام الدراسي ٧٧/ ١٩٧٨.